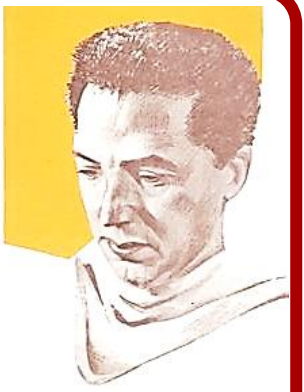

حوار مع أستاذى المؤمن

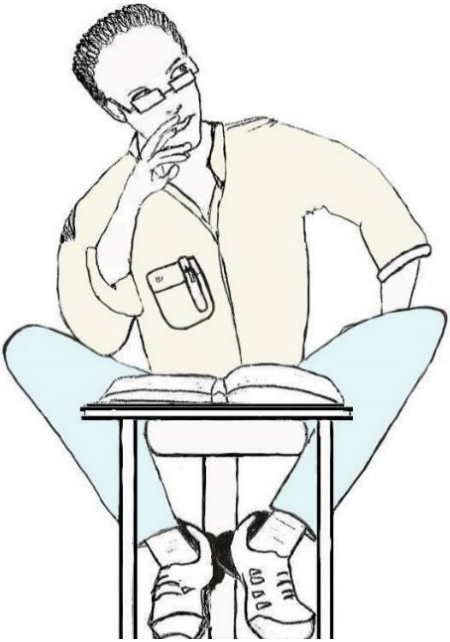

محمد شاور

حوار مع أستاذى المؤمن

محمد شاور

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

حوار مع أستاذى المؤمن

أستاذى ومعلمى ومثلى الأعلى لسنوات طوال ..
صوته الرخيم لازال يعود بى إلى حلم شبابى وصباى ..
هو جزء لايتجزأ من نشأتى ومعرفتى وخيالى ..
عشت كتاباته وتأملاته وصرت له تلميذاً ومريداً ..
ولايمكننى إنكار دوره فى حبى وتعلقى بالعلم ..
رأيت فى حديثه الرصين الكثير من السلاسة والمنطق الهادىء - ووصلتنى كلماته وحججه وصارت جزءاً لايتجزأ من تركيبتى الفكرية والعلمية بكل ما حوت تلك التركيبة من حسنات أو عكس ذلك ..
وبعد أن تشكل تفكيرى وعقلى عبر أعوامى الأولى الثلاثين، حان الوقت بعدها أن أشق طريقى أنا من حيث تركنى هو .. عند مرفأ العلم والإيمان ..
وكان لزاماً على أن أعيد النظر فى فكر ترسب فى كيانى وصار جزءاً من هويتى، ولم أتوقف عن السؤال والتساؤل - وتحديت أفكاراً رسخت ليس فقط فى عقلى أنا بل فى عقل أمة بأكملها .. وقلبت كل أمر على كل أوجه، ولم أجبن عن تحد أى فكر أو أيديولوجية .. ولم أهرب أبداً من سؤال صعب ..
وكانت النتيجة هذا الكتاب ..

كلمة أولى .. الخالق والمخلوق

دكتورنا الكبير لايضيع وقتاً .. أسلوبه السلس والمباشر يضع الكلور مع الصوديوم لينتجا كلوريداً للصوديوم – انتهينا ..
وفلسفته فى أولى صفحات الكتاب فلسفة مباشرة صادمة - كيف تجعل من الخالق مخلوقاً .. أليس ذلك هو عين التناقض؟ فها هو صديقه الملحد يسأله: "أنتم تقولون أن الله موجود، وعمدة براهينكم هو قانون السببية الذى ينص على أن لكل صنعة صانعاً، صدقنا وآمنا بهذا الخالق .. ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل: ومن خلق الخالق؟ ألا تقودنا نفس استدلالاتكم إلى هذا؟ ما رأيكم فى هذا المطب دام فضلكم ..؟"
ويجيب مصطفى محمود بقوله : "سؤالك فاسد .. ولامطب ولاحاجة فأنت تسلّم بأن الله خالق ثم تقول من خلقه؟! فتجعل منه خالقاً ومخلوقاً فى نفس الجملة، وهذا تناقض .. والوجه الآخر لفساد السؤال أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته .. فالسببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان .. والله الذى خلق الزمان والمكان هو بالضرورة فوق الزمان والمكان، ولايصح لنا أن نتصوره مقيداً بالزمان والمكان .. ولابقوانين الزمان والمكان .."
وفى حقيقة الأمر ربما كان ذلك المنطق الذى يطرحه مصطفى محمود هو أصعب حجة واجهتنى خلال رحلتى من الإيمان إلى ما أسميه أنا الآن بالفكر الحر ..
فكيف لى أن أتعامل مع منطق يقول بكائن لايخضع لقوانين الطبيعة - فنحن إذا ما خرجنا عن حدود عالمنا المألوف وقوانينه فإن أى شىء يصير ممكناً إذن، وليس علينا إزر إثباته ..
والمشكلة هنا تبدو وكأنها مشكلة غير المؤمن – فمدعى الإيمان يقول بأن الإله لايخضع لقوانين الطبيعة، وتلك حجة لايمكن التعامل معها لسبب بسيط هو أن ما لايخضع لقوانين الطبيعة هو أمر لايمكن استيعابه أو تفسيره - ولهذا السبب نفسه فهو أمر لايمكن أيضاً نفيه - وهنا تكمن المشكلة .. فغير المؤمن ليس لديه إمكانية إثبات ذلك أو عكسه، فهو أمر خارج الطبيعة - وهنا يرتد السؤال على مدعى الإيمان:- كيف عرفت ذلك؟
كيف تيقنت من أن هناك كائناً خارج حدود الطبيعة ليس له أول ولاآخر ولا له موجد ولاهو يموت؟ كيف تمكنت من فهم ذلك وهو أمر لم يصمم عقلك على استيعابه؟

ولماذا اتضح الأمر لك أنت ولم يتضح لألوف وملايين البشر - ومنهم كثيرون حاولوا وفكروا وأمضوا العقود فى البحث وعادوا صفر اليدين ..
إن العقل البشرى لكى يعقل أى أمر لابد أن يرى له بداية ونهاية - أما حينما تواجهنى بأمر لابداية له ولا نهاية فلابد لى إذن من الإقرار بأن هناك شيء لاأفهمه، وهنا الفرق، فالمؤمن يتوقف هنا ويعزو كل شيء لانفهمه الى كائن خارق للطبيعة، أما المفكر الحر فيحاول أن يخطو خطوة أخرى فى محاولة الفهم ..
وأنا ليست لدى مشكلة فى الإقرار بأن هناك شيء لاأفهمه، بل إن كل العلوم الإنسانية منذ بدأ البشر لاتعدو إلا أن تكون الحروف الأولى فى موسوعة لاحدود لها .. إلا أن هناك أمور يمكن فهمها، أو نعمل على فهمها - وكل يوم يحمل معه فهماً جديداً لأمر لم يكن مفهوماً من قبل .. إلا أن فكرة الإله ليست كذلك - فهى أمر خارج قوانين الطبيعة - أو فوق الطبيعة ..
ولنا هنا أن نتسائل - إن كان الإله فوق الطبيعة - كيف يمكن لبشر أن يحادثه ويسمعه - ويدعوه فيستجيب (أو يتجاهل)، بل وأكثر من ذلك - كيف له أن يملى كتباً وأحاديثاً وفكراً لبنى آدم - وهم بحكم تركيبتهم لايمكنهم التواصل مع ما خرج عن حدود الطبيعة ..
ولماذا قرر هذا الكائن اختيارك أنت على وجه التحديد ليحادثك ويستمع إليك ويعينك فى أمور دنياك ولم يخترنى أنا؟ رغم أننى ما ادخرت جهداً فى محاولة فهمه والتقرب إليه .. والحاصل دائماً صفر كبير ..
بماذا تميزت عنى؟
إن أى فرض يستحيل نفيه ويستحيل إثباته هو أمر لايخضع لمنطق .. ولكى تقنعنى بأن هناك كائناً خارقاً للطبيعة فلابد لى لكى أقتنع أن أعلق المنطق - ولا يبقى هنا سوى الإيمان والتسليم .. ولهذا السبب تحديداً صار الإيمان أمراً لايخضع لمنطق - بل وليس من المفترض أن يخضع لأى منطق .. فالله كما يعرّفه المؤمن هو فوق المنطق وفوق الطبيعة - إذن فهو فوق النقد وفوق الإنكار ولا يصح أن يخضع لمحاولات الإثبات أو لقوانيننا الوضعية وقوانين الطبيعة كما اكتشفها الإنسان وتعامل معها عبر ألوف السنين من البحث والدراسة ..
وأنت عندما تقول أن العقل البشرى لايمكنه أن يحيط علماً بماهية الإله، كيف لك إذن أن تدعى فهمه وإمكانية محادثته والاطلاع على أسراره وإرادته ونواياه ..؟

ويهمنى أن أقول أننى لاأتحدث هنا عن أى من الآلهة التى تتحدث عنها الأديان .. فأنا لاأعتقد فى وجود أى من هذه الماهيات على تعددها، ولذلك يمكنك أن تعتبرنى ملحداً .. أما إذا كنت تحادثنى عن "موجد" أو "محرك أول" فلا يسعنى هنا إلا أن أقول أن إدراك ماهية ذلك ضرب من المستحيل، إلا أن ذلك لاينبغى أن يكون سبباً لكى نتوقف عن محاولة الفهم - فأنا لاأعتقد فى وجود إله كما تصوره الأديان، ولكننى أقول بأن هناك شىء لانفهمه .. وكل مايمكننى أن أقدمه هنا، كمفكر حر، هو أن أدعوك إلى التفكير معى، لربما إن نحن فكرنا سوياً فهمنا شيئاً جديداً .. ولربما ساعدتنى أنت على أن أرى شيئاً غاب عن نظرى .. ولربما ساعدتك أنا على تحرير عقلك وعلى أن أفتح أمامك أفقاً فكرياً جديداً .. فالفكر الحر هو أثمن ما يمكننى أن أقدمه أنا إليك الآن .. ولا يسعنى إلا أن أدعوك الآن إلى قراءة ما كتبت ولعلك اصطبرت قليلاً على القراءة .. إذ ليست هناك إجابة سهلة على أى سؤال .. إن إجابتى على هذا السؤال الأول هى كتاب بأكمله ..

(١) السؤال الأول .. لم يلد ولم يولد

فى كتابه "رحلتى من الشك إلى الإيمان" يقول الدكتور مصطفى محمود أنه بدأ فى التساؤل فى سن مبكرة - وكان من أسئلته أن لم لانقول أن الكون جاء إلى الوجود دون موجد تماماً كما يقول رجل الدين أن الله ليس بحاجة إلى موجد أو خالق فهو الخالق الأول وليس قبله شىء .. وسؤال الدكتور مصطفى محمود لهو سؤال ينم عن ذكاء نادر ومبكر - فهو سؤال فى محله تماماً - وللأسف الشديد فإن الدكتور الكبير بعد أن مضى فى رحلته ما قارب الأربعين عاماً - عاد وقرر أن ما قاله رجل الدين هو الصواب - واقتنع بفكرة الموجد الذى لايحتاج إلى موجد - وفرض على نفسه وعلى قراءه وتابعى فكره فكرة "الإله" - أو على وجه التحديد: الخالق الذى نظراً لكونه "خالقاً" فهو إذن لايحتاج إلى خالق آخر ولا يمكن أن نجعل منه مخلوقاً .. وهذا مثله مثل لاعب الكرة الذى يلقى بالكرة خارج الملعب - أو كالعالم الدؤوب الذى بعد أن فكك أجزاء جهاز ما إذا به يقرر أن هذا الجهاز إنما يعمل نظراً لأن كائناً خارقاً خفياً قد قرر له أن يعمل وليس بسبب أن كل قطعة ودائرة كهربية وسلك قد وضعت فى مكانها الصحيح ..

وبالطبع تتسائل إذن: ومن وضع كل قطعة فى مكانها الصحيح فى هذا الكون؟ والإجابة على هذا السؤال ليست بالبساطة التى تضع بها أنت قاعدتك التى لاتقبل النقاش وتقول: "الإله" - أو الخالق الذى لايحتاج إلى خالق .. أو على وجه التحديد: الكائن الخارق الخفى أو المصمم الواع الذكى الذى خلق كل شئ لغرض محدد أو لحكمة ما بعينها .. إن الإجابة على ذلك السؤال تحتاج إلى التفكير العميق المتأنى .. وفى معرض تلك الرحلة نضع فروضاً واحتمالات - نقبل ما كان منها منطقياً ونرفض ما تعارض مع المنطق .. أما أن تقول لى أن الله هو فوق المنطق فبذلك تكون قد أغلقت أى باب لمحاولة الفهم - ووضعت بدلاً من المنطق "دوجما" لاسبيل لمعالجتها ..

ومن المؤسف أن الدكتور مصطفى محمود إنما يحاول أن يضع لنا منطقاً فلسفياً ينتهى باعترافنا بالإله (أو بالخالق الواع الذكى الذى لايحتاج بدوره إلى خالق) - إلا أنه فى معرض حديثه ذلك يلقى بالمنطق تماماً إلى صفيحة النفايات ويقول أن الله لايخضع إلى منطق ..

وهذا يعود بنا إلى سؤاله الأول - وهو فى الحقيقة سؤال عبقرى، وسأعيد أنا صياغته كالآتى: ما حاجتنا إلى خالق ليس له خالق - إذ أن بنفس ذلك المنطق يمكننا القول بكونٍ أتى إلى الوجود دون الحاجة إلى موجد؟
ولى أن أجيب على هذا السؤال بأن أقول أن احتياجنا إلى خالق هو احتياج عقلنا البشرى لأن يتصور كائناً أقرب ما يكون إلى طبيعتنا نحن لكى نفهمه ..
ففى رحلة العقل البشرى لفك طلاسم هذا الكون - إذا به يتخيل ذلك الموجد وكأنه رجل قوى - له يد ورأس وعقل - وهو يسمع (فأنت تدعوه وتنتظر منه الإجابة) - ورجل الدين يصر على أن هذا الكائن إنما سيجيبك حتماً - وإن لم يجب فهو يعلم أين الخير لك ..
وهو أيضاً يتكلم - فقد كلم الأنبياء ..
وهو يصلى - تماماً كما نصلى نحن - فقد صعد نبى الإسلام إلى السماء السابعة واضطر إلى الانتظار حتى يفرغ الله من صلاته - تماماً كما يفعل مديرى المصالح الكبرى فى عالمنا هذا ..
ثم هو يغضب .. وتعجب كيف يغضب ويدمر قرية وهى لم تفعل أكثر مما قدره هو نفسه لأهلها ..
وهو ينتقم ..
وهو يجلس على العرش شأنه شأن الملوك من البشر ..
وفى التوراة يندم الله على فعله ..
ويخرج على يعقوب ويصارعه ويبادله اللكمات ..
إذن فهو رجل - ذكر - ذا قوة خارقة ..
ونحن فى فهمنا لهذا الموجد إنما نوظف له خصائصاً إنسانية، فنعطيه يداً وعيناً وأذناً ولساناً - ونعطيه صفاتاً بشرية كالرحمة والعدل والضرر والانتقام .. وكل قبيلة أو جماعة من البشر عرفت إلهاً اختلف أو تشابه مع إله القبيلة الأخرى، فلكل جماعة من البشر تقاليدها وأعرافها الخاصة التى من شأنها أن تنتج آلهة تتفق وهذه الأعراف ومع ماتحويه أو تمليه عليهم هذه البيئة - فمثلاً إله قبيلة الكيكويو (نجاى) الرحيم المحب للسلام لاشك يختلف عن إله الفايكنج (أودين) المحارب العنيف الجبار - وإله السومريين (إنليل) القاسى الذى يرسل الأعاصير لهو بالضرورة يختلف تمام الاختلاف عن (جوان - ين) إلهة الحب الصينية العطوف .. وألوف مؤلفة من الآلهة التى تعددت بحكم تعدد البيئات والعادات - فالبيئة الصحراوية القاسية

أنجبت آلهة غليظة الطباع مثل بعل ويهوه وبعلزبول والله - وهى آلهة تعذب وتحرق غير المؤمنين بها - أما الطبيعة الخضراء الحانية فقد أنجبت آلهة هادئة الطباع محبة للسلام مثل الإلهة "أبوك" المعطاءة التى طورها أبناء قبائل الدنكا جنوب السودان ..

إن عدد الآلهة التى طورها الجنس البشرى منذ التاريخ المكتوب يقدر بحوالى ٤٠٠٠ إله - هذه الآلهة هى نتاج كل بيئة وكل منطقة جغرافية وكل شعب - فمثلاً الإله "Nanook" هو إله الدببة القطبية لدى الإسكيمو - وهو بالطبع يختلف عن "Ngai" إله الكيكويو مثلاً وهو ما يعرفه أبناء هذه القبيلة على أنه "من يملك النعام - Owner of the ostrich" .. إذ لانعام فى القطب الشمالى ولادببة قطبية فى كينيا - وإله الكيكويو بدوره يختلف عن الإله "Garuda" لدى الهندوس والبوذيين - بل إن هذا الإله "Garuda" نفسه يختلف لدى أبناء أندونسيا عما يؤمن به أبناء الهند رغم أن الأسطورة أصلها واحد .. فلدى الهندوس هو كائن نصفه طائر ونصفه إنسان، بينما يعطيه أبناء جزيرة "جاوة" الأندونيسية صفات طائرهم هم المعروف بصقر "جاوة" ..

وأيضاً نظر الإنسان القديم إلى الجبال العالية وتصور آلهة تسكنها، فمثلاً إله الرومان "ڤولكان" يسكن جبل إتنا بجزيرة صقلية – وإله الهندوس "شيڤا" يسكن جبل "كيلاش" فى منطقة التبت شمال الهند، وفى اليهودية يسكن يهوه جبل سيناء، وإله الكيكويو يسكن جبل كينيا، والإلهة "Konohanasakuya-hime" أميرة رحيق الزهور اليابانية تسكن جبل فوجى فى اليابان، وآلهة اليونان تسكن جبال الأوليمبس - وبالطبع فإن ذلك سببه هو البيئة وما تمليه على أبنائها - فمثلاً من غير المعقول أن يطور أبناء اليابان إلهاً يسكن هضبة كولورادو بأمريكا مثلاً أو فى غابات الكونغو - أو أن يطور الأيرلندين إلهاً يسكن غابات الأمازون مثلاً أو نيويورك! أليس كذلك؟

ولذلك فأنا أنكر وجود كل هذه الماهيات - فهى لاتعدو إلا أن تكون أفكاراً ومحاولات للبشر لتفسير ظواهر الطبيعة كما رأوها وكما تأثروا بها، وهى صناعة بشرية بحتة لامراء - فإن نحن افترضنا أن الإله الصحيح هو أحد هؤلاء فهذا معناه أن المرء قد يموت وإذا به يحاسب أمام إله لم يسمع عنه قط هو أحد هؤلاء الآلهة الـ ٤٠٠٠ الذين طورهم البشر عبر الأزمان .. فمثلاً أنا لاأعتقد أن أبناء العقيدة الزرادشتية فى شرق إيران على سبيل المثال يمكنهم تصور أنهم إذا مابعثوا إذا بهم يحاسبون أمام (أكان) إله الخمر

لدى قبائل المايا - أو أن يصعد أحد أبناء الغال المؤمنين بالإله "تارانيس" إله الرعد ليجد نفسه أمام الإله "موكوى" آكل الأطفال أحد آلهة سكان أستراليا الأصليين .. ولذلك فكتابى هذا لايعنى بأى من هذه الآلهة - وانما يعنى بمحرك أول - أو موجد أول - وهو أمر يستحيل فى اعتقادى تعريفه، إلا أننى قد اتخذت قراراً أمام نفسى وهو أن أضع أمامى كل الإمكانيات وكل الحجج - علها أقنعتنى بشىء - أو عكس هذا الشىء - ورغم علمى باستحالة إدراك الحقيقة المطلقة - إلا أن رحلة الفكر تستحق كل العناء ..

• • • • •

الزمبلك

ويستطرد مصطفى محمود قائلاً: "وأنت بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التى تتحرك بزمبلك .. وتتصور أن الإنسان الذى صنعها لابد هو الآخر يتحرك بزمبلك .. فإذا قلنا لها بل هو يتحرك من تلقاء نفسه .. قالت: مستحيل أن يتحرك شىء من تلقاء نفسه .. إنى أرى فى عالمى كل شىء يتحرك بزمبلك .. وأنت بالمثل لاتتصور أن الله موجود بذاته بدون موجد .. لمجرد أنك ترى كل شىء حولك فى حاجة إلى موجد .. وأنت كمن يظن أن الله محتاج إلى براشوت لينزل على البشر ومحتاج إلى أتوبيس سريع ليصل إلى أنبيائه .. سبحانه وتعالى عن هذه الأوصاف علواً كبيراً"

حسناً ياأستاذى الكبير ..

حينما تحدثنى عن عرائس بزمبلك لايمكنها فهم إنسان لايتحرك بزمبلك فأنا أتفهم هذه الأطروحة على الرغم من عدم معقوليتها بالطبع، فلا نحن نحدث العرائس ولا العرائس تسمعنا، ولكننى لازلت أتفهم مقصدك .. وتعليقى أنا على كلامك ذلك هو أننا كبشر لنا أيضاً زمبلك ولكن من نوع مختلف، ذلك هو العقل وإلى جواره آلاف وملايين الأعصاب والخلايا والأعضاء التى تمكننا نحن البشر من الحركة والحياة .. ولذلك فأنت عندما تقول أن الإنسان يتحرك "من تلقاء نفسه" فهذا غير صحيح، فكما أن للعرائس زمبلك فإن لنا أيضاً "زمبلكاً" ولكن من نوع أكثر تعقيداً ..

إذن فنحن أيضاً كالعرائس الزمبلك، نتحرك بزمبلك فائق التعقيد - ولما لم يكن بإمكاننا أن نتصور كائناً خارقاً لايتحرك بزمبلك مثلنا، فما كان منا إلا

أن أعطيناه "زمبلكاً" مشابهاً لما نحمله نحن فوق رؤوسنا وهو العقل .. فنحن ننسب له صفات التدبير والعلم والعدل - ونطلق عليه أسماءاً مثل (الحسيب) و(الخبير) و(الحكيم) و(الحق) و(الحكم)، وكلها بالطبع صفات بشرية يمكن فهمها وهى جميعها مردودة إلى العقل البشرى المفكر المدبر الخ .. فبنفس المنطق الذى يقول بعدم إمكانية العرائس التى تعمل بالزمبلك إلا أن تتخيل خالقاً على شاكلتها يعمل بالزمبلك، أيضاً لم يكن بوسع الإنسان الذى له عين ويد وعقل وغاية وبصيرة وحكمة إلا أن يتصور صانعه تماماً على نفس تلك الشاكلة ..

ولى هنا أن أقول أن المنزلق الذى يقع فيه مصطفى محمود هنا هو ما يعرف فى العلوم الإنسانية بإسم "التأنيس"، أو بلغة عربية أدق "الأنسنة"، وتعريف الأنسنة ببساطة هو إعطاء صفات إنسانية لما هو ليس بإنسان .. وليسمح لى القارىء هنا بأن أشير سريعاً إلى قصة سمعتها من مدرسة بإحدى مدارس أستراليا وذلك لكى نتفهم معاً قضية الأنسنة هذه .. والقصة هى أن إحدى المدرسات طلبت من تلاميذها رسم كائن خارجى أو (فضائى) أو ما يعرف بالإنجليزية بإسم (alien)، وكان ذلك فى معرض دراستهم لقصص الخيال العلمى .. وشرع التلاميذ فى الرسم وكانت النتيجة أن جميعهم بلا استثناء رسموا كائنات شديدة الشبه بالإنسان المذكر، على وجه التحديد .. ونظرت المدرسة إلى الرسومات وإذا بكائنات ذات أعين وأرجل وأيد ورؤوس، وكان ذلك ماتوقعته المدرسة فهى تدرك مدى صعوبة تصور كائن آخر، خارجى، لايحوى هذه الصفات .. وكان منها أن طلبت من التلاميذ إعادة المحاولة على أن يضعوا فى الاعتبار أن النتيجة النهائية لما يرسمون لابد ألا تتشابه مع الجنس البشرى فى أى شىء .. وهنا بدأ التلاميذ فى إدراك صعوبة ما أسندته إليهم المدرسة، وظل التلاميذ فى محاولاتهم للرسم إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا تماماً من إضافة هذه الصفات الإنسانية للكائنات التى يرسمونها .. فإن هم تخلصوا من اليد أضافوا عيناً، وإن تخلصوا من العين أضافوا أذناً .. لم يفكر أحدهم فى أن يرسم موجة مغناطيسية مثلاً، أو عدة نقاط مبعثرة، أو ثلاثة خطوط متشابكة أو شبه متوازية (وكلها لازالت أشكال مستوحاة من عالمنا هذا بالمناسبة) .. لم يفكر أحدهم أن يترك الورقة فارغة تماماً، ولنا أن نتخيل ماتحويه هذه الورقة - أو ما لاتحويه! هذه هى قضية الأنسنة، أو ما يطلق عليه بالإنجليزية (Anthropomorphism) .. فمثلاً نظر الإنسان القديم إلى القمر وتخيل وجوهاً وأناساً وبشراً .. ففى اليابان مثلا وكثير من ثقافات شرق آسيا رأى الانسان القديم أرنباً على سطح القمر فى يده مدقة

وهاون يطحن فيه مكونات كعكة الأرز .. وكثير من الثقافات الأوروبية ترى وجه إنسان، أو رجلاً يحمل حزمة من العصى، وفى إنجلترا تخيل قدامى الإنجليز ساحرة تحمل خشباً على ظهرها، وفى هاواى رأى الإنسان القديم فى سطح القمر شجرة البانيان (التين البنغالى) التى تنسج منها الإلهة "هينا" ملابس الآلهة .. ويرى السكان الأصليين لنيوزيلندا إمرأة ترعى شجرة "النجايو" والتى هى موطنها الأصلى نيوزيلندا، ويؤمن بعض الشيعة أن اسم على بن أبى طالب مكتوب على القمر ..

هذه هى الأنسنة .. ذلك أننا كبشر عندما ننظر إلى ذلك الكون المهيب فإنه يصعب علينا قبول نظريات مثل نظرية الانفجار العظيم (the big bang) أو النظرية الأخرى المقابلة لذلك والتى تقول بسرمدية الكون بدون أن نتصور كائناً آخراً على شاكلتنا لنضعه فوق ذلك الكون، أو قبل الانفجار العظيم أو وراء الكون السرمدى .. وهكذا يرضينا هذا التفسير ويمكّننا ذلك من النوم فى ارتياح فقد خلقنا لأنفسنا كائناً خارقاً على شاكلتنا ينظر إلينا من عل ويعتنى بنا ويعيننا فى أمور حياتنا .. وبذلك نكون قد حللنا المشكلة فى كلمة واحدة، أو كائن واحد، ذلك هو الخالق .. والعجيب هنا أنك تقول باستحالة أن يتكون شىء معقد (وهو الكون) بدون موجد، إلا أنك فى نفس الوقت تصر على وجود شىء أكثر تعقيداً بمكان (وهو الإله) بدون أى موجد ..

هل ترى معى هذا التناقض؟

هذا التناقض سببه هو احتياج عقلنا البشرى لخلق كائن على شاكلتنا لكى نفهمه ..

إن احتياج الإنسان إلى كائن على شاكلته ليحادثه ويطلب منه العون ويجد فيه الإجابة على ما يحيره هو مفتاح قضية "الأنسنة"، إى إعطاء صفات بشرية لظواهر الطبيعة وقوانين المادة والحياة ولما يحرك الكون .. فمثلاً إله الريح هو عاصفة لها رأس رجل يصدر هوائاً من فمه كإله اليونان "Aeolus"، وإله النار هو حداد مفتول العضلات يطرق الحديد وتحيطه أذرعة اللهب كإله الرومان "Vulcan" - وإله البحار هو أيضاً رجل ضخم الجثة قوى العضلات يركب الأمواج العاتية مثل الإله "Neptune" أو "Poseidon" لدى الإغريق والرومان .. وآلهات الحب مثل فينوس وأفروديت وحتحور وعشتروت وهيرا وغيرهن هن نساء حسناوات لهن شعر مسدول وبشرة ناعمة كالجميلات من البشر .. وإله العهد القديم هو أب مهيب له لحية بيضاء يسحق أعدائه بقوة ذراعه كما تخبرنا مزامير داود - وإله المسلمين نعطيه يداً (والسماوات مطويات بيمينه) وعيناً (ولتصنع على

عينى) وصفات إنسانية أخرى كثيرة كالملك والعزة والهيمنة والتكبر والسمع والبصر والتجبر والانتقام .. بل ويتبنى المسلمون نفس كلام اليهود فى توراتهم من أن الله خلق آدم على صورته، فعلى هذا النحو كان إصرار الإنسان على أن يتخيل أن الفاعل أو المحرك وراء هذه القوانين الطبيعية هو إنسان مثله وعلى شاكلته ..

فكما أركل أنا مثلاً سيارتى عقاباً لها إذا ما رفض المحرك أن يدور فى الصباح البارد برغم أنها قطعة من الحديد لاتشعر ولا تعى، أو كما أنظر إلى السحاب وأتخيل وجوهاً وأشجاراً وأناساً، أو كما أداعب القط وأحادثه ظناً منى أنه يفهم لغتى وما أقول، أيضاً نظر الإنسان القديم إلى السماء ومد خطوطاً تربط بين هذه النجوم وتخيل آلهةً وأسوداً وحيات وعقارب وحملان .. هذه النجوم التى ربط الإنسان القديم بينها وأعطاها صفات الحياة ليس لها وجود الآن، بل ولم تكن موجودة وقتها، وما نرى الآن منها ليس سوى ضوئها الذى وصلنا بعد أن انتهى عمرها بملايين السنين .. هذه النجوم لاتقع على مستو فراغى واحد ولا حتى مستو زمنى واحد .. إلا أننا ننظر إليها ونمد بينها خطوطاً ونصنع منها كائنات على شاكلتنا أو مستوحاة من عالمنا يمكننا أن نفهمها، بل ونقدسها ونعبدها ونقرأ فيها الماضى والحاضر والمستقبل .. هذه هى صناعة الإله ..

وبتوالى الأزمنة تطورت فكرة الخالق من آلهة عديدة للنار والماء والرياح والجليد إلى آلهة للحب والجمال والنيل والفيضان والسماء إلى أن بدأ العقل البشرى فى تقليص دور الإله وبدلاً من جعله آلهة متعددة تأتى العقائد الإبراهيمية بعدد محدود من الآلهة (إلوهيم) وعلى رأسها (يهوه) الإله الأكبر - وهى خطوة كبيرة نحو وحدانية الموجد .. ثم تأتى المسيحية وتخطو خطوة أخرى نحو التوحيد وتكتفى بثلاثة من الآلهة بدلاً من (الإلوهيم) وتحاول جاهدة إقناع البشر بأن هؤلاء الثلاثة هم فى حقيقة الأمر إله واحد .. ثم يأتى الإسلام مصراً على فكرة الإله الواحد .. ثم تأتى البوذية وهى فى حقيقتها ديانة بلا إله، وفكر قيم أكن له شخصياً كثير الإحترام، وعلى الرغم من أن بوذا نفسه لم يتحدث عن إله قط - بل وقال أنه لايستطيع تخيل إلهاً لهذا الكون واعتبر نفسه ملحداً، إلا أن بوذا نفسه قد تحول إلى إله فى نظر بعض فئات البوذية - وهو أمر يعكس رغبة الإنسان فى خلق كينونة أو ماهية مقدسة يعود إليها ويكبرها ..

وتأتى الديانة البهائية وتخطو خطوة أخرى نحو الوحدانية بل والتوحيد التام فتنادى بتوحيد كل الديانات وجعلها كلها ديانة واحدة وإلهاً واحداً لجميع البشر وليست آلهة متعددة تعدد الديانات المختلفة - ثم يتطور العقل وتتقلص فكرة الإله إلى ما يسمى الآن بـ (التصميم الذكى) - أو مايعرف بالإنجليزية باسم (Intelligent Design) .. فمن آلهة على شكل الثيران والأبقار والعجول والقطط واليونيكورن إلى آلهة على شكل رجال بلحى مكفهرى السحنة كأودين وثور وخلافه إلى إلاهات حسناوات على شكل إناث فاتنات كأفروديت وڤينوس إلى شيڤا وراما وآلهة كثيرة الأذرع إلى صورة رجل قوى ذا لحية بيضاء مهيبة يصارع يعقوب ويضربه فى حق فخذه كما يخبرنا سفر التكوين إلى حمامة ومسيح يصلب بأمر من أبيه فى السماء إلى تنزيه أقرب إلى العدم فى إله الإسلام إلى لاإله بالمرة فى الديانة البوذية أو (ألوهية الإنسان نفسه) إلى أن وصلنا أخيراً إلى ما يسمى بـ (التصميم الذكى) .. وهو اختزال لكل ذلك ولكل الماهيات المحسوسة التى يمكن للإنسان تخيلها لاحتوائها على صفات بشرية (أو حتى حيوانية) ووصلنا إلى التصميم الذكى .. وبذلك تكون فكرة الإله قد تقلصت تماماً عبر الأزمان إلى أن طور العقل فكرة مجرد (الذكاء) .. ولن يمر وقت طويل حتى نكتشف أيضاً أن الذكاء لهو صفة إنسانية - بشرية - شأنها شأن السمع والبصر والكلام .. وكل ما فعلناه هو أن أعطيناها للكون فنصبنا عليه كائناً خارقاً، خفياً، وذكياً بالطبع ..

إن العقل لازال يقلص من فكرة الإله إلى أن جعل منها فكرة تخيلية ونزع ولا زال ينزع عنها الكثير من الصفات المادية التى ألصقها الإنسان به عبر الأزمان - وصارت فكرة الإله الآن مجرد "intelligence" أى مجرد "ذكاء" أو "وعى" - ولكننا لانزال نحتاج إلى تلك "الأنسنة" لكى نتمكن من فهم الكون والتعامل معه .. فنحن لايرضينا أن ننظر إلى الكون لنجد جماداً بارداً غير عابىء بنا .. لذلك خلقنا ماهية أو كينونة على شاكلتنا لنتمكن من التعامل معها - ثم أعطيناها صفات الخلق والقدسية، ثم سجدنا لها بل وذهب البعض إلى قتل من لايؤمن بها ..

إن الذكاء والوعى والإدراك هى كلها مفاهيم بشرية وأسماء نطلقها على القوانين الطبيعية التى تحكم تصرفاتنا وتحركاتنا ووظائفنا فى هذا الكون .. إن ما نسميه نحن "وعياً" هو مجموعة القوانين الطبيعية التى نتحرك ونعيش ونتفاعل مع الكون بمقتضاها .. ونحن حينما ننظر إلى الكون أو إلى نظرية الانفجار العظيم أو نظرية سرمدية الكون لنجد مادة بلا حياة كما نفهمها نحن

وأيضاً بلا وعى وبلا عين وأذن وأذرع ودماغ، فإننا عندئذ نفرض على ذلك الكون البارد عقلاً كعقل البشر، وفكراً كفكر البشر، ورأس مدبر وحكمة ووعى وإدراك ومنطق ودراية وباعث .. وفى معرض ذلك نجد أنفسنا وقد خلقنا كائناً أعقد بمكان من الكون الذى نحاول تفسيره وفسرناه بما هو أعقد منه .. وبالمثل فإننا عندما ننظر إلى دورة الحياة وحركة الكائن الحى ودوران السيتوبلازم فى الخلية فإننا نفعل نفس الشىء، وننسب ذلك كله إلى كائن خفى على شاكلتنا إلا أنه ذا إمكانيات خارقة مهمته تدوير السيتوبلازم فى الخلايا وتحريك جناحى الطائر ودفع الدم فى عروق الكائن الحى .. هذا هو التفسير السهل المريح .. أما الصعب فهو أن تعكف على الميكروسكوب وأنبوبة الإختبار وتنتهج منهجاً علمياً تحليلياً تجريبياً دؤوباً إلى أن تبدأ فى تفهم ذلك المحرك الأول .. كيف يتحرك السيتوبلازم؟ ماهو تركيب النواة؟ ماذا يحرك القلب؟وكيف يحلق الطائر؟ إن هذه كلها أسئلة يجيب العلم عليها شيئاً فشيئاً، وإن لم نفهم شيئاً اليوم فلعلنا فهمناه غداً، أو بعد غد، إلا أن عدم فهم أى شىء لاينبغى أبداً أن يكون سبباً فى أن نتوقف عن العمل ومحاولة الفهم ..

● ● ● ● ●

وحينما يقول مصطفى محمود أن الله لايحتاج إلى براشوت لينزل على البشر أو إلى أتوبيس سريع ليصل إلى أنبيائه - فأنا هنا أقول أن الإنسان هو الذى بحاجة لأن يتخذ الله لنفسه مواصلة بشرية، طبيعية، لكى يتمكن ذلك الإنسان من محادثته وإدراكه .. وهنا التناقض، فأنت تقول بأن الله فوق الطبيعة، حسناً، كيف استطاع محمد سماعه وهو فوق الطبيعة؟ وماهو دليل محمد وآخرين على محادثة ذلك الكائن الخارق؟
أنت تقول أن الله فوق الطبيعة وفوق الزمان والمكان .. كيف إذن تعطيه صفاتاً طبيعية وتجعله كائناً على شاكلتنا؟ لماذا تخرجه من الطبيعة حين أسألك عن كينونته ثم تدخله ثانية عندما تحدثنى عن تواصله مع البشر؟

● ● ● ● ●

عمانويل كانت

ويقول مصطفى محمود: "وعمانويل كانت الفيلسوف الألمانى أدرك أن العقل لايستطيع أن يحيط بكنه الأشياء وأنه مُهيّأ بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط .. فى حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهى .. وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل .. شوقنا إلى العدل كان دليلنا على وجود العادل .. كما أن ظمأنا إلى الماء هو دليلنا على وجود الماء" ..

ولى هنا سؤال للسيد "عمانويل كانت" الألمانى .. أنت تقول أن شوقنا إلى العدل هو الدليل على وجود العادل، حسناً، وماذا عن تعطشنا للجنس، هل ذلك دليل على وجود الشبق الأكبر، وهو الإله؟ وماذا عن تعطش البعض للقتل، هل ذلك دليل على وجود القاتل الأكبر، وهو الإله؟ وماذا عن توقنا للطعام، أهذا دليل على وجود الشره الأكبر، وهو الإله؟

سؤال مطلوب من السيد "كانت" الإجابة عليه ..

أرسطو

ويستكمل مصطفى محمود: "أما أرسطو فقد استطرد فى تسلسل الأسباب قائلاً: إن الكرسى من الخشب والخشب من الشجرة .. والشجرة من البذرة .. والبذرة من الزارع .. واضطر إلى القول بأن هذا الاستطراد المتسلسل فى الزمن اللانهائى لابد أن ينتهى بنا فى البدء الأول إلى سبب فى غير حاجة إلى سبب .. سبب أول أو محرك أول فى غير حاجة إلى من يحركه .. خالق فى غير حاجة إلى خالق .. وهو نفس ما نقوله عن الله .."

حسناً ..

وصحيح أن أرسطو "اضطر إلى القول" بأن هناك محركاً أول، إلا أننا لاينبغى أن ننتزع جملة واحدة من الكلام للتدليل على ما نقول دون أن نقرأ باقى ما قاله .. فطبقاً لأرسطو فإن ذلك المحرك الأول هو ثابت تمام الثبات ولايطرأ عليه أى تغيير، وهو لايؤثر فى شىء ولا يؤثر فيه شىء ولا يفعل شيئاً سوى التأمل .. ونظراً لأنه لايتغير ولا يؤثر فى أى شىء فإنه أيضاً لايمكن أن يفكر فى أى شىء من شأنه أن يغير من أى شىء، لذلك فإن ذلك المحرك الأول لايفكر فى أى شىء سوى فى نفسه، ولذلك أيضاً فهو لاعلم له مطلقاً بأى شىء آخر سوى بنفسه .. هذا هو المحرك الأول فى نظر أرسطو .. وهو لاشك يختلف تماماً عن المعنى الدينى للإله ..

والواقع أن أرسطو قد آمن بنظرية نشوء الكون المعروفة الآن باسم (نظرية الحالة الثابتة - Steady State theory) .. وهى النظرية التى تقول بكون سرمدى لابداية له ولا نهاية، وهى النظرية المقابلة للنظرية المعروفة بإسم نظرية الانفجار العظيم (Big Bang theory)، فمنذ فجر التاريخ عكف علماء الطبيعة والكيمياء والرياضيات وعظام الفلاسفة على محاولة تفسير منشأ الكون ولدينا الآن عدد من النظريات التى تطرح تفسيراً لذلك .. فبالإضافة لهاتين النظريتين هناك نظريات أخرى مثل نظرية الوجود متعدد الأكوان "Multiverse theory" وهى التى تقول بعدد لانهائى من الأكوان يأتى إلى الوجود كل لحظة كالرغوة أو الزبَد على الماء فى قدر يغلى على سبيل المثال، وكل فقاعة (أو كل كون يأتى إلى الوجود) له قوانينه الطبيعية الخاصة به، ومن بين ملايين بل وبلايين الأكوان يحدث أن يأتى إلى الوجود كل حين وآخر كون ملائم لأن تنشأ حياة عاقلة عليه - أو ما يتفق مع مفهومنا نحن للحياة - ذلك مثل كوننا هذا الذى نعيش فيه .. وهناك النظرية التى تجمع بين "الانفجار العظيم" و"الحالة الثابتة" وتقول بسرمدية الكون وأبديته إلا أن الانفجار العظيم هو أيضاً حدث يحتويه هذا الكون السرمدى .. وهناك أيضاً الأبحاث التى تجرى فى مجال المادة والمادة المضادة (matter and anti-matter)، والمادة المضادة هى ما يمحو المادة أو الوجود كما نعرفه .. وبالطبع فإن لكل نظرية مؤيديها ومعارضيها، ولازال الجدال قائماً، إلا أن نظرية الانفجار العظيم هى النظرية الأكثر قبولاً فى عصرنا ذلك، وإحدى مشاكل هذه النظرية هى عدم إمكانية القول بما كان "قبل" ذلك الانفجار .. إذ لم يكن هناك "قبل" .. وهو ما يصعب علينا فهمه .. ويشرح العلماء هذه الإشكالية بقولهم أنه لم يكن هناك "زمن" قبل الانفجار العظيم، وأن الزمن كما نفهمه وندركه نحن بدأ مع هذا الانفجار ..

وحينما يقول الدكتور مصطفى محمود أن هذا الاستطراد المتسلسل ينتهى بنا إلى محرك أول فى غير حاجة إلى من يحركه "وهو نفس ما نقوله عن الله"، فهذا كلام أتفهمه إلا أننى أجد فيه كثير من الخلط .. ذلك أنك لاتنسب صفة المحرك الأول فقط لهذا الكائن الذى تسميه بالإله، ولكنك أيضاً تنسب إليه آلاف الصفات الأخرى التى ينفيها عنه أرسطو إلى درجة تجعله تقريباً إنساناً مثلنا، والفرق بينه وبيننا هو أنه خارق لكل القوانين، والصفة الأخرى أنه خفى .. وأيضاً فليس الانفجار العظيم (وهو ما يعتقد فيه معظم العلماء الآن أنه المحرك الأول وليس قبله شىء) هو نفس ما تقوله عن الله، فأنت لاتنسب كل هذه الصفات التى تنسبها لله إلى الانفجار العظيم .. والسبب كما قلت

سابقاً هو صعوبة تخيل محرك أول ليس له صفات تماثل أو تتفق مع صفات البشر ..
إن "الله" هو الإجابة السهلة السريعة على أعقد مشاكل الكون .. أما الصعب هو أن تشمر عن ساعديك وتدخل المعمل أو المرصد أو متحف التاريخ الطبيعى أو كهف مجلس الجن أو حفرة نهاية العالم لتسبر أغوار الطبيعة وتنظر كيف بدأ الخلق، وقد تقضى فى ذلك العمر كله، فليست هناك إجابة سهلة على أى سؤال ..
إن السهل هو أن تدير وجهك ناحية الشمس أو القمر أو السماء أو نحو مكة أو إلى بقرة تقدسها وتشرع فى التكبير، أما الصعب فهو أن تُشَرح عجل أبيس أمام من يعبدونه وتظهر لهم أنه عجل كبقية العجول، هذا مافهمته من كلامك ياأستاذى الكبير فى كتابك (إبليس)، وياله من كلام قيم كفصوص الماس ..
وأخيراً أقول إننا حتى إذا ما افترضنا أن أرسطو كان شخصاً مؤمناً، فإن هذا فى الحقيقة لايعنى أى شىء، وكل مايعنيه ذلك هو أن أرسطو كان مؤمناً، فقط هكذا، شأنه شأن ملايين آخرين ..

ابن عربى

يقول مصطفى محمود: "أما ابن عربى فكان رده على سؤال مَن خلق الخالق بأنه سؤال لايرد إلا على عقل فاسد .. فالله هو الذى يبرهن على الوجود ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهاناً على الله .. تماماً كما نقول إن النور يبرهن على النهار .. ونعكس الآية لو قلنا إن النهار يبرهن على النور .. يقول الله فى حديث قدسى : "أنا يُستدل بى .. أنا لايُستدل علىّ" .. فالله هو الدليل الذى لايحتاج إلى دليل .. لأنه الله الحق الواضح بذاته .. وهو الحجة على كل شىء .. الله ظاهر فى النظام والدقة والجمال والإحكام .. فى ورقة الشجر .. فى ريشة الطاووس .. فى جناح الفراش .. فى عطر الورد .. فى صدح البلبل .. فى ترابط النجوم والكواكب .. فى هذا القصيد السيمفونى الذى اسمه الكون .."
وردى أنا على ذلك أن السيد ابن عربى، سلطان العارفين، هو فى حقيقة الأمر شخص طويل اللسان ..
إن السيد ابن عربى بكلامه هذا إنما ينعت معظم البشر بصفة فساد العقل .. فما من إنسان إلا ولابد وأن يتوقف للحظة ليسأل نفسه هذا السؤال شديد المنطقية، بما فيهم أنت نفسك ياأستاذى الكبير ..

ولنا أن نتناول حجة السيد ابن عربى بالنقاش حينما يقول أن الله هو الذى يبرهن على الوجود وليس العكس، ويستشهد مصطفى محمود بالحديث القدسى : "أنا يُستدل بى .. أنا لايُستدل علىّ" ..
وأنا هنا أرى أن منطق ابن عربى هو فى الحقيقة منطق معكوس، إذ أن المنطق السليم يقول بأنك مثلاً إذا نظرت إلى بحيرة لقلت بإمكانية وجود أسماكاً بها، أما المنطق الذى يطرحه مصطفى محمود هنا فهو أن تغوص فى البحيرة وتبحث إلى أن تجد أسماكاً ثم تقول إذن فهناك ماء ..
وإن كان الله ظاهراً على هذا النحو الجلى كما تقول، وهو حسب قولك أوضح من الكون نفسه، كيف إذن لم تره أنت نفسك طوال أربعين عاماً؟ ولماذا لايراه آخرون كثيرون إن كان هو على هذا النحو المذهل من الوضوح؟
وأنت حينما تقول أن الله ظاهر فى النظام والدقة والجمال والإحكام وفى ورقة الشجر وريشة الطاووس وترابط النجوم والكواكب وهذا القصيد السيمفونى الذى اسمه الكون .. ما قولك إذن فى فيروس السعار وطفيل الملاريا وشلل الأطفال والجدرى والسل والكساح، وما رأيك فى الفوضى فى هذا الكون الذى حسب ماعلمتنا أنت نفسك يتجه نحو الفناء والبعثرة فى الفضاء؟ وما قولك فى كم الذبح والقتل والترويع الجنونى الذى يحدث كل يوم على يد المؤمنين بإلهك الجميل الحكيم وتحت سمعه وبصره وربما أيضاً بأمره؟؟ هل الله أيضاً ظاهر لك فى كل ذلك؟ أهذا هو ماأراده إلهك المبدع لكونه ولخلقه؟

قصيدة شكسبير

ويستكمل مصطفى محمود قائلاً: "لو قلنا إن كل هذا جاء مصادفة .. لكنا كمن يتصور أن إلقاء حروف مطبعة فى الهواء يمكن أن يؤدى إلى تجمعها تلقائياً على شكل قصيدة شعر لشكسبير بدون شاعر وبدون مؤلف .."
وبالطبع فإن إلقاء حروف مطبعة فى الهواء لن يكون قصيدة لشكسبير، (أو أن تعبث الريح بساحة للخردة فإذا بها تكون طائرة بوينج ٧٤٧ كما يحلو للبعض أن يقول) .. إلا أن حدوث أو ظهور الأشياء فى الكون لايتم على هذا النحو بالمرة .. ولفهم ذلك يجب أن أعود إلى كتاب ريتشارد دوكنز القيم "تسلق جبل عدم الأرجحية – Climbing mount improbable"، وهو الذى يشرح فيه كيف أن أكثر الأشياء تعقيداً فى هذا الكون إنما تأتى للوجود من بدايات غاية فى البساطة، وهو يشرح ذلك فى براعة بأن يقول أن لنا أن نتخيل جبلاً ذا حافتين، حافة قائمة متعامدة على مستوى الأرض وحافة أخرى مائلة

تدريجياً نحو السفح .. والمستحيل هنا أن يقفز كائن ما من جهة الحافة القائمة ليصل إلى قمة الجبل، أما الممكن هو أن يصعد المتسلق تدريجياً من جهة الحافة المائلة وفى هذه الحالة يصل إلى القمة شيئاً فشيئاً .. إن على هذا النحو تتكون الأشياء .. فمن بدايات غاية فى البساطة وعدم التعقيد يبدأ تكون أكثر الأشياء تعقيداً، فمثلاً نحن نعرف أن الحياة بدأت حينما تكون أول حمض أمينى فى الماء من بدايات شديدة البساطة، وعبر زمن سحيق تكونت الخلية الحية، ثم الكائنات الأولية أحادية الخلايا، ثم الكائنات متعددة الخلايا، وهكذا وعبر أزمنة سحيقة بدأ تكون الكائنات الأكثر تعقيداً إلى أن وصلنا إلى التنوع الأحيائى العظيم الذى نراه الآن .. وبالطبع تسأل، ومن كان خلف كل ذلك، أليس ذلك دليلاً على وجود الخالق (أو المصمم الذكى)، وما لاتلاحظه هنا، وكما قلت سابقاً، هو أن كل هذا الكائنات لهى بالضرورة أقل تعقيداً بمكان من الخالق الواع المدبر الذى تفرضه علينا، فأنت بذلك تفسر شيئاً معقداً بأن تفرض علينا ما هو أعقد منه ولا شك بملايين المرات - أو بما لانهاية من المرات، أليس كذلك؟

هذه هى فلسفة ريتشارد دوكينز ..

إن المشكلة التى تعوق فهمنا لمعظم تلك القضايا هى أننا نتوقع حدوث الأشياء فى لحظة واحدة، أو بطرقعة إصبع كائن تخيلى مهول، وبهذا نحل المشكلة فى بساطة وبكلمة واحدة، وما ينبغى علينا فهمه هنا أنه لاشىء فى الكون يتكون على هذا النحو، وإنما من بدايات متناهية البساطة يتكون ما هو متناهى التعقيد .. حتى الانفجار العظيم نفسه لم يحدث بطرقعة أصبع، أو من لاشىء، وسوف نناقش ذلك بالتفصيل فى أبواب قادمة ..

ويعنينى هنا أن أقول أننى لاأدعى معرفة الإجابة على كل سؤال، إلا أننى فى ارتحالى نحو المعرفة أرفض ما لايتفق مع المنطق وأقبل ما كان منطقياً، وأنا لاأقول أننا مصيرنا أن نصل حتماً إلى إجابة واضحة قاطعة على كل شىء، ولكن ماأقوله هنا هو أننا لايجب أن نتوقف عن محاولة الفهم، وألا نتوقف لنلقى بالقضية برمتها إلى كائن خارق خفى مهمته صنع كل شىء (وتدمير كل شىء أيضاً) .. وصحيح أننا لانعلم من أين أتت أو كيف نشأت قوانين الطبيعة .. ولكن بإمكاننا أن ندرس كيف تعمل تلك الطبيعة .. أما حينما تصر على أنك الوحيد العالم بالإجابة، وأن الإجابة هى "الخالق" أو على وجه التحديد "المصمم الذكى" أو "الإله"، ثم تعطى لذلك الخالق إسماً أياً

كان هذا الإسم، فلى أن أطلب منك أن تعطينى الدليل الواضح الذى أدى بك إلى الاعتقاد فى ذلك ..
إن هذه الإجابة السهلة التى تحل بها كل المشاكل المستعصية هى هروب من محاولة الفهم وسبر الأغوار والعمل الدؤوب الصعب للوصول إلى أكثر الحلول منطقية .. إنك حينما تجيبنى على كل هذه الأسئلة بكلمة واحدة وتقول: الخالق، فإنك تكون قد اختزلت جميع العلوم البشرية من بيولوجى وكيمياء وفيزياء وجميع معادلات الطاقة والمعادلات الكهرومغناطيسية وآلاف المراجع العلمية والرياضيات المتقدمة إلى ثلاثة أحرف فقط: ألف ولام وهاء، أو "G" و "O" و "D"، فقط هكذا .. إلا أن الأمر أعقد من ذلك بكثير ..

● ● ● ● ●

ويتسائل الصديق الملحد عن كون الإله واحد أم كثيرين، وفى الحقيقة فإن هذه القضية لاتعنينى كثيراً، إلا أن الدكتور مصطفى محمود فى معرض رده على هذا السؤال أثار نقطة يهمنى أن أعلق عليها، وذلك عندما يقول "ولماذا يتعدد الكامل؟ إنما يتعدد الناقصون .."
جميل ..
وبنفس المنطق يحق لنا أن نسأل: ولماذا يغضب الكامل؟
ولماذا يعذب الكامل؟
ولماذا ينتقم؟
ولماذا يصنع كائناتاً صغيرة على صورته لكى تعبده، وإن لم تفعل فهو لحارقها؟ ألا يتنافى ذلك مع صفة الكمال؟
ولماذا يجعلنا أمماً مختلفة الألسنة ثم يرسل كلمته الأخيرة الجامعة المانعة الكاملة التامة بلغة واحدة فقط وليس بلغات جميع مخلوقاته؟
ولماذا يتركنا لكل هذا الجدل والعراك وهو تام وكامل وجميل يحب الجمال؟
سؤال يهمنى أن أجد إجابة عليه ..

● ● ● ● ●

وأخيراً يتسائل الصديق الملحد ويقول "أليس عجيباً ذلك الرب الذى يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة، فيأخذ بناصية الدابة، ويوحى إلى النحل أن تتخذ من

الجبال بيوتاً، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها .. وإذا سقطت ذبابة فى طعام فهو الذى أسقطها .. وإذا تعطلت الحرارة فى تليفون فهو الذى عطلها .. ألا تشغلون إلهكم بالكثير التافه من الأمور بهذا الفهم؟"

ويرد مصطفى محمود بقوله: "ولا أفهم أيكون الرب فى نظر السائل أجدر بالربوبية لو أنه أعفى نفسه من هذه المسئوليات وأخذ إجازة وأدار ظهره للكون الذى خلقه وتركه يأكل بعضه بعضاً! هل الرب الجدير فى نظره هو رب عاطل مغمى عليه لايسمع ولا يرى ولا يستجيب ولا يعتنى بمخلوقاته؟ .. إنما الإله الجدير بالألوهية هنا هو الإله الذى أحاط بكل شىء علماً .. الإله السميع المجيب، المعتنى بمخلوقاته .."

جميل ..

ولى هنا أن أتسائل أنا أيضاً، أى اعتناء ذلك الذى تتحدث عنه يا دكتور؟ إن الحياة من أولها لآخرها كبد ومعاناة وعناء، ولولا بذل الجهد والتعب والخطأ والمحاولة وإعادة المحاولة مرة ومرات لما تقدمت البشرية ولما عرفنا مصلاً ولا دواءاً ..

إن الكون بالفعل يأكل بعضه بعضاً، لقد علمتنا ذلك أنت نفسك ياأستاذى الكبير .. الشمس يحترق وقودها ومصيرها إلى فناء .. الكون يتمدد بسرعة تفوق سرعة الضوء والنهاية إما أن يتبعثر فى الفضاء أو أن تتغلب الجاذبية فيعود وينكمش إلى قبضة متناهية الصغر كما كان وقت الانفجار العظيم .. الثقب الأسود يبتلع النجوم والحديد يأكله الصدأ والموت بداخلنا نحمله معنا منذ ولادتنا .. هذا كلامك وهذا ما تعلمته منك .. وهو كلام صحيح ..

إن أى كائن لكى يعيش يجب له أن يقتل كائناً آخر .. فكر فى كم الكائنات الحية التى قتلتها أنت لتتغذى عليها كى تعيش، فكر فى عدد البشر الذين ماتوا وضحوا بحياتهم وأغلى ما عندهم لكى تعيش .. فكر فى العلماء والمفكرين الذين أفنوا حياتهم لاكتشاف مصل أو دواء أو لقاح، وكيف أنقذ هؤلاء ملايين البشر من الفناء ..

ولو كان الله معتنياً بمخلوقاته بالفعل لخلقهم ومعهم هذه الأمصال، أو لقضى على الميكروبات بكلمة واحدة، فكما قال للإنسان (كن) فكان، إذن هو بإمكانه أن يقول لكل هذه الميكروبات والجراثيم والأمراض والمفترسات (لا تكونوا) فلا يكونوا! هل تقول لى أن الإله المعتنى بمخلوقاته قد أمضى ٢٠٠ ألف سنة ينظر إلينا من عليائه إذ تحصدنا الأمراض إلى أن أتى باستير وكوخ وفلمنج بالتعقيم والبسترة والبنسلين فإذا بنا قادرين على إنقاذ الملايين ..؟

وإننا إن تصورنا أن الحرارة إذا تعطلت فى تليفون فلابد أن الله هو الذى عطلها بدلاً من أن نبحث عن السبب الحقيقى والذى هو غالباً ما يكون الإهمال والتسيب فى بلادنا السعيدة فذلك معناه أننا لازلنا نعيش فى غياهب عصور ما قبل التاريخ ..
إننا إن تصورنا أن هناك كائناً فوقنا يعتنى بنا ويلبى لنا احتياجاتنا ويتدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى حياتنا فإننا فى وهم ولاشك مبين ..
هل تقول لى أن الله يجلس الآن مرخياً قدميه على سحابة ما فوقنا، ويطل بنظره على طفل فى الثانية من عمره أصابه هو بثقب فى القلب .. وينظر إلى معاناته ومعاناة والديه، ويعلم أن هذا الطفل سوف يحيا ما تبقى له من سنوات فى معاناة إلى أن يموت ولايفعل شيئاً سوى الفرجة؟ هل هذا هو الإله السميع المجيب المعتنى بمخلوقاته الذى تحدثنى عنه؟ وهل تقول لى أن هذا هو ما دأب على فعله كل يوم منذ أن خلق البشر إلى إن قرر ذات صباح أن يعطينا من علمه ما حجبه عنا لآلاف السنين، فإذا بنا قادرين على علاج مثل هذه الأمراض؟
إن أصعب درس علينا أن نتعلمه نحن بنى البشر هو أنه ما من أحد يجلس فوقنا يعنيه أمرنا بالمرة ..
وما أن قبلنا هذا التحدى نكون بذلك قد خطونا أول خطوة فى فهم هذا الكون وعلى أى نحو يدور ..

(٢) إذا كان الله قدر على أفعالى فلماذا يحاسبنى

التسيير والتخيير قضية من أعقد المشاكل الفلسفية، وإحقاقاً للحق فإن موقف مصطفى محمود منها كان ثابتاً طوال حياته، وهو أن الإنسان فى أصله حر المشيئة .. ومبدئياً فأنا أتفق معه فى مدخله، وأيضاً أتفهم كلمته الحكيمة عندما يقول أن التسيير هو عين التخيير، إلا أننى أختلف معه تماماً فى معطياته ..

وبدايةً أقول أننى لاأتفق مع السائل نفسه فى سؤاله حينما يقول: "هل باختيارى تشرق الشمس ويغرب القمر؟" وبالطبع فإن هذا سؤال سخيف إذ أن المتسائل هنا يتحدث عن نوع غريب من الحرية لاشأن له بقضية التسيير والتخيير .. فالحرية التى نناقشها هنا هى حرية الاختيار بين أمرين أو بين قرارين فى شأن من شؤون الحياة، وهنا يقول مصطفى محمود: "أنت حر فى أن تقمع شهوتك وتلجم غضبك .. أنت تستطيع أن تصدق وأن تكذب .. وتستطيع أن تكف بصرك عن عورات الآخرين" .. وهو ماأتفق معه فيه مبدئياً .. إلا أننى أعتقد أنه يجانبه الصواب حين يشرح كيف أن حريتنا هى عين مشيئة الإله، وذلك بقوله أن "الله يقضى على كل إنسان من جنس نيته .. ويشاء له من جنس مشيئته، ويريد له من جنس إرادته .. تسيير الله هو عين تخيير العبد، لأن الله يسيّر كل امرئ على هوى قلبه وعلى مقتضى نياته، ويجرى قضاءه وقدره على مقتضى النية والقلب .. الله يسيّرنا إلى ما اخترناه بقلوبنا ونياتنا، فلا ظلم ولا إكراه ولا جبر، ولا قهر لنا على غير طبائعنا" ..

وهنا موطن التناقض فى كلام الدكتور مصطفى محمود .. إذ أنه حينما يقول ذلك فإنه بالتبعية ينفى مهمة خلق القلب والنية عن الإله (والذى من المفترض أن يكون هو خالق كل شىء طبقاً لما تقوله الأديان) وينسب تلك المهمة إلى الإنسان نفسه ..

وقد طور مصطفى محمود هذا الفكر وعرضه فيما بعد فى صورة قصصية تخيلية فى كتابه "المسيخ الدجال"، ففى هذا الكتاب يخاطب الدجال "مالك" كبير خزنة جهنم وهو يزج به إلى النار قائلاً: "وماذنبى وقد خلق الله لى سرى الملعون هذا؟" ويرد عليه مالك قائلاً :"إن الله لم يخلق لك سرك ولم يخلق لأحد سره .. بل خلق الله لك اليد والقدم واللسان والعقل والقلب لتعبر وتكشف عن سرك ومكنونك .. إنما سرك فيك منذ الأزل ومن قبل أن تولد

ومن قبل أن تخلق .. لم يمسه أحد ولم يتدخل فيه .. إنما انفرد الله بالاطلاع عليه فحسب" .. ويعود مالك ويذكره لاحقاً بقوله: "ذلك هو سرك الخاص بك، لم يخلقه فيك أحد ولم يقهرك عليه أحد، وإنما هو طويتك ومكنونك وحقيقتك منذ الأزل وقبل أن تولد فأنت من سكان هذا المكان من الأزل" .. وهذا الكلام معناه إننا نتصرف طبقاً لما تمليه علينا طويتنا ومكنوننا وحقيقتنا وهو مالادخل للإله فيه! والسؤال هنا هو: ومن خلق لك نفسك وطويتك ومكنونك وسرك فى مفهومك إذن؟ أليست نفسك وطويتك ومكنونك وسرك هم أنت؟

إن مصطفى محمود بهذا الكلام يخرج بذكاء ليس فقط من معضلة التسيير والتخيير بل وأيضاً من مشكلة العذاب الأبدى فى جهنم، فطالما آمنا بأننا نتصرف طبقاً لحقيقتنا ونوايانا نحن وليس طبقاً لما قدره لنا الله أو ماخلقه الله فينا إذن فلا ظلم ولا إكراه ولا قهر لنا على غير طبائعنا كما يقول، وأيضاً ليست هناك مشكلة إن تم حرقنا فى جهنم إلى الأبد فهذا ما يلائم أنفسنا الشريرة التى لم يخلقها الله ..!

والسؤال الذى لامفر منه هنا هو: لماذا تنسب لله مهمة خلق كل شىء ثم تنفى عنه مهمة خلق النفس والقلب والنية؟

إن كلام مصطفى محمود حين يقول أنك حر فى أن تقمع شهوتك أو أن تصدق أو تكذب أو أن تكف بصرك عن عورات الآخرين هو كلام فى ظاهره جميل ومقنع، إلا أننا لو فكرنا قليلاً وأرهقنا أذهاننا كما فعلت أنا طيلة السنوات الثلاثين الماضية لتسائلنا مع أنفسنا كالاتى: ما هو سبب أن قمع بعضهم شهوته ولم يقمعها البعض الآخر؟ وما هو سبب أن كذب البعض وصدق آخرون؟

إن السبب العلمى لذلك هو أننا نتاج تركيبتنا الوراثية وبيئتنا وتربيبتنا ونشأتنا .. وعندما نتخذ قراراً فسببه هذين العاملين، عامل التركيبة الوراثية وعامل البيئة والنشأة .. ولهذا السبب هناك قتلة ولصوص .. ولهذا السبب أيضاً هناك فاعلى خير ومحبين للسلام .. إن التركيبة الوراثية عبارة عن آلاف التباديل والتوافيق من الأحماض الأمينية التى تصنع الشفرة أو البنية الوراثية التى تحدد من أنت .. ثم يأتى عامل البيئة والنشأة .. وبين هذا وذاك نتصرف نحن ..

وفى لحظة الإختيار يقدم الإنسان على فعل شىء أو يحجم .. ما سبب إقدامه أو إحجامه؟ إن حرية المرء هنا أن يقدم أو يحجم تعود إلى تركيبته الوراثية التى ورثها عن أبويه ثم بيئته التى نشأ فيها، وتفاعل هذا مع ذاك .. هذا التفاعل هو ما ينتج ملايين التباديل والتوافيق والاحتمالات والتراكيب والطباع .. وهذا هو ماأنجبك أنت بكل صفاتك وخصائصك وطباعك وأيضاً تناقضاتك ..

ولذلك فإن التسيير والتخيير فى رأيى هما وجهان لعملة واحدة، فصحيح أنك حر الاختيار، إلا أن اختيارك فى نفس الوقت مبنى على هذين الأمرين: تركيبتك الوراثية ونشأتك وبيئتك .. وهما بالطبع أمران لم يكن لك فيهما أى خيار!

لذلك فإن مقولة مصطفى محمود من أن التخيير هو عين التسيير بها شىء من الصحة، إلا أننى أرى التناقض فى أسبابه حينما يقول أن الله يسيّر كل إنسان على هوى قلبه وعلى مقتضى نياته، إذ أنه بقوله ذلك ينفى عن الإله الذى يحاول إقناعنا به مهمة خلق الإنسان نفسه .. فهو بذلك يعطينا الحق فى أن نتسائل عمن خلق لك النفس والقلب والنية إذن؟ وإن قلت أنت بأن الله لم يخلق لك ذلك فهل هذا معناه أن هناك أمور لايخلقها الله فى هذا الكون؟ سؤال يهمنى أن أجد الإجابة عليه ..

● ● ● ● ●

والدكتور مصطفى محمود، بعد أن بدأ فى إجابة السؤال بشىء من المنطقية، إذا به يشطح تماماً ويواجهنا بأمور أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها خرف محض .. فبعد أن عرض فكرته الحكيمة بأن التسيير هو عين التخيير، إذا بالكلام يأخذ مساراً آخراً عجيباً لاقاعدة له ولا منطق ..

يبدأ الدكتور مصطفى محمود كلامه بأن يقول:

"الإنسان يستطيع أن يزيد من حريته بالعلم .. باختراع الوسائل والأدوات والمواصلات استطاع الإنسان أن يطوى الأرض، ويهزم المسافات .. وبدراسة قوانين البيئة استطاع أن يتحكم فيها ويسخرها لخدمته، وعرف كيف يهزم الحر والبرد والظلام، وبذلك يضاعف من حرياته فى مجال الفعل .. العلم كان وسيلة إلى كسر القيود والأغلال وإطلاق الحرية .."

حسناً، فالعلم هو الوسيلة الأولى لزيادة حرية الإنسان، ماهى الوسيلة الثانية فى رأيه؟
"أما الوسيلة الثانية فكانت الدين .. الاستمداد من الله بالتقرب منه .. والأخذ عنه بالوحى والتلقى والتأييد .. وهذه وسيلة الأنبياء ومن فى دربهم .. سخّر سليمان الجن وركب الريح وكلّم الطير بمعونة الله ومدده .. وشق موسى البحر .. وأحيا المسيح الموتى .. ومشى على الماء .. وأبرأ الأكمه والأبرص والأعمى .."
ثم إذا به يشطح إلى أبعد من ذلك ويطرح أموراً هى من قبيل الجنون المطبق، وذلك حين يقول: "ونقرأ عن الأولياء أصحاب الكرامات الذين تُطوى لهم الأرض وتكشف لهم المغيبات .. وهى درجات من الحرية اكتسبوها بالاجتهاد فى العبادة والتقرب إلى الله والتحبب إليه .. فأفاض عليهم من علمه المكنون .. إنه العلم مرة أخرى .. ولكنه هذه المرة العلم اللدنى .."
ماهذا الكلام؟
فبعد أن بدأ معنا الدكتور مصطفى محمود كلامه الرصين الحكيم، إذا به يمتطى براقاً مجنحاً ويشطح إلى خارج الطبيعة ويحدثنا عن كرامات الدراويش ..
ولنا هنا وقفة ..
الدكتور الكبير الذى هاجم الدروشة والهطل عبر ربع قرن، وهاجم شلل الأنس وأفيون الدراويش ونادى بتحرير العقول وإعمال المنطق والعلم - يعود فيرتدى حلة المجاذيب وأهل الكرامات وأولى العلم اللدنى ويطير بنا إلى السموات السبع وما بعدهن ..
ولنا هنا أن نتسائل، إن كان لدينا فى بلادنا أولياء أصحاب الكرامات طويت لهم الأرض وكشفت لهم المغيبات، كيف هزمنا فى حرب ٦٧؟
لماذا لم نستخدم هؤلاء الأولياء فى أن تطوى لنا الأرض حتى تل أبيب وندمرهم تدميراً؟
ولماذا لم يكشفوا لنا المغيبات ويخبرونا بميعاد ضربة إسرائيل التى أعادتنا إلى القرون الوسطى وصنعت إسرائيل الكبرى؟
أين ذهب هؤلاء الواصلين الأقطاب وأولى العزائم؟
وأين كان هو وجنه وأشباحه؟
فلقد طالعت ما قالته صديقة له من أنه كان يحادث الجن ويحتضنه وأن الجن كان يأتى إليه كالنار فى ممر غرفته - ويقضى له احتياجاته - بل وإن سبب

ضعفه الجسدى هو احتضان الجن له .. وهو كلام على غرابته إلا أننى يمكننى تصديق أنه قد صدر من مصطفى محمود، فلقد تابعت فكره وقرأت كل أعماله واستمعت إلى كل ماقاله .. وأنا بالطبع لايمكننى أن أثق تمام الثقة بكلام صديقته السيدة "لوتس عبد الكريم" حينما ادعت ذلك .. ولكن من خبرتى بكتبه وفكره أرى أن قد يكون هناك شىء من الصحة فى هذه الادعاءات ..

وعندما سألوا ابنه أدهم أنكر ذلك بقوله "إن أصل الموضوع يعود الى ٤٠ عاماً مضت حيث أنه كان شديد الاهتمام بموضوع الجن فى العديد من المواضع فى القرآن الكريم وتبحر فى هذا الموضوع للغاية" ..

إذن للموضوع أصل!

وقد سافر مصطفى محمود لإنجلترا تحديداً ليزور مكتبة تخصصت فى بيع كتب الجان وماوراء الطبيعة والـ"شبشبة" على حد قوله .. بل وذهب إلى جلسات قراءة الطالع فى لندن .. وقد عرض مصطفى محمود كلامه هذا فى كتابه "حكايات مسافر" .. كما أنه قد سؤل ذات مرة عن قصته الشهيرة "العنكبوت" وقال إنه قد وصله إلهامها فى ليلة واحدة، وإنها قد تكون وحياً من الله وقد تكون من الشيطان ..! (من كتاب د. مصطفى محمود والتصوف - صفحة ٣١) ..

إذن فكما يلهمه الله بكتابات بارعة نال الشيطان أيضاً من الحب جانب ..

إن العجيب فى الأمر هنا هو أن مصطفى محمود بعد أن كتب "العنكبوت" لم يكن على دراية على وجه التحديد إن جائت بوحى من الله أم بوحى من الشيطان!! وهو هنا يضع أمامنا احتمالية أن يكون هو نبياً مرسلاً يوحى إليه، أو شيئاً آخراً شأنه شأن مسيلمة الكذاب أو الأسود العنسى!

وتعجب أن يجهل المرء إن كان من حادثه هو ذلك الإله الذى يؤمن به (والمفترض أنه كائن عظيم خارق للقوانين ماعلمناه منها ومالانعلمه)، أم هو المتمرد الخناس الرجيم الذى خلع لباسه وهز مؤخرته العارية أمام خالقه قائلاً وبعزتك لأغوينهم أجمعين!

إن مصطفى محمود لايعلم إن كان الله هو الذى أوحى إليه أم الشيطان ..!!!

وتعجب إذ أننا إذا ماافترضنا أن صانع هذا الكون هو كائن على شاكلتنا كما يتصوره رجل الدين، وأن ذلك الكائن قد قرر أن يحادث أحد مخلوقاته، ألا تعتقد معى أن ذلك الموحَى إليه سيتيقن حقاً وصدقاً ويقيناً أن الذى يحادثه هو من خلقه وخلق هذا الكون المهيب السرمدى ..!!

إن حادث الإله أحدهم، ألا تعتقد معى أنه لن يتركه فى شك من أنه هو الذى حادثه وليس غريمه؟؟

• • • • •

وخلاصة الكلام هنا هو أن ليس هناك "من" يقدر عليك أفعالك وليس هناك من سيحاسبك بعد مماتك، وإنما أنت نتاج تركيبتك الوراثية ونشأتك وبيئتك وتفاعل هذا بذاك .. وأتفق مع مصطفى محمود فى أن العلم الذى يسميه هو بالعلم الموضوعى سوف يزيد من حريتك، إلا أننى لاأعتقد فيما يسميه هو بالعلم اللدنى .. وهو فى رأيى علم لن ينتهى بك إلا إلى مستشفى المجاذيب ..

(٣) لماذا خلق الله الشر

وجود الشر فى الكون أمر يصعب على رجال الدين تفسيره .. وعبر قرون طوال حاول الإنسان فهم فكرة الشر فى الكون وإيجاد تفسير لها، فصنع آلهة للعواصف والرعد والبرق والنار، وفسر الإفريقى القديم الشر إذا ماحاق بالقبيلة أن أرواح الأشرار من أسلافه إنما أحاطوا بالقبيلة لسبب ما - ويخرج الإفريقى وقتها ويرقص ويطبل ليطرد تلك الأرواح الشريرة وليستدعى أرواح الأجداد الطيبين فتهيمن السعادة على القبيلة مرة أخرى .. وبمرور الوقت تقلصت مثل هذه الأفكار وتقلصت أعداد الآلهة حسنة المراد وكذلك أعداد الآلهة الشريرة حتى وصلنا إلى كائن واحد خير هو الإله وكائن واحد خبيث هو الشيطان .. وهو الفكر المقبول الآن فى معظم الديانات الكبرى .. إذ أن العقل بعد أن طور فكرة الإله الخير كان لزاماً عليه إذن أن يخلق كائناً آخراً خصماً لكى يقوم بمهام الشر فى الكون، ومن هنا نشأت فكرة الشيطان .. وهو تناقض عقلى يتنافى مع فكرة الإله مطلق القدرة، إذ لو كان مطلق القدرة بالفعل لسحق الشيطان تماماً بل وقوى الشر فى الكون أجمعه .. أليس كذلك؟

أما مصطفى محمود فيفسر وجود الشر فى الكون بقوله أن الله لم يأمر بالشر وإنما سمح به، ويستطرد قائلاً: "الله لايأمر إلا بالعدل والمحبة والإحسان والعفو والخير وهو لايرضى إلا بالطيب" ..

وهنا فإن مصطفى محمود يتحدث بالطبع عن "الله" والذى هو إله المسلمين .. وصحيح أن إله المسلمين يأمر بالعدل والإحسان وخلافه إلا أنه أيضاً يأمر بالقتل والسحل والذبح بدليل الآيات التى تقول "واقتلوهم حيث ثقفتموهم" و"قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" وآيات أخرى مثل "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق" أو "ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين" و"قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين" .. ونفس ذلك الإله أيضاً يبشر بعذاب أبدى مريع فى الآخرة ويتحدث عن ملائكة شرسة الطباع تصفع البشر على وجوهم وعلى مؤخراتهم "إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوهم وأدبارهم" .. هذا بخلاف آيات

الحرق والسعير مثل "إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً" إلى آخر ذلك من فظائع وأهوال ..
كان هذا تعليقى على مقولة مصطفى محمود من أن الله لايأمر إلا بالعدل والخير ولا يرضى إلا بالطيب ..

ونعود إلى قضية الشر فى الكون، ويسأل مصطفى محمود نفسه ثم يجيب: لماذا ترك الظالم يظلم والقاتل يقتل والسارق يسرق؟
والإجابة: لأن الله أرادنا أحراراً .. والحرية اقتضت الخطأ ولا معنى للحرية دون أن يكون لنا حق التجربة والخطأ والصواب ..
حسناً ..
حينما بدأت فى كتابة هذا الباب تناهى إلى علمى مافعلته جماعات مسلحة فى إحدى المدارس شمال باكستان، وهو الهجوم الذى أدى إلى مصرع مايزيد على المئة والأربعين شخصاً معظمهم من التلاميذ .. إذ اقتحم مسلحون تلك المدرسة وقاموا بإطلاق النار فى عشوائية على الجميع، ثم فجر أحدهم بعدها نفسه وسط مجموعة أخرى من التلاميذ والمدرسين فأرداهم جميعاً قتلى، والنتيجة مذبحة مروعة فاقت كل تصور وكل تقدير ..

هذه هى الحرية التى أرادها الله لعباده، وهى الحرية التى يتحدث عنها مصطفى محمود ..

وينظر الخالق من عليائه إلى الطفل الذى سيقتل بعد دقائق ولا يفعل أى شىء ويكتفى بالفرجة ..
لم؟
لأنه أرادنا احراراً،
ولما كان الخالق عالماً بشؤون خلقه وأحاسيسهم، فلا شك أنه يعلم تمام العلم قدر الألم الذى سينال من قلب أم هذا الطفل، وقلب كل من يعنيه أمر هذا الطفل، وهو ألم يستحيل وصفه ويستحيل تقديره، وهو أمر جلل بحق - وعلة فى القلب قد تؤدى بحياة الأبوين، ولا يتدخل الرب ويكتفى بالنظر .. فالقاتل حر - والمجرم حر - والعذاب مؤجل - وباب التوبة مفتوح على مصراعيه

حتى بعد أن سبب القاتل كل هذا الألم لأم ذلك الطفل وأبيه ولأسرته وعشيرته ..
إن هذا الطفل الذى انفجر رأسه وهو يلهو مع أقرانه (والذين هم انفجرت أيضاً رؤوسهم وتمزقت أجسادهم الصغيرة إلى أشلاء) - هذا الطفل لاعلم له بحرية المجرم - وتخيير القاتل، والسماح الذى منحه الله لشيطانه كى يرتع فى الأرض فساداً - فتبلى السرائر وتجلو النفوس ..
هذا الطفل الصغير خلقه الله ليعبده، إذ أن إله المسلمين يقول فى كتابه "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، إلا أنه ومع الأسف فإن ذلك الطفل قد اختاره الله إلى جواره قبل أن يعى مهمته فى هذا الكون، وهى عبادة نفس ذلك الكائن الذى قدر له هذه الميتة البشعة ..

والسؤال هنا: هل الحرية هى أن تكفل للمجرم حقه فى ارتكاب الجريمة ولا تكفل للمعتدَى عليه حقه فى أن يعيش ..؟

وبالطبع يتدخل العالم بالدين هنا ومن تبعه ويخرج علينا بتفاسير لذلك الذى حدث، ويقول أنه قد حدث لحكمة ..
وإن سألته عن الحكمة قال إن علم ذلك عند ربى ..
والسؤال هنا هو كيف عرفت أن ذلك قد حدث لحكمة ثم جهلت تلك الحكمة؟
والتفسير الآخر والذى يستخدمه رجل الدين كثيراً هو الابتلاء .. وفكرة الابتلاء هنا تجعل من إلهك كائناً سادياً مثله مثل إنسان قاس يفعص فأراً أو صرصوراً تحت حذائه ليرى كيف سيتصرف أو لأنه يحب سماع صوت استغاثته ..
وتفسير آخر نسمعه أيضاً كثيراً هو أن ما حدث قد يكون رحمة من الله، فمن يعلم إذ لربما نجى الله المجتمع من شرير قادم ..
وتعجب كيف ترك الله الشرير الأول ولم يئده فى مهده كما فعل مع طفلنا الصغير ..
وواقع الأمر أن ذلك الذى حدث ليس له أى حكمة ولاهو ابتلاء ولاامتحان ولاهو رحمة ولاحتى ظلم تسلطه علينا السماء، وإنما على هذا النحو كان هذا الكون الذى نعيش فيه!

● ● ● ● ●

ويستطرد مصطفى محمود قائلاً: "و كان فى قدرة الله أن يجعلنا جميعاً أخياراً وذلك بأن يقهرنا على الطاعة قهراً وكان ذلك يقتضى أن يسلبنا حرية الإختيار .. وفى دستور الله وسنته أن الحرية مع الألم أكرم للإنسان من العبودية مع السعادة .."
حسناً ..
دعنا نحلل هذ المقولة ..
طبقاً للمفهوم الإسلامى والذى هو مبنى على أسطورة آدم اليهودية فإن إله الإسلام قد فعل ذلك الذى يقوله مصطفى محمود بالفعل، ولكن مع الملائكة ..
إذن دعنا هنا نعرض لستة بمخلوقات الإله طبقاً لتلك الأسطورة وهى التى وجدت طريقها إلى جميع الديانات الإبراهيمية:

١) الملائكة: وهم كائنات من نور، يراهم الإسلام ذكوراً وتراهم المسيحية إناثاً - وهؤلاء هم من انطبقت عليهم مقولة الدكتور مصطفى محمود من أنهم مقهرين على الطاعة قهراً .. فهم كائنات نورانية حسبها أن سبحت ربها فى غدوها وروحها - وبعضها له دور كجبريل وعزرائيل ..

٢) الشياطين - أو بالأحرى إبليس - وهو مخلوق من نار - ويبدو أن ذلك كان مدعى فخر له وزهو ملحوظ، فعلى مايبدو أنه يتصرف وكأنه الإبن المدلل للإله، والذى ما أن شب وسرت النار فى عروقه تمرد وعصى أبيه وتحداه ..
ولنا هنا أن نعجب كيف ذاك وهو ينظر فى عين أبيه مطلق القدرة .. ثم إذا به يتحداه! كيف ذلك؟
ولكن هكذا اقتضت أسطورة الديانات الإبراهيمية ..

٣) الجن: وهى كائنات يحكى لنا القران أنها أيضاً خلقت من نار، وهى ترى الإنسان ولا يراها ويمكنها أن تتلبسه وتسيطر عليه، ولها إمكانيات خارقة كالطيران فى لمح البصر والاطلاع على ماكان بالنسبة لنا غيباً وامتيازات أخرى كثيرة - ويبدو لى أن الجن المسلم مثله مثل الإنسان المسلم، أما الجن

الكافر فهو ما يعمل مع الشيطان لإغواء البشر، أو لربما كان هو نفسه الشيطان ..

٤) بنو الإنس - نحن - خلقنا الإله من طين وقدر لنا أن نعمر الأرض ونعبده - وغضب علينا رغم علمه بضعفنا ..

٥) باقى الكائنات الحية - من بكتريا وفطريات وفيروسات وحملان وطيور وسباع مفترسات ونباتات وأسماك وطحالب وأفاعى ودواب، وليس فى الديانات الإبراهيمية مبرر واضح لخلق هذه الكائنات - هناك آيات فى كتاب المسلمين تتحدث عن تسخير بعض هذه الكائنات للإنسان ليتغذى عليها أو ليمتطيها مثلاً - ولكن ليست هناك حكمة واضحة تفسر سبب خلق كائنات مثل البكتريا والفيروسات الممرضة مثلاً - أو للحيوانات المفترسة والبعوض الناقل للملاريا والذباب الحامل للأمراض القاتلة كمرض النوم على سبيل المثال ..

٦) الكون - وهو ما نراه حولنا من نجوم وأجرام ومجرات - ويقول لنا القرآن أن الأرض هى مركز الكون وأن السماء زينت بمصابيح (وهى الأجرام السماوية) والتى صنعت خصيصاً لرجم الشياطين ولزينة الأرض ..

إذا ما نظرت إلى هذه اللستة وتأملتها منطقياً، وبعيداً عن أى تحيز أو تعصب لفكر أو دين ما - لأدركت مدى حماقة الفكر الدينى الذى أدى بنا إلى تصور بل وإلى الإيمان بمثل تلك الأساطير ..
إنها أسطورة توضع إلى جوار مئات بل آلاف الأساطير الأخرى التى طورها البشر ..
وأنت إن أردت أن تؤمن بهذا الكلام فهذا بالطبع من حقك، ولكن لاتفرض ذلك على الآخرين، خاصة أولئك الذين يبغون اتباع المنهج العلمى فى التفكير ..

ثم هو يقول "وفى دستور الله وسنته أن الحرية مع الألم أكرم للإنسان من العبودية مع السعادة" ..

حسناً .. هل يعنى ذلك بالتبعية أنه يرى العكس بالنسبة للملائكة؟
ثم كيف يرى الشياطين، وهم أحرار - هل هم أيضاً يتألمون؟ أم أن الألم قاصر على بنى الإنس؟
إذن نحن هنا نتعامل مع جميع الاحتمالات - قد يقرر الله لك أن تكون ملاكاً وإذا بك مقهور على الطاعة ولكنك سعيد .. أو أن تصير إنساناً فليس هناك قهر ولكن هناك ألم - أو أن تكون شيطاناً فلك كل الحرية أن تتحدى خالقك وترتع فى الأرض فساداً وتغوى المساكين من بنى الإنس ..
ولا أعلم على وجه التحديد كيف سيعذب الإله إبليس - فهو إن أدخله النار لكان ذلك عين سعادته! أم أن هناك باب الزمهرير الذى يتحدث عنه مصطفى محمود فى "المسيخ الدجال"، وهو أعد لتجميد العاصين من البشر، وهو لاشك يصلح أيضاً لشياطين الجن؟

وفى الصفحات الثلاث التالية يستطرد مصطفى محمود معللاً وجود الشر فى الكون، وما يفعله فى هذه الصفحات الثلاث هو فى الحقيقة تماماً كالأفيون المخدر - وهو تحديداً ماقاله كارل ماركس من أن الدين هو أفيون الشعوب .. ففى هذه الصفحات إنما يؤكد مصطفى محمود على معنى واحد تقريباً وهو أن الشر إما أنه خير لانعلمه أو أنه سينتج خيراً بالضرورة - فهو يقول إننا ما كنا لنعرف الصحة لولا المرض - وما عرفنا الجمال لولا القبح - والألم يربى الجلد - ولولا أن مات أجدادنا لما كنا فى مناصبنا - وإن أعظم الاختراعات تخرج أثناء الحروب .. ومن سم الثعبان يخرج الترياق .. إلخ .. وما يفعله الدكتور مصطفى محمود هنا هو شىء كتعزية البشر - فنحن هنا فى هذا الكون - لافكاك منه - والحياة ألم ومعاناة - والألم جزء لايتجزأ من الكون - ولذلك خرجت كل تلك التفسيرات تعزى ابن آدم بأن الشر فى داخله خير .. أو هو نفسه خير .. ربما قبلنا الألم وتحملناه بعد سماع هذه الكلمات .. وهو يفعل شيئاً آخراً أيضاً، فهو فى معرض كلامه السابق إنما يؤكد على فكرة إسلامية مائة فى مائة ملخصها ذلك القول الذى ينسبه البعض لنبى الإسلام وهو "لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع" .. وهذا هو عين الاستكانة والاستسلام والخضوع .. فهذا القول مؤداه أن يقبل المؤمن بواقعه ولايحاول أن يغير من أى شىء أو أن يصلح من أى شىء .. فما هو فيه هو أفضل الأمور .. ويتردى الحال بالمؤمن المتوكل على خالقه فلا يفعل سوى أن يفسر ما هو فيه على أنه الخير الذى أرسله الله له وإن لبس لباس الشر ..

وهذه دائرة مفرغة لاتصنع سوى جيوشاً من المتواكلين الخانعين الخاضعين - لاتحدى لعوامل الفشل - ولا أخذ بالأسباب - ولا محاولة لدرء دكتاتورية الحكام - أو تحكم المدير - أو مناقشة الثوابت .. فما نحن فيه هو الخير التام ..

ويقول مصطفى محمود إننا لايجوز أن نحكم على كتاب من فصل واحد فى رواية متعددة الفصول .. والسؤال هنا: كيف عرفت ذلك؟ كيف عرفت أن هذه الحياة لاتعدو إلا أن تكون فصلاً واحداً من عدة فصول؟

إن هذا الفكر قديم قدم البشرية ذاتها - وهو محاولة الإنسان لتعزية نفسه بأن يتوهم عالماً آخراً سينال فيه حقه ممن ظلمه ويحيا بلا ألم وفى سعادة دائمة وضحك مستمر - ويخطو الإسلام خطوة أخرى لترغيب تابعيه فى فعل الصواب بإغرائهم بحور العين الأبكار وأنهار الخمر والعسل ..

ثم يضع الدكتور مصطفى محمود أمامنا وظيفة أخرى للمشقات والألم .. فذلك هو مايفرز الناس ويكشف معادنهم ..

ولنا هنا أن نتسائل .. ألم تكن هناك طريقة أفضل لفرز البشر سوى تعذيبهم؟ ثم لماذا تريد فرز البشر وأنت كإله تعلم تمام العلم كيف سيتصرفون حين تفرزهم وتصهرهم ليظهر المعدن الأصيل من المعدن الخسيس؟ ألست أنت صانعهم وبارئهم؟ ماهى المفاجأة إذن إن هم فعلوا ما قدرته لهم وما فطرتهم عليه؟ ولماذا تغضب عليهم وأنت صانعهم؟ هل رأيت فى صنعتك عطب أغضبك؟ ألا تعلم أنت كل شىء وتعلم كيف سيتصرف هؤلاء الذين خلقتهم وفطرتهم؟ ألا تتفق معى أنهم سيتصرفون طبقاً لما وضعته أنت فيهم؟ فيم غضبك إذن؟ وفيم تعذيبك لهم؟

ويتسائل مصطفى محمود: هؤلاء الذين يريدونها جنة .. ماذا فعلوا ليستحقونها جنة؟

والسؤال هنا معكوس، فالسؤال الصحيح هو: ماذا فعل الإنسان ليستحقها دار عناء؟

سؤال مطلوب الإجابة عليه ..

● ● ● ● ●

أما أعجب ادعاء ربما فى هذا الباب هو حينما يقول مصطفى محمود "الله أرسل الرياح وأجرى النهر ولكن رُبان السفينة الجشع ملأ سفينته بالناس والبضائع بأكثر مما تحتمل فغرقت فمضى يسب الله والقدر .. وما ذنب الله؟! .. الله أرسل الرياح رخاءاً وأجرى النهر خيراً .. ولكن جشع النفوس وطمعها هو الذى قلب هذا الخير شراً" ..

ماهذا الكلام الفارغ؟

الله أرسل الرياح رخاءاً؟

الله أجرى النهر خيراً؟

إن طالب الإعدادى الآن يعلم أن الأرض عمرها ٤ - ٥ ألف مليون عام .. جرت فيها الأنهار وعصفت الرياح لآلاف الملايين من السنين قبل أن يظهر الإنسان بل وقبل أن تظهر أية حياة .. ولولا أن شق الإنسان الترع والأنهار وبنى السدود ونظم حركة المياه لما عرفنا زراعة ولاصناعة ولا تقدماً - ولازالت السيول تطيح بقرى بأكملها ولازالت الرياح تعصف بمدن برمتها - لاهية عمياء صماء لاشأن لها بإنس أو بجن أو بذوات أربع - فلا يعرف السيل فى طمه ماحلله الله وما حرمه - والرياح والأعاصير إذا ماقامت وهاجت لأتت على مدن وقرى برمتها ومحتها من على الخريطة وكأن لم تكن .. ولولا كفاح الإنسان وشقائه عبر آلاف السنين لما كانت هناك ممالك مستقرة ولازروع ولا حقول ..

إن وجودنا كعدمه أمام تلك الظواهر الطبيعية ..

إن الطبيعة لاشأن لها بنا ولا تحرك الريح من أجلنا ولاترسل لنا الأمطار ولا تجرى لنا الأنهار .. بل نحن الذين تعلمنا استغلال هذه الموارد والطاقات لنتمكن من الحياة والتطور - ولازالت الرياح تعصف بنا ولازالت الأعاصير والسيول تغرقنا وتغرق حقولنا إذا ما غفلنا عنها للحظة - ولسوف تظل الرياح على عصفها والأنهار على جريانها حتى بعد أن ينقرض بنو آدم من على الأرض .. وهكذا الطبيعة .. لاهية .. عمياء .. غير مكترثة - ولاترحم - فلا تنتظر منها أن ترحمك ..

إن الإنسان فى صراع دائم مع الطبيعة - ونتيجة هذا الصراع هو مانراه الآن من إمكانيات ووسائل للحياة ..

إن كل مالدينا الآن قد يعصف به انفجاراً شمسياً .. أو نيزك عملاق - أو انفجار نجمى فى قوة تعادل ملايين القنابل الهيدروجينية ..

إننا إن تصورنا أن الله أجرى النهر لنا والريح خيراً لنا وأن ذيل الحصان قد خلق لنصنع منه منشة للذباب فإننا فى وهم ولاشك مبين ..
إن هذه الأفكار ولاشك تريح المؤمن - إلا أنه يجب أن يفيق ويستفيق - ويجب على المؤمن بمثل هذه الأفكار أن يفكر ثانية - وثالثة - ليتضح له أن النهر لم يخلق له - وأنها لاتمطر ليشرب هو - وأن الريح لاتأتى خصيصاً لتسير سفنه - وإنما على الإنسان أن يصنع المركب بحرفنة ودقة لكى لاتغرق ولكى تجوب المحيطات .. ويجب عليه أن يدرس هيدروليكية الماء وجيولوجية الأرض وميكانيكية وهندسة صنع السدود كى لايطم السيل وتغرق الأفدنة بالآلاف وتهلك القرى ..
إن النهر إذا ما جف والمطر إذا ماامتنع لكان على الإنسان أن يحفر الأرض ويشق الصخر وينقب عن الماء أو أن يهاجر بحثاً عنه وإلا مات جوعاً وعطشاً ..
إننا يجب علينا أن نستيقظ وندع هذا الفكر المتراخى جانباً ونشمر عن ساعدينا ونتحدى الصعاب وإلا ما ازدادت الفجوة بيننا وبين العالم المتقدم إلا اتساعاً ..

• • • • •

وأخيراً يطالعنا دكتورنا الكبير بمقولة جدته "خير من الله، شر من نفوسنا"، وهذه المقولة توضح لنا إلى أى مدى ذهب العقل البشرى ليحاول أن ينفى تهمة الشر عن الإله فإذا به يلصقها بنفس الإنسان ذاته!
ولازلنا نتسائل: ومن خلق لنا تلك النفس فى مفهومك؟ ألا تقول أنت بأن الله هو خالق كل شىء؟ لماذا تنسب لله مهمة خلق كل شىء ثم تنفى عنه مهمة خلق النفس الإنسانية؟

• • • • •

وخلاصة الكلام هنا أن الله لم يخلق لاالشر ولا الخير، وإنما نحن الذين نرى أحداث الكون من هذا المنظور .. إن الشر والخير أمور نسبية - فالخير هو ماأتى بنفع لنا أو ما ساعدنا على الحياة - والشر هو مانفى أو عرقل ذلك .. وهنا تكمن نسبية هذين الأمرين .. فما أعرّفه أنا على أنه خير قد يكون شراً

لإنسان آخر أو لجماعة أخرى من البشر، والعكس أيضاً صحيح، فمثلاً هل كان حرق هتلر لليهود خيراً أم شراً؟ بالطبع هو شر من وجهة نظر اليهود إلا أنه قد أتى على هوى العرب ولاشك، فها هو ذا هتلر يحرق اليهود وفى نفس الوقت يحارب إنجلترا والتى كانت تحتل أجزاءاً كبيرة من بلاد الشرق .. وهو ما دفع أئمة المساجد فى مصر إلى الدعاء لهتلر فى خطبة الجمعه أثناء حربه ضد الإنجليز بل وذهب البعض إلى الاعتقاد فى أن هتلر قد أعلن إسلامه .. وبرغم الفظائع التى ارتكبها هتلر فى حق اليهود إلا أن مافعله قد نبه الغرب لضرورة إيجاد وطن لليهود وكانت النتيجة قيام دولة إسرائيل بعد ٣ سنوات فقط من مماته .. إذن نفس الحدث قد يكون خيراً وشراً فى نفس الوقت .. إنها نفس قصة داود وجوليات، فالفلكلور الغربى يصور داود اليهودى وهو بالطبع رمز الخير كشاب أشقر مليح حسن الجسم بينما يصور جوليات الفلسطينى على أنه عملاق شرير قمىء، بل إن كلمة "Philistine" والتى تعنى بالإنجليزية شخص فظ الطباع هى فى الأصل مشتقة من كلمة "فلسطينى"، إذ لهذا الحد نجح اليهود فى تشويه كل من يعاديهم .. وبالطبع يهزم داود غريمه جوليات فى ملحمة انتصار الخير على الشر، إلا أن نفس ذلك الجوليات فى نظر الفلسطينين لهو بطل عظيم استشهد وهو يدافع عن أرضه ضد الاستيطان اليهودى .. أين الشر هنا وأين الخير؟

إن الشر هو مانراه نحن شراً والخير مانراه نحن خيراً .. أو على وجه التحديد، الخير هو مايراه المنتفع خيراً والشر هو ما يراه المتضرر شراً .. إن الفيضان الذى يدمر القرى ويهلك آلاف البشر تزدهر بعده الزروع - وهذا ليس معناه أن الفيضان خير وإن لبس لباس الشر - وإنما هو نفع لمن استطاع استغلاله وضرر لمن دمرت قريته وشردت عائلته ..

إن القضية ليست قضية خير وشر، وإنما هى قضية الوجود والعدم ..

إن ماساعدنا على الوجود عرفناه على أنه خير، وماعرقل أو منع ذلك عرفناه على أنه شر ..

إن مانراه فى الكون ليس صراع الخير والشر وإنما صراع الوجود والعدم .. والوجود هنا بالطبع هو وجودنا "نحن" والعدم هنا هو انعدامنا "نحن"، وليس الآخرين!

إن الوجود يحارب العدم، والحياة تحارب الفناء، وتقاوم التحول إلى مادة، وفى نفس الوقت فإن العدم يحارب الوجود، فالمادة تحارب الحياة .. فكما أن الوجود يحارب العدم فإن العدم أيضاً يحارب الوجود، وما أن قهره صار هو

الموجود الوحيد، وعندئذ يصير العدم موجوداً والوجود عدماً - فالعدم إذن موجود ومعدوم فى نفس الوقت - وهو مالا قبل للعقل أن يحيط به ..
ولهذا السبب فليس هناك شر مطلق ولاخير مطلق فى هذا الكون - إن الشر المطلق لايمكن وجوده فهو إن وجد فلابد أنه سيدمر كل شىء، وهو إن دمر كل شىء ولم يبق بعدها سواه لانتفت وقتها صفة الشر عنه، إذ أنه بتدميره لكل شىء لم يعد هناك شىء ليدرك شره ..
إن الشر المطلق بتدميره لكل شىء يدمر نفسه أيضاً ..
وكذلك الخير المطلق، والذى إن وجد فلسوف يمنح وجوده لكل شىء آخر وبذلك ينعدم هو ذاته ..
إن الخير المطلق شأنه شأن "الانفجار العظيم"، وهو مأأن حدث وأعطى الحياة للكون لانتهى كانفجار عظيم .. إن الانفجار العظيم بمنحه الوجود يمحو نفسه من الوجود ..
وكذلك فإن الشر المطلق شأنه شأن "الثقب الأسود"، وهو الذى يبتلع كل شىء صنعه الانفجار العظيم ويبتلع نفسه أيضاً، فالثقب الأسود هو عين الفناء .. وهو إن محى الكون كله وامتصه لنفسه لما بقى شىء آخر ليمتصه ولانتهى هو الآخر ضحية طمعه اللانهائى ..
ومابين الانفجار العظيم الذى حدث فى لازمان والثقب الأسود الذى إذا ماانتهى من ابتلاع آخر جسيم فى هذا الكون لانتهى هو نفسه أيضاً فى لازمان - بين هذا وذاك هو كل مانحياه .. حضارات وأفكار وأجرام وشموس .. كواكب ونجوم تدور وتنثر حياة هنا وهناك .. أكوان وفكر وعوالم وأزمان ..
إن بين هذا وذاك نسعد نحن ونشقى .. نلهو ونضحك .. نخطىء ونتعلم .. نفكر ونحلم .. ونحيا ونموت ..
إن بين هذا وذاك يقطن كل عذاب البشر ..
وفرحهم أيضاً ..

٤) وما ذنب الذى لم يصله قرآن

السؤال الذى يطرحه الصديق الملحد هذه المرة سؤال فى محله تماماً .. إذ يتسائل عن رأى الدين فيمن لم يصله قرآن ولم يأته نبى، ماذا سيكون حظه بين يدى الإله (والذى هو هنا بالطبع إله المسلمين) يوم القيامة ..
ويبدأ الدكتور مصطفى محمود إجابته بقوله أن مامن أمة إلا خلا فيها نذير، ويستشهد بالآية القرآنية التى تقول: "ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً" ..
ولنا هنا وقفة ..
أين الرسول المبعوث لزمننا هذا؟
إن ادعاء النبوة الآن لهو جرم يعاقب عليه القانون .. ومن حين لآخر يظهر أحد المختلين عقلياً ويتبعه مختلين آخرين ويعتزلون المجتمع ويمارسون حياة سرية مختفية فى غابة ما - وغالباً مايحدث ذلك فى بلاد العم سام حيث الوفرة فى كل شىء، حتى الخلل العقلى .. وبالطبع فإن السلطات الأمريكية تتعامل مع مثل هذه الأحداث بإسلوب الكاوبوى - وتحيط قوى الشرطة بهذه البؤرة أو تلك وتقتحم السلطات المعسكر بقوة القانون وتقبض على من أمكن القبض عليه وينال البعض نصيباً أسوأ من ذلك إذا ماحاولوا الهرب أو رفضوا التعاون ..
إننى لأسترجع هنا قولاً حكيماً لمصطفى محمود نفسه حينما قال أن المسيح إن ظهر ثانية لامتدت آلاف الأيدى لتصلبه من جديد .. هذا كلام صحيح تماماً - وهو يحدث بالفعل فى زمننا هذا ..
وأعود إلى التساؤل الذى طرحته هنا .. أين نبى القرن الواحد والعشرين؟
فى اعتقادى أن الإجابة التى سيخرج علينا بها أى من المعتقدين فى الديانة الإسلامية ستكون "محمد" ولاشك، فالإسلام فى نظر المعتقدين فيه دين صالح لكل زمان ومكان ..
وهنا سأقول أنا بعكس ذلك .. فالإسلام ديانة ليست بصالحة لزمننا هذا .. وإنما فى نظرى تتوقف صلاحيتها عند القرن الثامن أو التاسع عشر الميلادى على أكثر تقدير .. أما بعد ذلك فإن النهضة العلمية والصناعية غير المسبوقة والتطور الفكرى الهائل إنما ليضع كتاب المسلمين فى مأزق حرج - بل وليس كتاب المسلمين فقط بل وسائر الكتب التى أكل عليها الزمن وشرب ..
فنحن الآن نعلم علم اليقين أن الأرض لم تكن أبداً مركزاً للكون - وأن هذه النجوم والأجرام المتباعدة ليست بمصابيح هدفها تزيين الأرض ولاهى ترجم

الشياطين، وأن مانراه من شهب ونيازك لهو جزء متناه فى الصغر من نجم مهيب الحجم - وهو كالشرر يتطاير هنا وهناك غير عابىء بشيطان أو ملاك ..

ونحن الآن نعلم علم اليقين أن الذبابة إذا ماسقطت فى شراب فإنها ستنقل لنا أمراضاً - وليس من الحكمة فى شىء أن نغمس الجناح الآخر للذبابة حتى تعادل تأثير السم الناتج عن الجناح الأول ..

ولنا هنا أن نتسائل .. أى جناح ذلك الذى به الداء وأيهما به الدواء؟ وماذا لو أن الذبابة سقطت بجناح الدواء أولاً، هل علينا أن نغمس الجناح الآخر أيضاً؟

ونحن الآن نعلم أن العظام تتحلل بفعل البكتريا والفطريات وليست هى طعام إخواننا من الجن طبقاً للحديث الصحيح الذى يقول "لاتستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن" .. ويبدو لى أن الإنسان القديم قد عزى كل شىء يجهل مصدره أو مسببه إلى تلك القوى الغيبية غير المرئية من آلهة إلى جن إلى ملائكة إلى شياطين، فما عزاه محمد فى أحاديثه إلى الجن مثلاً هى أمور نعرف الآن مسبباتها جيدا كأن يقول "قلم أظافرك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها" أو "فناء أمتى بالطعن والطاعون، فقيل الطعن قد عرفناه فما الطاعون قال وخز أعدائكم من الجن، وفى كل شهادة" (أى أن الموت بالطاعون استشهاد فى سبيل الله) .. إذ تصور أهل الأزمنة الغابرة أن المرض مس من الشيطان تلزمه طبول الزار .. وقديماً فسر الإنسان فوائد النباتات ذات الأهمية الطبية مثل المر والقنب والقرفة وحصى البان والنعناع وغيرها على أنها تطرد الأرواح الشريرة .. ونحن الآن نعلم أن هذه النباتات قاتلة للميكروبات والجراثيم المسببة للأمراض والتى عزاها الإنسان القديم للأرواح والأشباح .. وكان لزاماً علينا بنى البشر أن نعكف على العمل والعلم لقرون طوال كى نقف على حقيقة هذه الأمراض ومسبباتها .. وشيئاً فشيئاً يتقلص دور الجن والشياطين ونبدأ فى الفهم الحقيقى لمسبب المرض وكيفية علاجه ..

ونحن الآن أيضاً نعلم أن البحرين إذا ماالتقيا لامتزجا ولصارا ماءاً واحداً - وأن ملحوظة البرزخ الذى يفصل هذا عن ذاك لهى ملحوظة ناقصة تدل على سطحية من نظر إلى البحرين عند أول التقائهما ولم يكلف نفسه عناء النظر إلى أبعد من ذلك، أو أن يجمع عينة من الماء الممتزج ويحلل مكوناتها تحليلاً علمياً دقيقاً ليرى حقاً وصدقاً ويقيناً بالدليل المادى العلمى القاطع أن البحرين قد امتزجا ولاسبيل الآن إلى انفصالهما لأصلهما الأول ..

ونحن الآن نعلم ألا وجود ليأجوج ومأجوج وراء سد من الحديد .. ونعلم أن هذه الأسطورة قد بنيت على قصة الإسكندر الأكبر الذى توغل فى قلب آسيا .. وهكذا انتقلت أخباره إلى أن وصلت صحراء العرب على هذا النحو التخيلى الذى نقرأه الآن آيات بينات ..

ونحن أيضاً نعلم ألا وجود تاريخى حقيقى وقاطع لشخصيات مثل إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب بل وجميع حكماء اليهود وصولاً إلى موسى، فكلها روايات عبرانية وجدت طريقها إلى كتب يعتقد فى قداستها ملايين البشر على اختلاف عقائدهم ونحلهم .. وليس معلوماً على وجه التحديد إن كانت تلك الشخصيات قد عاشت بالفعل فى تلك الأزمنة أو أنها فعلت ماتنسبه الديانات الإبراهيمية إليها .. حتى إن ماوصلنا عن المسيح نفسه لهو تاريخ يشوبه الكثير من التشويه - وقد ظهرت دراسة مؤخراً تقول بأن المسيح لم يمت على الصليب وإنما سقته أمه ومارية المجدلية شراباً أفقده وعيه فظن الجمع أنه مات فأودعوه القبر - فأتت أمه وعشيقته وأفاقاه وهربا به، وهو مايفسر اختفاء الجثة من القبر، وهو مايفهمه أتباع الديانة المسيحية والإسلامية على أنه القيامة أو الصعود .. وهذا ليس كلاماً هزلياً وإنما دراسة علمية منقحة تقول بأن شخصية المسيح هى شخصية حقيقية لمتمرد يهودى صغير السن - وأنه بعد نجاته وهروبه من بطش الرومان تزوج من مارية المجدلية وعاش بعدها إلى أن مات فى سن يزيد على الستين عاماً .. (من كتاب

"Jesus the Man: New interpretations from the Dead Sea scrolls"

الصادر عام ١٩٩٢ للكاتبة باربرة ثيرينج) ..

وهى بالطبع أمور تصدم كل مؤمن، فهى تنزع القداسة عن آلهة أو أنبياء أو زعماء - هذه القداسة يحتاجها المؤمن - فقد قيل له أنه إذا ما آمن وصدق ولم يناقش ولم يجادل دخل الجنة أو ورث الملكوت .. فإذا ماواجهته أنت بمثل هذه الحقائق العلمية والتاريخية إذا بك تنسف ذلك الملكوت من مخيلته ولدعوته أن يفيق ويستفيق، وهو بالطبع أمر محزن - فلا ملكوت، ولا حوريات ولاعذارى، ولا أنهار خمر وعسل ولا أرائك ولانخيل ورمان .. ولكن الحقيقة دائماً مؤلمة - لذلك كان الدين أفيوناً فعالاً .. يخبرك عن جنات وأعناب وأنهار لبن ونساء لاعمل لهم سوى تفريغ الكبت الجنسى لجمهور العربان الأشداء المنكاحين، وهو بالطبع أمر يروق لشباب الإسلام المحروم المكبوت ولرجال العرب المزواجين ..

إن الشاب المسكين الذى يربط حزاماً ناسفاً حول جسده ويفجر نفسه ويفجر معه بضعاً من يهود أو غير ذلك لهو يحلم بأولئك الأبكار الأتراب، بل إن أحدهم قد سجل له أنه كان يتمتم قائلاً "إقبلن .. إقبلن" قبل أن يعمد إلى شد حزامه الناسف .. إن واقعه المؤلم فى عالمه المتخلف قد أدى به إلى أن يقتل نفسه لينعم بحور العين - ولاتملك إلا أن تشعر بالأسف نحوه إن أنت نظرت إلى راتبه وفرص عمله وفرص حياته ..
إن هذه الآيات الجنسية لاشك لها تأثير واضح وفعال ومضمون يلعب بفكر الشاب المحطم المسكين ويؤدى به إلى إنهاء حياته على هذا النحو المزرى ..
ثم أعود إلى سؤالى الأول .. أين نبى القرن الواحد والعشرين؟
كيف تطلب منى أن أؤمن بكتاب خطه بدو الصحراء على جلود الإبل وبضع من الأحجار يقول بأن المرأة نصف الذكر ويدعو إلى قطع يد المتهم بالسرقة وجلد العاصى ونكاح ملك اليمين وقتل من غير معتقداته ..؟
كيف لى أن أؤمن بكتاب يخبرنى بأننى سأحترق فى النار أبداً وكلما احترقت كلما نبتت لى جلوداً أخرى لأذوق العذاب مجدداً؟ هذه النار التى تصهر النحاس - كيف سأحيا أنا فيها إلى أبد الآبدين؟
وهل هذا هو عدل الإله؟ إننى ماادخرت جهداً لأعرفه ولأتقرب إليه، والحاصل دائماً صفر كبير ..
قد تقول أن الخطأ فى أنا .. حسناً .. ومن خلق لى هذه الأنا فى مفهومك؟
قد تقول أن الله قد أعمى بصيرتى وأصم أذنى وختم على قلبى ..
حسناً .. وماذنبى أنا إن هو فعل ذلك؟
وتأتى إجابة مصطفى محمود المحبطة: "إن الله يختص برحمته من يشاء .. والله لايسأل عما يفعل .."
حسناً، هاأنذا أقول أننى قد بحثت مراراً وتكراراً .. وتسلقت الجبال وأمضيت الليالى فى الغابات وزرت المعابد على تنوعها .. من مسيحية إلى بوذية إلى هندوسية وغيرها .. ولم أترك باباً إلا وطرقته ولا فكراً إلا وقرأته .. والحاصل دائماً صفر كبير ..
إن الإله الذى لايحترم عقلاً صنعه بيديه يعطينى العذر فى ألا أعبده .. هذا كلامك ياأستاذى الكبير فى كتابك "الله والإنسان"، وهو كلام لن ينال منه الزمن أبداً .. فهو كلام غاية فى البراعة والحكمة ..

• • • • •

أعود إلى مايقوله أستاذى الكبير حين يقول: "وقد يريد الله لحكمة يعلمها أن ينذر أحداً وأن يعذر آخر فيقبل منه أهون الإيمان" ..
إن هذه الجملة الراقصة من شأنها أن تجعل أى شيء ممكناً - وتضرب بكل القوانين عرض الحائط - وتحيل القضية برمتها إلى حكمة الإله، وليس لنا هنا سوى الخضوع والإذعان بطبيعة الحال .. إذ أنه "قد" يكون الأمر كذلك بناءاً على تلك المقولة .. وطالما فتحنا الباب لـ"قد" و لـ"ربما" لصار كل شيء وأى شيء ممكناً ..
لربما غفر الله للجميع ..
ولربما عذب الله الجميع ..
ولربما أقام الله حفلة شاى للجميع ..
ولربما جمع الله كل خلقه يوم القيامة وشرع فى ضربهم بالشلاليت ..
فبناءاً على ما يقوله الدكتور الكبير فإن الله لايسأل عما يفعل ..
حسناً .. إن كان هو لايسأل عما يفعل، لماذا إذن تحاور صديقك الملحد بالمنطق والحكمة والفكر المنظم طوال الكتاب؟ لماذا لاتكتفى إذن بأن تفهمه أن الله لايسأل عما يفعل وكان الله بالسر عليماً؟

ثم يعود فيقول: "ومن يدرينا .. "ربما" كانت مجرد لفتة من ذلك الزنجى البدائى إلى السماء فى رهبة هى عند الله منجية ومقبولة أكثر من صلاتنا" .. هاهو ذا يستخدم تلك الـ"ربما" ثانية ..
ولى أن أتسائل مع نفسى إن كان مفكراً متميزاً كمصطفى محمود يعلم جيداً أن فرضية "ربما" تحتمل أيضاً فرضية "ربما لا" .. أليس كذلك؟
ودعنى قبل أن أتناول جملته هذه بالتحليل أن أشير إلى استخدامه للفظة "منجية" .. فالقضية هنا أن تفلت من العقاب - ليس لأن المفترض أن الدين يدعونا إلى كل ماهو جيد .. وليس لأننا نفعل الصواب لأنه صواب ونحجم عن الخطأ لأنه خطأ - كلا .. إن القضية هنا أن تفلت من العقاب .. ولذلك فعليك أن تطيع إلهك أياً كان هذا الإله .. فتجلد الزانى وترجم الزانية، وتقطع يد المتهم بالسرقة، وتفرض الجزية على أبناء العقائد الأخرى، وتحكم بالإعدام على من ترك دينه، وتبارك من حرق قرية هى فى نظر إلهك كافرة .. وكلها فظائع وانتهاكات لحقوق الإنسان - وهى حقوق لم يعرفها القرآن ولم

يعرفها بدو صحراء العرب، لذا كان فعل ذلك حلالاً بل واجباً وفرضاً سيعاقبك إلهك إن لم تتبعه .. وأنت إن فعلت ذلك نجوت من النار .. أما إن ظهر شعر إمرأة من تحت حجابها فهى فاجرة .. وإن ناقش أحدهم المسلمات والثوابت ومعظمها خرف وهذر فهو مرتد وجب عليه الحد .. وإن درس أحدهم نظرية التطور وحاول جاهداً فهمها وسبر أغوار نشأة الإنسان فقد كفر .. وكلها أمور لاتضر بمجتمع ولاتسبب تأخره - ولكن هكذا اقتضت حكمة إله الإسلام .. وهو الإله الذى يحاول مصطفى محمود نسبه للإفريق أيضاً!! ولنا أن نتابع معاً مايحاول هو إقراره فى صفحاته التالية - إذ يقول أن رب هؤلاء الزنوج البدائيين لهو الله الواحد الأحد لامراء - وإن دياناتهم البدائية لهى الإسلام!!

ياسلام!!

حسناً .. دعنا إذن نطالع أسبابه فى إدعائه لذلك ..

هو يقول أن قبائل الماو ماو تؤمن بإله اسمه "موجابى" ويصفونه بأنه واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له كفو ولا شبيه .. وأنه لايُرى ولا يعرف إلا من آثاره .. وإنه خالق رازق وهاب رحيم يشفى المريض وينجد المأزوم وينزل المطر ويسمع الدعاء ويصفونه بأن البرق خنجره والرعد وقع خطاه .. ثم إذا به يقول: "أليس هذا الـ "موجابى" هو إلهنا بعينه .. ومن أين جاءهم هذا العلم إلا أن يكون فى تاريخهم رسول ومبلغ جاء به ثم تقادم عليه العهد كالمعتاد فدخلت الخرافات والشعوذات فشوهت هذا النقاء الدينى" ..

حسناً .. دعنا نحلل هذه الادعاءات ..

أولاً (الماو ماو) ليست بقبيلة وإنما حركة سياسية نشأت فى كينيا إبان الاحتلال الإنجليزى - وهى مؤلفة من قبائل عدة لاشأن لها بالدين وكل هدفها جلاء الإنجليز .. وأصل كلمة (Mau Mau) باللغة السواحيلى هو:

"Mzungu Aende Ulaya, Mwafrika Apate Uhuru"، والذى معناه أن على الأوروبى أن يعود إلى بلاده وللإفريقى أن يستعيد الحرية .. وبالتدريج تم إطلاق إسم (الماو ماو) على مجموعة القبائل التى اتحدت لتواجه الاحتلال الإنجليزى والذين كانت أهمهم قبيلة الكيكويو ..

فكما قُدر لمصطفى محمود أن يرتحل فى غابات إفريقيا ويدرس معتقدات القبائل فى كينيا وتنزانيا، قُدر لى أيضاً أن أقوم بنفس الشىء - فلقد ارتحلت فى غابات كينيا وأوغندا وجالست الماساى والكيكويو واللوه وغيرهم كثير، وناقشت حكماء هذه القبائل بل وحضرت صلاة الكيكويو حيث يواجهون جبل

كينيا ويدعون إلههم "نجاى" أو "إنجاى" كما ينطقونها تحديداً راجين منه السلام .. وهذه هى صلاة الكيكويو:
"يا مطلق القدرة .. يا عظيم الشأن .. رب "كيرينياجا" .. الشمس، والمطر، والريح علامات قدرتك .. أنت وحدك الكامل والصواب .. وتشملنا حماك .. ياخالق .. يا مانح السلام .. يارب "جيكويو" و"مومبى" .. السلام .. الحكمة .. الصحة .. وبركتك .. العسل .. اللحم .. اللبن .. وعموم السلام .."
وكيرينياجا هو اسم جبل كينيا المهيب بلغة الكيكويو، أما "جيكويو" أو "كيكويو" فهو اسم أول إنسان نشأ فى منطقة كيرينياجا وهو المكان المسمى الآن بـ"كينيا"، و"مومبى" هى زوجة "كيكويو" التى أنجبت له تسعاً من البنات، ولما حان وقت زواجهن قصد "كيكويو" جبل كينيا مناجياً "إنجاى" ليرسل له تسعاً من الأبناء الذكور، وهبط "كيكويو" من تلك التبة العالية وقد أجابه "إنجاى" إلى مطلبه، وتزوجت بنات "كيكويو" التسع .. ومن نسلهم جائت قبيلة الكيكويو، ومن قبيلة الكيكويو جاء كل البشر .. وبالطبع فهذه الأسطورة لاتتشابه مع أسطورة آدم وحواء كما نعرفها من الديانات الإبراهيمية فى شىء، ولى هنا أن أؤكد أنه لاعلاقة لهذه الديانات بالإسلام ولاعلاقة لإلههم بإله المسلمين .. والشىء الوحيد المشترك هنا هو احتياج الإنسان إلى دين يؤمن به وعقيدة يتمسك بها، وإلى قوة خارقة للطبيعة لتحل له مشاكله وتعينه على أمور الحياة، أو لتنصره على أعداءه أبناء القبائل الأخرى والذين هم يؤمنون بآله أخرى وهمية كاذبة ليست كإلهه هو فى شىء بطبيعة الحال .. بل ولقد بحثت عن أصل هذا الإله "موجابى" ولم أجد له أى وجود فى أية ديانة إفريقية، وعدت إلى كتاب مصطفى محمود نفسه "الغابة" والذى كان قد أصدره عقب رحلته الشهيرة لعلى أجد فيه أية إشارة لهذا الإله، وبالفعل وجدته يتحدث عن "موجاى"، وهو إسم آخر صحيح لإله الكيكويو "إنجاى" إلا أنه أقل شيوعاً .. وفهمت أن الآلة الكاتبة قد أخطأت نقل إسم الإله من كتاب إلى آخر .. فـ"موجابى" هو اسم ديكتاتور زيمبابوى - وهو بالمناسبة إله هو الآخر، أو هو يرى نفسه كذلك .. أما إله الكيكويو "موجاى" أو "إنجاى" فليس كإله الإسلام فى شىء، فإنجاى هو إله السلام بحق، وهو لايأمر أبناء الكيكويو بشن الحروب والغارات على القبائل المجاورة وإجبارهم على اعتناق عقيدتهم .. إن فهم الكيكويو لفكرة الإله يختلف تماماً عن التصور الإسلامى أو المسيحى للإله .. إن "إنجاى" هو طاقة المكان، والمكان هنا هو مجموعة المرتفعات التى نشأت قبيلة الكيكويو

فى رحابها والتى هى جبل كينيا ومرتفعات نجونج والأبردير وجبل كليمامبوجو .. وإنجاى هو الطاقة الجبارة التى تسكن هذه المرتفعات وهى ماترسل المطر وتجرى الأنهار وتسقى الزروع .. إنجاى هو اعتداد تلك الأشجار الباسقات فى الغابة الكثيفة وهو حرية ذلك الطائر البديع وإصراره على الحياة .. وفى رقة النسيم وهو يداعب الزهور يقف الكيكويو متمنياً السلام .. فالكيكويو لايزعج إلهه ولا يلح فى طلب مايريد، وهو لايلعن أبناء القبائل الأخرى ولايعد لهم من رباط الخيل لإرهابهم وإدخالهم فى ديانته، وإنما يقف زعيم القبيلة منادياً "السلام .. السلام" ويردد الحشد من ورائه كما قال .. وأيضاً فإله الإسلام ليس هو "إنجاى"، فـ"الله" لايدعى أن البرق خنجره والرعد وقع خطاه، وهو لايسكن جبل كينيا وإنما عرشه فوق الكعبة بدليل الحديث الذى يقول بأن البيت المعمور مسجد فى السماء بحذاء الكعبة "لو خر لخر عليها"، وهو تحت العرش وعلى استقامته كما تخبرنا كتب الأثر الإسلامى .. أليس كذلك ..؟

ثم يحدثنا مصطفى محمود عن قبائل نيام نيام (والتى هى قبائل الزاندى فى جنوب السودان)، ويقول أنهم يؤمنون بإله واحد يسمونه "مبولى" وهو يسلط الصواعق على الأشرار من البشر ويكافىء الأخيار بالرزق والبركة والأمان .. وهو بذلك يتشابه مع اله الإسلام بالطبع ..
وهنا سأتفق مع مصطفى محمود أن "مبولى" يتفق مع "الله" فى هذ الجزئية، فإله المسلمين أيضاً يهلك الأشرار من البشر بالصيحة والدمدمة والريح الصرصر العاتية وخلافه .. وليسمح لى القارىء هنا أن أتوقف قليلاً وأحيد عن الموضوع الأصلى لهذا الباب، إذ يهمنى هنا أن أناقش هذا الاعتقاد الدينى الذى يقول بأن الآلهة تعاقب البشر بأن تسلط عليهم قوى الطبيعة .. وسؤالى الأول هنا هو: ماحكمة "مبولى" (أو شبيهه "الله") فى أن يسلط الصواعق على الأشرار من البشر ..؟ ألم يعلم هو قبل خلقهم من هو الشقى ومن الصالح ..؟ لماذا إذن يخلق أشراراً ثم ما أن شبوا وطغوا وفعلوا مافطروا عليه صعقهم ..؟
ثم لنا أيضاً أن نتسائل: هل سمعت عن صاعقة أصابت الأشرار فقط من قوم وتركت الصالحين؟
إن الطوفان والإعصار والبركان والفيضان إنما لتأخذ الصالح مع الطالح، وهى قوى عمياء صماء عاتية مدمرة لاشأن لها بمبولى أو "موجابى" أو

هارى كريشنا .. ونحن كبشر كثيراً مانقع فى هذا الخطأ .. فنحن نتصور أن الله قد أرسل لنا الزلزال ليعاقبنا - أو ليذكرنا بجبروته - أو أنه يسلط الطوفان على الأمم الضالة عقاباً لها .. أو أنه يمنع المطر عن قوم لأنهم أغضبوه .. وأذكر أننى كنت فى ولاية "لويزيانا" الأمريكية عندما وقع إعصار "كاترينا" المدمر .. وفى أحد الساحات المفتوحة رفع المسيحيون اللافتات والشعارات وقالوا ضمن ماقالوه أن إعصار كاترينا قد أتى ليمحو مدينة "نيو أورلينز" باعتبارها مدينة البغاء (Sin city) .. حدث ذلك أمام عينى فى أمريكا بلاد العلم والتقدم والفكر المتحرر .. وتعجب هنا لإعصار يقتل فيما قتل آلاف الأطفال وشرد آلاف الأسر المسيحية ودمر البيوت والمحال والطرقات وحول المدينة إلى مدينة للأشباح .. وتعجب ثانية إذا ماعلمت أن ذلك العقاب الجلل الذى أرسله الإله (وهو هنا لابد أن يكون المسيح بالطبع) لم يأت بأية نتيجة فلقد عادت الحياة كما هى ثانية لمدينة "البغاء" - ولاتزال الموسيقى تصدح - ولاتزال الملاهى تلهو وتلهى .. وعاد كل شىء كما كان إلى سابق عهده فى هذا المكان - وهو الذى أخرج أعظم موسيقيى القرن العشرين ..

وأذكر أيضاً أحد مسلمى أستراليا والذى علق على فترة الجفاف الشديدة التى شهدتها القارة فى وقت من الأوقات بقوله أن ذلك سببه هو عصيان الأستراليين لربهم - ولست على يقين أى إله يقصد على وجه التحديد - فهل لنا أن نفترض نظراً لكونه مسلماً أنه يتحدث عن عصيان الأستراليين لإله المسلمين (الله)؟ أم أنه يقصد "الإله" بوجه عام؟ وهو مايتفاوت بالطبع من مسيحى إلى مسلم إلى بوذى إلى هندوسى إلى بهائى، فأستراليا تحوى كل هؤلاء .. وتعجب أيضاً أنه عندما يفسر فترة الجفاف مثل هذا التفسير فإنه ولاشك يتناسى أين نشأ الإسلام وأين انتشر - حيث الصحراء القاحلة ..! ولم يمض وقت طويل بعد مقولته تلك إلا وهطل المطر وأثمرت الحقول وأينعت الثمار ثانية .. حدث ذلك على الرغم من عدم اتعاظ الشعب الأسترالى إثر تلك الأزمة المناخية .. فلا هم تابوا وأنابوا وأقاموا الصلوات ولاهم تضرعوا وتمسحوا بالكعبة أو بقبر الحسين أو كنيسة العذراء .. وإنما شمروا عن سواعدهم وبنوا السدود وشقوا الترع والمصارف وتحدوا الطبيعة القاسية وعبروا المرحلة الصعبة ليس بالدعاء والتبتل والتهدج بل بالعمل الجاد ..

ويحضرنى أيضاً هنا ماقاله أحد رجال الدين المسيحى والذى علق على الأمطار التى سقطت أثناء عروض مهرجان الماردى جرا بمدينة سيدنى من أن هذه الأمطار هى رسالة من السماء أن الرب غير راض عن ذلك الذى يحدث - ومالا يلاحظه هذا القس هنا هو أن الأمطار ظاهرة طبيعية سواء

كان هناك بشر أم لا، وأن السماء أمطرت لملايين السنين قبل أن يظهر الإنسان على سطح الأرض بل وقبل أن تنشأ أية حياة .. ولسوف تظل الأمطار على سقوطها حتى بعد أن ينتهى البشر من على سطح الأرض .. أليس كذلك؟
ويحضرنى أيضاً هنا ماقاله بعض أئمة المسلمين عندما هبت العواصف الرملية فى وجه الجنود الأمريكان أثناء عدوانهم على العراق من أن الله هو الذى أرسل هذه الرياح ليثبط من زحف الأمريكان نحو بغداد .. إنها نفس القضية، فنحن نتوقع ذلك من السماء على الرغم من أن تلك العواصف الرملية هى حالة مناخية سنوية تحدث فى نفس الوقت من كل عام بغض النظر عن وجود قوات أمريكية من عدمه فى هذه المنطقة .. وبعد أن فشلت تلك العاصفة فى إيقاف زحف الأمريكان فلا أملك هنا إلا أن أتسائل: لماذا لم يتدخل الله (أو صديقه ورفيق كفاحه مبولى) بقوة أشد تأثيراً كالصيحة أو الصاعقة أو الطير الأبابيل؟ بل ولماذا لم يشق الأرض لتبتلع الأمريكان عن بكرة أبيهم؟
مجرد سؤال عابر يهمنى إيجاد إجابة عليه ..

وأعود إلى آلهة الإفريق المسلمة، إذ يحدثنا مصطفى محمود عن الإله "جوك" والإله "نيالاك"، ويقول أن أبناء قبيلة الشيلوك يصفون إلههم "جوك" أنه فى السماء، وكذلك فإن ترجمة "نيالاك" الحرفية هى "الذى فى السماء"، وهذا حسب قول مصطفى محمود هو الدليل القاطع على أن هذه الآلهة هى نفس مايتحدث عنه الإسلام!
وتعجب أن مجرد تشابه موقع الإله مع موقع إله المسلمين صار نيالاك هو إلهنا بعينه، وأتعجب أنا هنا إذ أين يتوقع مصطفى محمود أن يسكن الإله كما طوره العقل البشرى؟
باطن الأرض؟
إن أول مكان يضع العقل البشرى فيه الإله لهو السماء .. والسماء هنا بالطبع نسبية - فنحن حينما نتحدث عن الأعلى - أو ذلك الذى فوقنا .. هل معنى ذلك أن الأرض إذا مادارت صار هو تحتنا أو إلى يمين أو يسار - أم تشقلب معنا؟ وإذا كان هو فوق جنوب السودان دوماً، فهل ذلك يعنى أنه تحت سكان كاليفورنيا؟

ثم ماهى السماء؟

هل السماء فوق الأرض بالفعل؟
فكر معى قليلاً قبل أن تجيب بنعم ..

• • • • •

ويتسائل مصطفى محمود: "وماذا نسمى هذه العقائد إلا إنها إسلام، وماذا تكون إلا رسالات كان لها فى تاريخ هؤلاء الأقوام رسل؟ ثم تقادم العهد عليها كالمعتاد فدخلت الخرافات والشعوذات وشوهت هذا النقاء الدينى .."
وبالطبع فأنا لاأسمى هذه العقائد أنها إسلام ولامسيحية ولابوذية - وإنما هى ديانات من نبت تلك الأرض الخضراء وبكارة تلك الطبيعة العذراء .. وإنما انتقى مصطفى محمود كلمة من هنا وكلمة من هناك وجعلها شبيهة بسورة الإخلاص لإثبات قضيته - أن هذه العقائد هى الإسلام .. وأن تلك رسالات كان لها رسل ثم تقادم عليها العهد ودخلتها الشعوذات فشوهتها ..
والغريب فى الأمر هنا هو تلك الشعوذات التى شوهت النقاء الدينى - فإن كان الإله الواحد الحق هو الذى أرسل هذه الرسل .. لماذا سمح بتشويه العقائد تحت سمعه وبصره؟ ولماذا لم يرسل مع العرب المسلمين عند دخولهم بلاد الزنج رسالة للشيلوك والزاندى والماو ماو مذكراً إياهم بأنه هو "موجابى" أو نيالاك بعينه؟ أو يطلب إليهم أن يكفوا عن ادعاءاتهم بحقه ونسب خناجر البرق وخطى الرعد إليه؟
ولى هنا أن أقول أن الديانات الإفريقية هى متاهات وسراديب من السحر الأسود والشعوذة والتخويف والخرافات .. وليس لها علاقة بالإسلام من قريب أو بعيد .. ولايتسع المجال هنا لاستعراض عقائد تلك القبائل قبل دخول الديانات الإبراهيمية، ولكن لى أن أقول سريعاً أن الفكر الدينى الإفريقى فى مجمله وعلى تنوعه يدور حول عدة نقاط .. النقطة الأولى والهامة هى عدم وجود جنة أو نار - ففكرة الثواب والعقاب هى فكرة أبعد ماتكون عن عقلية الإفريقى البسيط والذى هو ابن تلك الطبيعة الخضراء .. والموت بالنسبة له هو انتقال إلى عالم الأرواح فإن كان صالحاً فإن روحه ستسعد بلقاء الأجداد الصالحين الطيبين - ولسوف يصطحبونه كل حين وآخر إلى أرض قبيلته لينشروا السعادة والخير فى أرجائها، أما إن كان شقياً شريراً فإن روحه ستهيم بلا مستقر أو مأوى .. ولذلك يرقص الإفريقى فى مرح مستدعياً أرواح الأجداد الطيبين أو يقرع الطبول فى عنف ليطرد الأرواح التى تبغى له شراً

.. وهكذا نبع تفسير الإفريقى لأى أمر يحدث له أو لقبيلته من هذا المنبع .. فلقد جالست حكماء تلك القبائل وانتهيت إلى الاقتناع بإيمانهم الشديد بالثواب والعقاب الوقتى الدنيوى فى عالمنا هذا .. ولقد اختفت مثل هذه العقائد من معظم أنحاء إفريقيا السوداء الآن بعد انتشار المسيحية إلا أن بقايا هذا الفكر لازلت تعشش فى أذهان الكثيرين - خاصة أولئك الذين لم ينالوا حظاً جيداً من التعليم أو لم ينتقلوا إلى الحياة فى المدن .. ولازال الإنسان الإفريقى فى داخله، سواءً كان مسلماً أومسيحياً أو حتى يهودياً كاليهود الأحباش، يؤمن بأنه إذا ماحاق شر به وبأهله فسبب ذلك أنه قد أغضب الآلهة لسبب ما، وكذلك إن أصابه حظ فسبب ذلك أنه أسعد الآلهة وأجداده الطيبين .. ومامن حدث يحدث فى قرية إفريقية إلا وكان تفسيره أحد هذين التفسيرين .. بل لقد وصل بى الحال أن سألت أحد أبناء قبيلة "اللوه" إن كان تفسيره لموت أحد عجائز قبيلته هو أنه قد أغضب الآلهة فأجاب بالإيجاب - وتسائلت مازحاً ماذا إن عاش هذا المعمر حتى بلغ الثلثمائة عام ثم مات بعدها - هل سيكون ذلك سببه أيضاً أنه أغضب الآلهة أو أن أحد أبناء قبيلته قد قام بعمل خاطىء بحقه .. وجائت الإجابة بالإيجاب ..

هذا الشاب الإفريقى لهو مسيحى الديانة، ويعيش فى نيروبى العاصمة، إلا أن هذا هو الذى مازال يؤمن به ..

النقطة الثانية والهامة جداً فى جميع الديانات الإفريقية هى السحر الأسود والشعوذة، وتخويف البسطاء من أبناء القبائل عن طريق الأقنعة المخيفة والريش والطبول المرعبة والنباتات القاتلة والحراب المسممة .. بل ولقد عرض مصطفى محمود نفسه فى برنامجه الشهير كيف أن جلس ساحر القبيلة وسقى كتكوتاً صغيراً شراباً ما - وكان ذلك سببه أن الزائر الأجنبى وهو الذى يدرس عادات تلك القبائل سأله إن كان سفره المقبل سوف يكون سفراً موفقاً وعوداً حميداً أم عكس ذلك .. وجلس ساحر القبيلة وضغط بإصبع قدمه على مخلب الكتكوت الصغير ثم سقاه شراباً صنعه من نبات ما .. ثم تسائل: ياكتكوت ياكتكوت .. هل للزائر أن يسافر فى أمان أم أن سفره محفوف بالمخاطر ومن الأفضل له ألا يغامر بالسفر .. وانتظر الساحر .. فإن مات الكتكوت بالسكتة كانت النصيحة للسائل بألا يقدم على ماانتوى فعله، أما إذا استمر الكتكوت فى الحياة ولم يحدث له شىء كانت النصيحة إن ماانتوى السائل فعله لهو أمر آمن وحميد ..

ياكتكوت .. ياكتكوت ..

هكذا تحدث الساحر ..
وهكذا تندر مصطفى محمود ..
وعاش الكتكوت ..
وجائت النصيحة للطبيب الإنجليزى أن يسافر بسلام .. فقد عاش الكتكوت .. إن هذا الدجل هو من صميم الفكر الإفريقى، بل هو الفكر الإفريقى نفسه .. وهى كلها خزعبلات إفريقية لاشأن لها بالديانات الإبراهيمية ولا منشأ لها فى صحراء العرب ..
والخوف هو صفة إفريقية مائة فى المائة .. الخوف من إغضاب الإله .. ومن إغضاب المشعوذ الذى ارتدى القناع المرعب وحمل معه الموت فى قنينته التى تلازمه أينما ذهب .. الخوف من الختان، ومن الدق على الأسنان الأمامية وكسرها - وتخطيط الجباه بالسكين والوشم بالنار .. وكلها أمور تحدث من قبيل التحكم والترهيب .. الكبير يرهب الصغير والزعيم يرهب تابعيه وهلم جرا .. وهو فكر يغرسه ساحر القبيلة يوماً وراء يوم فى قلب البسطاء فينشأون على الخوف منه وخشية إغضابه والائتمار بأمره .. إما هذا وإما الموت برصاً أو مساً من الأرواح الشريرة، أو حرقاً أمام جمع من البسطاء المنساقين ..
وحياة الإفريقى البسيط فى أصلها تدور حول تلك الخزعبلات والشعوذات - والكل مشغول بمن جمع أوراق الجميز وسقاها دم العنكبوت عند اكتمال القمر ووقت عواء الضباع .. ويصل إلى علم المشعوذ الآخر مايفعله غريمه لإضراره وإلحاق الأذى بقبيلته فإذا به يهيل التراب على رأسه ويتمرغ فى وحل النهر عند مصبه وقت تعامد الشمس على أشجار الدوم لحظة صياح إبن آوى، وهكذا ينقذ القبيلة من خطر محقق ..
إن هذا الذى قلته لهو من صميم الفكر الإفريقى، بل هو الفكر الإفريقى نفسه ..
النقطة الثالثة والهامة فى الفكر الإفريقى هى الحرية الجنسية - ورغم أن هذه الحرية كعرف متبع لاتنتمى تحديداً لفكرة الدين كما نفهمه نحن فى مجتمعاتنا الحديثة - إلا أن هذه الأعراف والتقاليد والعادات لهى الدين نفسه فى المجتمعات القبلية - فماهو الدين ومامنشأه؟ الدين فى أصله مجموعة من الأعراف اتفقت عليها مجموعة من البشر - وصحيح أن الدين أيضاً هو التفسير الميتافيزيقى لظواهر الطبيعة، إلا أنه فى النهاية يخلق ويؤسس أعرافاً تقنن حياة البشر اليومية وعلاقاتهم ببعضهم البعض

وبكبرائهم وزعمائهم وأهليهم .. وهو أيضاً نتاج هذه الأعراف .. فمثلاً ديانة الشنتو اليابانية لهى أن تكون يابانياً .. وكلمة الهندوسية تعنى الإنسان الهندى .. إن هذه الديانات القديمة هى فى أصلها أعراف وتقاليد وممارسات فرضتها الطبيعة والمنشأ على أبنائها .. والحرية الجنسية عند القبائل الإفريقية هى جزأ لايتجزأ من هذه العادات والأعراف - وهى بالطبع مقننة، وزعيم القبيلة له من النساء أربعين .. وتبادل الزوجات وتعدد الأزواج أمور معتادة ومعمول بها لدى قبائل إفريقية كثيرة مثل قبيلة الماساى وقبائل الهيمبا فى ناميبيا وقبائل غرب أفريقيا .. وهى أمور عادية ولايشوبها أى حرج بل إنها من صميم الحياة اليومية لهذه القبائل .. ولم تفلح الديانات الإبراهيمية فى تقليم أظافر الإنسان الإفريقى وإقناعه بالإحجام عن هذه الممارسات .. وليس فى هذه التقاليد الإفريقية ماشابه الإسلام من قريب أو بعيد ..

وهو فى الحقيقة أمر يثير الضيق أن يصل الأمر بأستاذى الكبير إلى هذا التحايل الواضح لإثبات أمر لايمكن إثباته ..
ثم يقول: إن الدين لواحد ..
لا واللات والعزى إنه ليس بواحد!!
إن جميع الديانات تكفر بعضها البعض منذ بدء الخليقة - بل إن أبشع الحروب والفظائع فى تاريخ البشرية قامت باسم الدين ..
وهذا التناحر لايقتصر على أبناء الديانات المختلفة بعضهم بعضاً ولكن يمتد إلى أبناء الديانة الواحدة بل والمذهب الواحد ..
إن كل طائفة من البشر لها تفسيرها الخاص الملاكى لديانتها وفكرها ..
وأنا لم أر اختلافاً وتناقضاً كما رأيت فى الديانة المسيحية - بل ويكاد يكون كل مسيحى مسيحية بأكملها ..
وفى إحدى الكنائس بنيروبى رحبت بى راهبتان فى أدب ولطف جم، وقالت إحداهما لتشعرنى بشىء من الترحيب فى هذا المكان مامعناه أن أهلاً وسهلاً بى فى هذه الكنيسة - فنحن كلنا نعبد إله واحد .. أليس كذلك؟ وكان من الممكن أن أكتفى بالتصديق على ماقالته الراهبة المهذبة والإجابة بنعم، إلا أننى قلت: لا، إن المسلمين يعبدون "الله" أما المسيحيون فيعبدون المسيح .. فما كان منها إلا أن ردت مسرعة: كلا .. إننا لانعبد المسيح، إنما المسيح هو ابن الله .. وحدث وقتها ماتوقعته، إذ انبرت أختها الراهبة الأخرى فى سرعة قائلة: بلى - إننا نعبد المسيح ولاشك - إن المسيح هو الله نفسه ..

وتركتهما يتجادلان واكتفيت بالابتسام، فما يحدث الآن أمامى لهو تجسيد لكل خبرتى بالديانة المسيحية .. حيث لااتفاق على أى شىء - حتى على أمر جوهرى كهذا ..
إن الاختلاف على ماهية الإله المسيحى بل واللاهوت المسيحى برمته ليس قاصراً على المذاهب الكنسية على تعددها - وإنما هو على مستوى الكنيسة الواحدة بل والغرفة الواحدة فى نفس الكنيسة حيث جلست هاتان الراهبتان وقد بدتا لى كتوأمتين متطابقتين إلا أنهما وحتى هذه اللحظة لم يتفقا على ماهية الإله الذى يعبدونه ..
كلا ورب الكعبة إن الدين ليس بواحد!!
بل هو متعدد تعدد البشر أنفسهم ..
إن إلهى غير إلهك غير إله مصطفى محمود ..
وكل منا له إلهه الخاص الذى طوره عقله طبقاً لنشأتنا وخبرتنا ومعارفنا ..
إن الدين لايمكن أن يكون واحداً - وإنما حاجة الإنسان للدين والقوى الخارقة واحدة ..
ومن هنا نشأ الدين .. ومن هنا نشأ الخوف .. ومن هنا نشأ التحكم فى خلق الله ..

• • • • •

ويتسائل الملحد: ولماذا تتفاوت رحمة الله؟ ولماذا يشهد الله واحداً على آياته ولايدرى آخر بتلك الآيات إلا سمعاً ..
وتأتى إجابة مصطفى محمود كالآتى: "إن مع نزول المعجزات يأتى دائماً تشديد العذاب لمن يكفر - وطوبى لمن آمن بالسماع دون أن يرى معجزة .. والويل للذين شاهدوا ولم يؤمنوا .."
حسناً ياأستاذى الكبير .. إن هذه الإجابة معناها إنك تقول لى بالعربى: هية كدة .. إن أردت معجزة فهى تأتى ومعها العذاب إن لم تؤمن بعدها ..
وهذا الكلام مصمم لضعاف العقول الذين إذا ما سمعوا ذلك حوقلوا وكبروا وآمنوا خوفاً من التبعات التى تأتى مع المعجزة ..
يعنى بالعربى: إنفد بجلدك أحسن لك .. ولاتسأل عن معجزات ..
وفى الحقيقة لقد أثار مصطفى محمود بإجابته على هذا السؤال عدة نقاط .. نتناولها معاً الواحدة تلو الأخرى ..

النقطة الأولى هى التساؤل المشروع عن حقيقة "الوحى" - وسؤال الصديق الملحد يمكن إعادة صياغته هكذا: أين الدليل العلمى والمنطقى على نزول الوحى؟
إن دليلنا الوحيد ليس سوى محمد نفسه الذى هبط من الجبل مرتعداً وأخبرنا بنزول جبريل عليه .. ولكن عندما تسأل عن الدليل تأتى الإجابة بسرعة: هية كدة - وإلا العذاب .. وطوبى لمن آمن بالسماع دون أن يرى معجزة .. حسناً ..
دعنا إذن نناقش المعجزة ..
إذا نحن عرفنا المعجزة على أنها "أمر لايخضع لقوانين الطبيعة"، فطبقاً لهذا التعريف تصير المعجزة أمراً مستحيل الحدوث .. وذلك سببه أن أى شىء يحدث فى عالمنا لابد وبالضرورة أن يخضع لقوانين الطبيعة .. فكل ماتحويه الطبيعة طبيعى ..
ولذلك فأنا لاأرتاح لمقولة "فوق الطبيعة" أو "خارق للطبيعة" .. ذلك لأن أى شىء يحدث فى عالمنا لابد وبالضرورة أن يكون طبيعياً .. فقد احتوته الطبيعة ..
أما إذا عرفنا المعجزة على أنها "ما يعجز العقل"، إذن فطبقاً لهذا التعريف تصير المعجزة أمراً نسبياً يتفاوت طبقاً لقدرة المشاهد على الإدراك والفهم .. فمثلاً عندما يلقى المشعوذ بورقة فى الماء وإذا بها تحترق لكان ذلك أمراً معجزاً لبسطاء القوم الذين لم ينالوا حظاً من التعليم .. أما بالنسبة لعالم الكيمياء فتفسير ذلك بسيط وهو أمر يمكن تكراره فى المعمل إذا مالففنا تلك الورقة حول قطعة الصوديوم ..
وهكذا انتعش الدجل .. وانتعشت الشعوذة والسحر .. ونالت فيما نالت أساتذة الكيمياء أنفسهم فى بلاد الشرق السعيد .. والذين صاروا هم أيضاً يحوقلون ويكبرون أمام تلك الظواهر الطبيعية شأنهم فى ذلك شأن البسطاء من البشر ..
وأعود إلى ماقلته سابقاً عن الكتكوت المسكين الذى يسقيه المشعوذ شراباً ما صنعه هو من أوراق النباتات .. وبالطبع فإن موت الكتكوت على الفور هو أمر معجز لبسطاء الإفريق فى عصورهم المظلمة - أما إن تابعت تلك الظاهرة بالتحليل العلمى الدقيق ودونت الملاحظات وحللت النبات الذى يستخدمه المشعوذ وكررت التجربة لوصلت إلى النبات السام الذى استخدمه - ولحللت مكوناته وعلمت سبب موت الكتكوت ..

وكما برع المشعوذ الإفريقى فى خداع أبناء القبيلة بدجله وشعوذته، فإن كهنة اليونان فى القرن الأول الميلادى قد تفوقوا على الجميع بجدارة .. فقد شهد البسطاء من عامة الشعب المعجزات تحدث أمام أعينهم فى معابد الإسكندرية واليونان - وكان ذلك مكسباً عظيماً بالطبع للمعبد وكهنته .. ففى تلك الحقبة يحكى المؤرخون أن المصلين إذا ماحضروا للمعبد وقت الصلاة كان عليهم تقديم القرابين أولاً وإلا فإن أبواب المعبد لن تفتح .. ويبدأ رواد المعبد فى تقديم القرابين للكاهن الواقف بالباب ويلقى هو بها فى صندوق النار وينتظر الجميع فتح الأبواب - وبعد أن تشتعل النيران وتأتى على القرابين كلها إذا بأبواب المعبد تفتح فى بطء مهيب من تلقاء نفسها ويدوى النفير فى أنحاء المعبد بلا نافر .. وبالطبع تعم الرهبة والجلالة جمع البسطاء ويدخلون مطأطئين الرؤوس ومؤدين فروض الطاعة ..

وبداخل المعبد وضع صنبور الماء المقدس ويأتى المتعبد ويضع الدراخمة فى فتحة أعلاه وإذا بالماء يتدفق من الصنبور فيشرب المتعبد ويغتسل ويبارك الآلهة ..

وفى ركن استشارة الآلهة يدير المتعبد عجلة خشبية أشبه بعجلة الملاحة وفوق الهيكل عصفور من المعدن، فإذا مادار العصفور وصدح مغنياً فإن معنى ذلك أن الآلهة تبارك السائل وأن عليه أن يمضى فيما انتوى فعله، أما إذا ظل العصفور صامتاً ولم يتحرك فالإجابة هى لا .. ثم إذا ماأتينا إلى مذبح الهيكل لرأينا عجباً، فهنا يقدم المتعبدون القرابين ويلقونها فى النار- وإذا بالهيكل نفسه يدور حول محوره وتصدح العصافير المثبتة فوقه فى مشهد مهيب .. وبالطبع ظلت هذه الظواهر المعجزة مصدر تحكم وسيطرة بل ومصدر ربح لكهنة المعبد - وظل الغوغاء على انسياقهم لعقود طويلة - وهم معذورون فلم يكن حظهم من العلم ليمكنهم من تفسير هذه الظواهر إلا على أنها معجزات إلهية .. ولكن إن عرف السبب بطل العجب .. فليست معجزات الآلهة هى ما حرك المذبح وفتحت أبواب المعبد - وإنما هى معجزة العلم .. والقصة تبدأ مع أحد عباقرة الإغريق وهو المهندس هرون السكندرى - وهو الذى ولد فى الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى ..

وقد برع هرون فى علوم ميكانيكا الاحتراق وهيدروليكا الماء وهو أول من صمم محرك بخارى فى العالم - وقد تبناه كهنة المعبد لأغراضهم الشخصية فصنع لهم ماظهر وكأنه معجزة لأبناء هذا الزمن البسطاء - إلا أن جميع تلك الظواهر لهى تتبع القوانين الطبيعية بل هى من أساسيات علوم الطبيعة ..

فأبواب المعبد تفتح نظراً لأن النار التى تحرق الأضحية تؤدى إلى تسخين قدور الماء المختبأة داخل الصندوق - ويغلى الماء ويتبخر فيمر فى أنابيب متصلة بقدر يقع تحت أبواب المعبد مباشرة - ويمتلىء هذا القدر بالبخار فيتكثف بداخله ويملأه بالماء - فإذا به يهبط بسبب ذلك الثقل ويشد معه أحبال أبواب المعبد فإذا بها تفتح فى بطء مهيب، ويمر الهواء الساخن بعد ذلك فى أنابيب متصلة بنفير المعبد فإذا بها تصدح بلا نافر .. والنتيجة ذهول المتعبدين وخشوعهم لهذه القوى المعجزة ..

أما الماء المقدس فهو أول ماكينة تعمل بالعملات فى العالم - ومخترعها هو السيد هرون السكندرى - فالعملة تسقط على رافعة لايراها المتعبد بالطبع فتهبط لتسمح بقدر محدود من الماء أن ينساب - وما أن شرب المتعبد واغتسل توقف انسياب الماء .. وهكذا، متعبد وراء متعبد، ودراخمة وراء دراخمة، والنتيجة تصب فى قصور الكهنة والملوك ..

والعصافير التى تصدح والهيكل الذى يدور كلها ميكانيكا متصلة بشبكة من التروس لايراها زائر المعبد، وسر عملها لدى الكاهن - ويمكن للكاهن بحركة خفية من يده أن يفصل هذه التروس فلا يتحرك العصفور ولايصدح فتأتى الإجابة بلا - أو أن يعشق التروس فيدور الهيكل وتصدح العصافير ويهلل المتعبدون ..

ومايثير الدهشة هنا هو أن الكهنة قد استخدموا قوانين الطبيعة لدفع الجموع للإيمان بأن هناك ماهو خارق للطبيعة ..

والسر هنا هو العلم ..

وفى لغة أقل مايمكننى أن أصفها هنا هو بالعبقرية - خط نجيب محفوظ رائعته "أولاد حارتنا"، والرواية إسقاط بارع تناول فيه محفوظ قضية الله والأنبياء والأديان .. ويخطىء من يتصور أن نجيب محفوظ لم يكن ذلك مقصده، بل إن بعض مدعى الإسلام والمتزلفين حاولوا نفى تهمة التعرض للأديان عنه - وهذا فى واقع الأمر كذب صريح .. فالإسقاط فى روايته واضح كالشمس - ومن جادل فى ذلك فهو إما جاهل أو منافق ..

وفى روايته تلك يستعرض محفوظ أنبياء الله - بدءاً من آدم ومروراً بموسى وعيسى ووصولاً إلى محمد بالطبع - ويظهر إبليس ويختفى من بين الصفحات .. والرواية فى مجملها هى قصة الأديان .. وتتجلى الحبكة الدرامية فى الرواية بعد أن ننتهى من قراءة قصص جميع الأنبياء .. والبطل هنا هو عرفة ..

العلم ..
ويقفز عرفة فى شغف طالب العلم الدؤوب عابراً سور الحديقة ، ويقتحم القصر القديم الذى يهابه الجميع - وفى ظلام الغرفة المهيب يقف عرفة وجهاً لوجه أمام ذلك المجهول - ذلك الأب المهيمن الجبار .. وإذا به أمام عجوز كهل، واهن لايقدر على شىء .. وينهار ويذوى جبروته أمام عرفة ..
إن عبقرية نجيب محفوظ هنا هو أنه قد تمكن من قراءة ما يحدث عندما يصل العلم إلى مستو يمكنه من اقتحام المجهول - والصعود إلى السماء السابعة وفتح باب الغرفة المظلمة - وتحدى الثوابت والمسلمات ..
يقول ريتشارد دوكينز: إن السؤال: "هل الله موجود" هو سؤال علمى .. فكر معى قليلاً ..

• • • • •

ثم يقول: "ولاشك أن صاحبنا الدكتور القادم من فرنسا قد بلغه من الكتب ثلاثة .. توراة وإنجيل وقرآن وبلغته - فلم تزده هذه الكتب إلا إغراقاً فى الجدل .. وحتى يهرب من الموقف كله أحاله على شخص مجهول فى الغابات لم ينزل عليه كتاب .. وراح يسألنا .. ومابالكم بهذا الرجل الذى لم يصله قرآن ولم ينزل عليه كتاب .. ملتمساً بذلك ثغرة فى العدل الإلهى أو موهماً نفسه بأن المسألة كلها عبث .."
كلا ياأستاذى الكبير .. إن هذه الكتب لم تزد صديقك الملحد إغراقاً فى الجدل .. بل هى نفسها كتب مغرقة فى الجدل .. يرضعها الأطفال لبناً فى حداثتهم ومراهقتهم - وهى إن لم تثر جدلاً فى عقولهم كما أثارت جدلاً فى عقلك أنت ياأستاذى الكبير فذلك سببه أن هناك خطئاً عظيماً فى نشأتهم وبيئتهم التى تزجرهم وتمنعهم من السؤال والتساؤل ..
ثم تعال هنا .. أنت تضع القرآن إلى جوار الإنجيل إلى جوار التوراة وتقول أن الله من فرط حبه لهذا الملحد أرسل إليه تلك الكتب السماوية الثلاثة فلم تزده إلا جدلاً .. وأنت هنا تحاول أن تقنعنا بقدسية وصدق هذه الكتب الثلاثة - أو أى منهم - وكأنك تقول لصديقك الملحد إن أنت آمنت بإحدى هذه الكتب نجوت من العذاب الأليم .. كيف ذلك وهى ديانات لاتعترف ببعضها البعض؟ بل ويحارب أبناؤها بعضهم البعض أفظع الحروب - ليس على مستوى الديانات الثلاث فقط بل وعلى مستوى الدين الواحد نفسه ..

الكاثوليك يحاربون البروتستانت - والسنى يحارب الشيعى - والمسلم يحارب اليهودى - وأنا واخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب ..
كيف تضع هذه الكتب المتناقضة جنباً إلى جنب وتطلب من صديقك الملحد أن يؤمن بأيها؟ إنها عملية استجداء ..
وهل هو إن آمن بالتوراة وصار يهودياً مخلصاً .. دخل الجنة؟
وماذا قلت أنت نفسك فى كتابك "التوراة" عما نالها من تحريف ومادخلها من أقوال البشر!!
وهل هو إن آمن بالمسيحية .. ورث الملكوت؟ أم حقت عليه مقولة رسول الإسلام "من غير دينه فاقتلوه"؟ أو الآية القرآنية التى تقول: "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم"، وكذلك الآية التى تقول "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم"؟
أليس كذلك؟

وأعود إلى المعجزة - والعذاب الذى يأتى مع المشاهدة والإنكار ..
يقول الدكتور مصطفى محمود: "فالقرآن فى يدك حجة عليك ونذير .. ويوم الحساب يصبح نقمة لارحمة .. وعدم إقامة هذه الحجة البينة على الإسكيمو ساكن القطبين قد يكون إعفاءاً وتخفيفاً ورحمة ومغفرة يوم الحساب .. وقد تكون لفتة إلى السماء من هذا الإسكيمو الجاهل ذات ساعة فى عمره عند الله كافية لقبوله مؤمناً مخلصاً" ..
حسناً .. إن هذه الجملة تثير عدة نقاط ..
أولاً الإسكيمو لايسكن القطبين وإنما يسكن القطب الشمالى فقط ..
وثانياً لنا هنا أن نتسائل: كيف عرفت ذلك؟ إنها كلها افتراضات، فـ"قد" يكون الأمر كذلك و"قد" لايكون!
ثالثاً لماذا تقول بأن هذا الإسكيمو جاهل؟ هل صارت عدم المعرفة بالإسلام جهلاً؟ ولماذا لاتطّلع على تاريخ هؤلاء الإسكيمو وتتعرف على دياناتهم وآلهتهم؟ وهل ستسعد إن وصفك أحدهم بالجهل لعدم إلمامك بثقافتهم وعقائدهم؟
أما رابع نقطة هنا فهى بطلان تلك الجملة من أساسها - فإله الإسلام يقول"إن الدين عند الله الإسلام" و "من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه" .. لماذا تغاضيت ياأستاذى الكبير عن هذه الآيات؟

دعنى أخبرك أنا لماذا تغاضيت عنها .. سبب ذلك هو أن ذلك الفكر القبلى القديم لم يعد صالحاً لزمننا هذا - فمثلاً مؤسس الإسلام لم يكن على علم بساكن "القطبين" الذى تحدثنا عنه بدليل أنه فرض صياماً لايتناسب مع طول نهار ذلك الإسكيمو "الجاهل"، وهو الذى يجهل بالطبع أنه إن صام ستة أشهر عن الطعام دخل الجنة! فنحن إذا ماوصلنا إلى الدائرة القطبية لغابت شمس الصيف قبيل منتصف الليل بدقائق ولأشرقت ثانية بعدها بقليل .. والعكس بالطبع فى الشتاء إذ تشرق الشمس قبيل منتصف النهار وتغرب بعدها بدقائق .. إن أهل هذه المناطق لايرون الشمس فى شتائهم الطويل إلا على شكل طيف خافت لدقائق قليلة عند منتصف النهار، والعكس فى أشهر الصيف حيث تسطع الشمس معظم اليوم ولاتغيب إلا لدقائق معدودة عند منتصف الليل، ثم تعود للشروق ثانية بعد قليل ..

كيف تتوقع من ذلك الإسكيمو أن يصوم من الفجر إلى الغروب؟

إلا أنك تحاول هنا ياأستاذى الكبير أن تضم هذه الديانات كلها تحت راية واحدة - هى راية الإسلام - وفى معرض ذلك تنسب "موجابى" و"نيالاك" وباقى آلهة الإفريق وآخرين من آلهة الإسكيمو الذين ينالون حظهم بين حين ومين حينما ينظر الإسكيمو الجاهل إلى السماء - ووضعت كل هؤلاء فى بوتقة واحدة وهى الإسلام ..

وهو أمر لايقبله أى من أبناء هذه المعتقدات ..

ثم إذا بك ياأستاذى الكبير تعود بنا إلى فلسفتك وفلسفة الصوفى ابن عربى حينما تقول: "وعلم الله بنا وبقلوبنا يمتد إلى ما قبل نزولنا فى الأرحام حينما كنا عنده أرواحاً حول عرشه .. فمنا من التف حول نوره ومنا من انصرف عنه مستمتعاً بالملكوت وغافلاً عن جمال خالقه .. فاستحق الرتبة الدنيا من ذلك اليوم وسبق عليه القول .. هذا كلام أهل المشاهدة .."

وهذه هى نفس الفلسفة التى تعرضنا لها سابقاً - فبهذا المنطق يحل مصطفى محمود مشكلتين معاً - الأولى هى التسيير والتخيير - وذلك بقوله أن الله لم يخلق لأحد سره، بل إن سرك ذلك هو نفسك أنت وطويتك ومكنونك منذ الأزل، وكأن نفسك وطويتك ومكنونك هم خارج إرادة الله وليس له عليهم سلطان .. والمعضلة الثانية التى يحلها مصطفى محمود بذكاء هنا هى العذاب فى جهنم بالطبع، وذلك بقوله أن هؤلاء الذين سينتهى بهم المطاف إلى جهنم إنما تلائمهم جهنم فهى أنسب مكان لأنفسهم الشقية العاصية ..!

وهو يؤكد على هذا المعنى حينما يقول: "والذى يسألنى لماذا خلق الله الخنزير خنزيراً .. لاأملك إلا أن أجيبه بأن الله اختار له ثوباً خنزيرياً لأن نفسه خنزيرية وأن خلقه هكذا حق وعدل" ..

أى أن حقارة أو دناءة الكائن تعود إلى نفس ذلك الكائن وطويته ومكنونه وهو ما لادخل للخالق فيه ..! إذ يبدو أن مصطفى محمود اختار الخنزير تحديداً كمثال للحقارة أو الدناءة أو القبح .. أو على الأقل هذا مافهمته أنا من كلامه .. وهذا الكلام أيضاً يعنى أن الإنسان الحقير إنما تنبع حقارته من نفسه وذاته هو، وبالمثل فإن الإنسان الشرير ينبع شره من ذاته هو ولذلك تلائمه جهنم تماماً كما تلائم الخنزير الحياة فى حظيرة الخنازير ..

شىء مؤسف ..

شىء مؤسف أن الدكتور العالم البيولوجى يلقى بكل مبادىء علم الأحياء فى صفيحة النفايات .. ولايحدثنا عن الأسباب الوراثية والبيئية والتطورية التى أدت إلى تشكيل كل كائن إلى أن صار على النحو الذى هو عليه الآن وكيف أن تطور الخنزير بل وكيف تطورت جميع الكائنات الحية وكيف أنهم لازالوا على تطورهم تبعاً للتغيرات البيئية والوراثية دائمة الحدوث - وإنما ألقى بالقضية كلها فى يد كائن وهمى نظر إلى نفس الخنزير الخنزيرية فألبسه ثوباً خنزيرياً ..

لماذا تنفى تهمة خلق الخنزير خنزيراً عن الله؟

ولماذا تنفى تهمة خلق الشرير شريراً عن الله؟

إنك إن قررت أن هناك إله خالق بارىء واحد أحد إذن لصار لزاماً عليك أن تنسب صفة الخلق بأكملها له - ولاتنزعها عنه إذا ماواجهتك مشكلة كهذه - بل يجب أن تفسر لنا لماذا خلق الله الشر، وهو سؤال الباب السابق والذى لم تجب عليه حتى الآن - بل أحلت الشر إلى نفس الإنسان وطويته ومكنونه - أو نفس الخنزير الخنزيرية - والتى هى لم يخلقها الله ..

حسناً ..

إن أنت نفيت عن الخالق إمكانية خلق النفس - لماذا تنسب إليه خلق كل شىء إذن؟

ثم من هم أهل المشاهدة؟

دراويش الحسين؟

ولماذا اختصهم الله بالمشاهدة دون غيرهم؟

● ● ● ● ●

ثم يستشهد مصطفى محمود بالآية القرآنية التى تقول: "وماكنا معذبين حتى نبعث رسولاً" - وإذا به يسأل صديقه الملحد قائلاً : هل أرحت واسترحت؟ ولست متأكداً كيف يمكننى أن أجيب على سؤاله هذا ..

هل أراحتنى الآية السابقة ..؟
لاأعتقد ..
والسبب هو أنك إن قررت أن تنسب صفة التعذيب لذلك الإله الذى تفرضه علينا لجعلته ناقصاً بالضرورة، ولهبطت بقيمته التى تحاول إقناعنا بها وأوصلته إلى رتبة "القبضاى" أو "الفتوة" .. أو لربما ألصقت به تهمة الجنون الرسمى ..
فبعد أن خلق الخلق طبقاً لكلامك إذا به يختبىء وراء حائط من الرصاص السميك لاقبل لنا باختراقه، ثم إذا به يرسل إلينا برسل تخاطبنا بما عطل العقل وعطل المنطق .. وإن هو طلب إلى رسله أن يحثونا على العلم والفكر إذا به يحرقنا إن نحن فعلنا ذلك ..
هذا هو الإله الذى تفرضه علينا وهو إله عجيب الشأن بحق ..

● ● ● ● ●

وأخيراً يقول: "إن أعجب ما فى سؤالك أن ظاهره يوهم بالإيمان والإشفاق على الزنجى المسكين الذى فاته ما فى القرآن من نور ورحمة وهدى .. مع أن حقيقتك هى الكفر بالقرآن وبنوره ورحمته وهداه" ..
لا ياأستاذى الكبير .. إن سؤال صديقك الملحد ليس دافعه الشفقة على الزنجى المسكين بالمرة .. هذا شطح محض .. وإنما هو سؤال فى محله تماماً أمام آيات من كتابك الذى تؤمن به تقول بأن "إن الدين عند الله الإسلام" و "من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه" .. وهو سؤال يتحدى فكرك المتناقض الذى يحيلنا إلى "ربما" و"قد يكون الأمر كذلك" و"قد لايكون" إلى آخر ذلك من المتناقضات ..
إنه سؤال فى محله تماماً ياأستاذى الكبير ..

٥) الجنة والنار

يتسائل الصديق الملحد هنا عن فكرة العذاب الأبدى فى جهنم، ويقول: "ومن نحن وماذا نساوى بالنسبة لعظمة الله حتى ينتقم منا هذا الانتقام .. وما الإنسان إلا ذرة أو هبأة فى الكون وهو بالنسبة لجلال الله أهون من ذلك بكثير؟" .. ويرد مصطفى محمود بقوله أن الإنسان ليس ذرة ولاهبأة فى الكون .. وإن شأننا عند الله ليس هيناً بل عظيماً ..
- ألم ينفخ فينا من روحه؟
- ألم يسجد لنا الملائكة؟
- ألم يعدنا بميراث السماوات والأرض؟

والإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة هى لا ..

إن الديانات الإبراهيمية فقط وبالأخص الديانة الإسلامية تحديداً هى التى تخبرنا عن نفخ الروح فى آدم وسجود الملائكة وميراث السماء والأرض .. أما الديانات الأخرى فتطرح أساطيراً أخرى لعملية الخلق كآلهة المايا الذين خلقوا الإنسان من طين فتفتت ثم من خشب فدمرته الأمطار فقرروا خلقه من الذرة إلى أفعى سكان أستراليا الأصليين والتى خرج البشر من فمها إلى الهنود الحمر الذين تنقلهم أنثى العنكبوت من عالم إلى آخر إلى إله قبيلة اليوروبا بغرب أفريقيا الذى نثر الرمال على صفحة الماء مع مسحوق شجرة الباوباب فصنعت الأرض ثم انكسرت بيضة يحملها فخرج منها طائر يحمل الحياة إلى العالم إلى أن وصلنا إلى الأسطوره اليهودية التى تقول بخلق الإنسان من طين وخروج الأنثى من ضلعه الأعوج ..

ومايفعله مصطفى محمود بقوله ذلك هو أنه يرسخ لقيمة الإنسان ويجعل منه خليفة للإله وأن شأنه عند الله عظيم .. وهو فى الحقيقة فكر وجودى - مع فارق واحد وهو "حشر" الإله فى المنتصف .. فالوجودية كما يقول عباس العقاد تصنع من الكون حذاءاً للإنسان .. ومايفعله مصطفى محمود هنا هو شىء أشبه بذلك - فهو يجعل من تلك الفكرة الوجودية فكرة مقبولة لعموم المسلمين .. فهو هنا يرتكن إلى الله وليس إلى جون بول سارتر ..
والغريب هنا أن مصطفى محمود يبرر ادعاءات الدين بمبررات من داخل نفس الدين!

إنه كمن يسأل عن صحة القرآن فإذا به يستند على الآية التى تقول" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" ..
ويقول أن الإنسان كما يقول الصوفية هو الكتاب الجامع والكون صفحاته .. ياخبر أبيض .. !!
إلى هذا الحد وصل بنا بنى البشر التكبر والخيلاء وتصورنا أنفسنا كتاباً جامعاً للكون .. !!
هل تعلم ماهو الكون؟؟
هل أمكنك استيعاب أبسط حقائق الكون وكيف نشأ وكيف يعمل ومافيه من حياوات؟
إن مانراه من الكون هو مانراه "نحن" من الكون - وإن مانفهمه من الكون هو مانفهمه "نحن" من الكون!
إن كل كائن فى هذه الحياة يتصور أن الكون قد خلق تحديداً له هو، وأن كل مايراه حوله هى أشياء إما أنها أوجدت لمنفعته هو الخاصة من قبل كائن صديق له أو لمضايقته من قبل كائن آخر مزعج لادور له سوى إيقاع الأذى به هو على وجه التحديد .. وليس غيره ..
ويأتى الدين ويخبرنا بأن ذلك الكائن الصديق هو الإله، وأن ذلك الكائن المؤذى هو الشيطان ..
ومن هذا المنطلق فسرنا نحن كل مايحدث لنا فى غمار الحياة ..

● ● ● ● ●

ثم يعود مصطفى محمود ثانية إلى ترسيخ قاعدة أن الشرير مكانه النار، ويعود إلى فلسفة ابن عربى حينما يقول: "إن الرحمة بالنسبة لهؤلاء أنهم سوف يتعودون على النار .. وتصبح تلك النار فى الآباد المؤبدة بيئتهم الملائمة .."
حسناً .. أين التعذيب هنا إذن؟
إن أهل جهنم إن هم اعتادوا على النار لانتفت صفة تعذيبهم بالتبعية ..! أليس كذلك؟
كيف إذن تحدثنى عن إله عادل يقتص من الظالم ثم تقول لى أن ذلك الظالم مصيره أن يتعود على النار؟
وماذا فى تصورك سيكون رد فعل المظلوم حينما يصل إلى علمه أن الإله قد وضع من ظلمه فى مكان يلائمه تماماً وأنه الآن قد تعود على العذاب؟

وفى الحقيقة أنت بكلامك ذلك تبدو لى وكأنك خطوت خطوة قصيرة مترددة نحو ما أعتقد أنا فيه، فأنا لاأعتقد فى ثواب أو عقاب، أو لم أر دليلاً يرجح ذلك .. أما أنت فتفرض علىّ فكرة الثواب والعقاب ثم إذا بك تفاجئنى بقولك أن هذا العقاب ليس فى الحقيقه عقاباً وإنما هو شىء كالمداعبة أو المزاح ثقيل الظل ليس إلا ..!
ألا ترى معى أنك بقولك ذلك إنما تمسك العصا من المنتصف؟

شىء غريب ..

• • • • •

ويستطرد مصطفى محمود قائلاً إننا لاينبغى أن نفهم النار على أنها شواية - وأن الجنة سوق فواكه - وإنما يجب أن نتفهم كل ذلك على أنه إشارات ..
وبالطبع فقد أثار مصطفى محمود هنا غضب الكثير من مشايخ زمنه وألقوا عليه الاتهامات لإنكاره العذاب الحسى وهو بالطبع أمر يهم المشايخ وجوده فى القرآن فهو مايضمن لهم استمرار عملهم كدعاة وملهمين - وكذلك الجنة - فإن أنت أنكرت أنهار العسل واللبن وحور العين فماذا بقى للمشايخ إذن ليدعوك إلى مساجدهم، وهى أيضاً أمور ينتظرونها هم على أحر من الجمر بطبيعة الحال ..

• • • • •

ثم يعود فيقول أن النار هى تطهير وتقويم ورحمة ..!
تقويم ورحمة؟
نحاس مذاب وزقوم وشوك وحرائق تفوق فعل القنابل النووية يصفها مصطفى محمود بأنها أمور من قبل التطهير والرحمة!
أى تطهير ذلك وأى رحمة تلك؟
وماذا عن المخلدين فى النار أبداً؟ متى سيتم تطهيرهم ومتى ستنالهم رحمة الله؟
أم أن رحمة الله ستنالهم وقت أن يعتادوا على النار بعد بضعة ملايين من السنين من الحريق المتواصل؟؟

شىء غريب ..

• • • • •

ويستشهد مصطفى محمود بالآية التى تقول: "ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون"، وهو يفسر العذاب الأدنى بأنه العذاب الدنيوى الذى يسلطه الله على الأشرار فى الدنيا لتنبيههم، فإن لم ينجح ذلك لم يبق إذن سوى العذاب الأبدى الأخروى .. وهو بذلك يقع فى نفس الخطأ الذى تعرضنا له فى الباب السابق - وهو أن نتصور أن الله يعاقبنا فى دنيانا عندما يرسل لنا المرض والزلزال والبركان - وهى الأمور التى يقول عنها مصطفى محمود أنها أمور عارضة .. أى أن العذاب الأدنى هو تلك الأمور العارضة التى يخبرنا مصطفى محمود أنها الاستثناء .. ولنا هنا إذن أن نتصور بالتبعية أن أى خير يصيب الإنسان فهو جنة مصغرة أيضاً .. أليس كذلك؟
فهل معنى ذلك إذن أن مانراه فى العالم الآن هو عقاب الإله لأطفال العراق وأفغانستان والصومال على ذنوبهم ومكافأة أبناء اليابان والأمريكان على حسن إيمانهم ..؟

ثم يتسأل مصطفى محمود: "أيكون الله أكثر عدلاً فى نظره لو أنه ساوى بين الظالمين والمظلومين وبين السفاحين وضحاياهم فيقدم للكل حفلة شاى فى الآخرة" .. والقضية ياعزيزى الدكتور هى أن الله ليس أكثر عدلاً ولاأقل عدلاً - ولاهو موجود أصلاً - وإنما على هذا النحو كان كوننا الذى نعيش فيه .. وكما يقول ريتشارد دوكينز إن أصعب درس على الإنسان هو أن يكتشف أنه بمفرده فى هذا العالم - لاعقاب لمن ظلمه ولامكافأة لمن أنصفه - وإنما كون بارد صخرى غير عابىء بصالح أو بطالح - أو قاتل أو مقتول - أو ظالم أو مظلوم ..
إن أصعب درس على الإنسان هو أن يقبل أن على هذا النحو كان هذا الكون - للأسف ..
لذلك اخترع الإنسان ديناً - واخترع إلهاً ينصفه ويقصف رقبة من ظلمه - ويكافئه بعذارى وحوريات مغريات، وخمر ذات جودة عالية لاتصيبه بصداع - إلى آخر ذلك من أوهام العربان الأجلاف وهم الذين نظروا حولهم فوجدوا صحراءاً قاحلة لاترحم - فكان لزاماً عليهم أن يخلقوا لأنفسهم عالماً آخراً بعد عالمهم هذا - فيه ظل وفير - وماء كثير - ونساء بيض يرى مخ أرجلهن من البياض حسب قول نبى الإسلام "على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقها من وراء لحومها وحللها كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء" - وقول إلهه إذ يقول: "وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون"..

وماذا إن أحب أحدهم السمراوات دون الشقراوات - هل ستجيب له طلبه أيضاً أم أن جميع الحور ينتمون إلى السلالة القوقازية البيضاء؟
إن الخير والشر ياأستاذى الكبير أمور نسبية .. نعم سأتفق معك أن هناك ظالم ومظلوم، وصالح وطالح، ومذنب وبرىء .. ولكن دعنى أسألك: هل القتل خير أم شر؟
لاشك أن قتل الأبرياء شر .. ولكن ماذا إن طلب هذا البرىء من طبيبه أن ينهى حياته نظراً لإصابته بمرض عضال لاشفاء منه ولاخلاص من الألم الذى يسببه له كل يوم وليلة؟
هذه هى الأسئلة الصعبة التى ليست لها إجابات قاطعة، وهى الأسئلة التى يتداولها الحكماء والفلاسفة والعلماء والأطباء كل يوم، وليست هناك إجابة واحدة ترضى الجميع .. أنا هنا أتحدث عن "القتل الرحيم" أو مايعرف بالـ "Euthanasia" .. هل بإمكانك أن تخبرنا إن كان ذلك خيراً أم شراً؟
ودعنى أخطو خطوة أخرى معك هنا وأسألك، هل إعدام القاتل خير أم شر؟
لاشك أنك ستجيبنى بأنه خير، ولكن دعنى أسألك، ألا ترى معى أنك بقتلك لإنسان آخر تكون قد فعلت تماماً ماتحاول منعه من الحدوث؟ ألا ترى معى أنك أيضاً فعلت نفس فعلة هذا القاتل؟
أنت ولاشك تؤمن بأن من قتل يقتل - حسناً، سوف أضع فى يدك المسدس وأطلب منك أن تصوبه إلى رأس ذلك القاتل وتضغط على الزناد .. هل ستفعل ذلك؟
هذه هى الأسئلة الصعبة التى يناقشها علماء القانون والطب والمجتمع والفلسفة كل يوم، وما من صواب مطلق أو خطأ مطلق فى هذه الأمور ..
إن السادات العربى المسلم قتله عربى مسلم آخر يعترض على مبادرته للسلام مع إسرائيل، وإسحق رابين اليهودى الصهيونى قتله يهودى صهيونى آخر يعترض على مبادرته للسلام مع العرب .. وهكذا اتفق المتطرف المسلم والمتطرف اليهودى على نفس الشىء رغم أنهما طرفى نقيض!
من المحق هنا ومن المخطىء؟
أين الخير هنا وأين الشر؟ وأين الخطأ وأين الصواب؟
إن هذه الأمور لاتتبع المنطق الجائر الذى يقول بخطأ مطلق أو صواب مطلق .. أو أبيض وأسود ..
أو جنة أونار .. ياأستاذى الكبير..

● ● ● ● ●

وفى النهاية يبدو أن مصطفى محمود قد أصابه بعض التعب من محاولته لنفى تهمة التعذيب عن الله - فإذا به يقر أخيراً بها فى آخر سطر فى هذا

الباب حيث يقول: "وللذين يستبعدون عن الله أن يعذب نقول: ألا يعذبنا الله بالفعل فى دنيانا؟ وماذا تكون الشيخوخة والمرض والسرطان إلا العذاب بعينه .. ومن خالق الميكروب؟ أليست جميعها إنذارات بأننا أمام إله يمكن أن يعذب؟"
وهنا يبدو لى أن الدكتور مصطفى محمود بعد أن قرأ آيات الرحمة واستنفدها جميعاً فى محاولة درء تهمة التعذيب عن إله الإسلام - وصل أخيراً بقرائته إلى آيات التعذيب والترهيب والحرق والسحل - فكان لابد له إذن أن يقبلها ويتعرض لها فى كتابه ..
ثم ماهو الميكروب؟ أليس الميكروب أيضاً كائناً حياً شأنه شأن أى كائن حى آخر له مايفترسه ويقضى عليه من ذات جنسه؟ إن القول بميكروب تم تصميمه خصيصاً لتعذيب البشر أو بغية اتعاظهم هو قول لا يليق بقامة علمية كبيرة مثل الدكتور مصطفى محمود .. إن هذه الميكروبات نفسها تصيب الحيوان والنبات والحشرات بل وميكروبات أخرى من ذات جنسها .. إن البكتريا المسببة لأمراض الإنسان والحيوان والنبات هى أول أنماط الكائنات الحية التى نشأت على الأرض .. وعبر ملايين السنين تطورت هذه البكتريا لتتطفل على الكائنات الأخرى بما فيها أنواع أخرى من البكتريا ..!
وأنت حينما تقول أن الشيخوخة والمرض والسرطان هى إنذارات بأننا أمام إله يمكن أن يعذب، فهل ينسحب ذلك أيضاً على النباتات والحيوانات وجميع صنوف الكائنات الحية الأخرى التى عاشت على الأرض وشاخت ومرضت وأمرضت بعضها البعض وماتت لثلاثة مليارات عام قبل ظهور الإنسان؟ هل أراد الله أن يظهر لهذه الكائنات أيضاً قدرته الباهرة على التعذيب والإيلام وإيقاع الأذى بمخلوقاته وماصنعت يداه ..
وهل اتعظت هذه المخلوقات ..؟

إن أى كائن حى فى هذا الوجود له مايفترسه ويمرضه ويتطفل عليه .. إن على هذا النحو كان كوننا ذلك الذى نعيش فيه ..

ولازلنا نتسائل - ألا يهبط التعذيب بإلهك الذى تدعونا إليه إلى رتبة البلطجى؟ وألا يجعل ذلك منه كائناً ناقصاً محتاجاً سادياً؟

إن السؤال لايزال قائماً ياأستاذى الكبير ..

٦) هل الدين أفيون

ويتسائل الملحد: "وما رأيك فى الذين يقولون إن الدين أفيون وإنه يخدر الفقراء والمظلومين لينامواعلى ظلمهم وفقرهم ويحلموا بالجنة وحور العين فى حين يثبت الأغنياء على غناهم؟ وما رأيك فى الذين يقولون إن الدين لم ينزل من عند الله وإنما طلع من الأرض من الظروف والدواعى الاجتماعية ليكون سلاحاً لطبقة على طبقة؟"
ويرد مصطفى محمود قائلاً: "ليس أبعد من الخطأ القائل بأن الدين أفيون .. فالدين فى حقيقته أعباء وتكاليف وتبعات وليس تخفيفاً وتحللاً .. وديننا عمل وليس كسل .. وصحو وانتباه ويقظة ومحاسبة للنفس ومراقبة للضمير فى كل فعل .."
حسناً ..
قد يكون الدين الإسلامى كذلك بالفعل - وأنا ليست عندى مشكلة فى ذلك بل هو أمر حسن وحميد ..
إلا أننى لازلت أرى أن الدين هو بالفعل أفيون فعال .. والسبب هو جموع البسطاء الذين يركنون إلى تفسير مايحدث لهم من ظلم ومغبة على إنها امتحان أو ابتلاء - والحل هو الصلاة والتهدج والدعاء والبكاء - وهم إن لم ينالوا حظاً من هذه الحياة فلابأس فهناك حياة أخرى بهيجة فى انتظارهم بعد مماتهم ..
هذا هو الأفيون ..
وهو ماطرحته أنت نفسك ياأستاذى الكبير فى روايتك التى اخترت "الأفيون" عنواناً لها - حيث ألبست الدين حلة الدراويش المهابيل .. وألبست الغوغاء حلة العاجزين المنساقين - وأتيت بـ"أهل العلم اللدنى" و"أهل المشاهدة" و"أهل الكشف" ومسحت بهم الأرض ..
ماذا حدث ياأستاذى الكبير؟
ماذا حدث لرصانتك وتمردك على الدروشة والهطل وشغل المجاذيب؟
هل هى مسألة "أكل عيش" ..؟
هل تنبأت بصحوة إسلامية قادمة أو لربما "غفوة" إسلامية قادمة مع مطلع السبعينات فإذا بك تنبذ كل ذلك الفكر الرصين وتركب الموجة؟ أو لربما تزعمتها؟
ماذا حدث لتفكيرك السليم طوال الخمسينات والستينات؟ وماهو سبب ذلك التحول غير المنطقى؟

رحمك الله ياأستاذى الكبير .. فليست هناك وسيلة الآن للإجابة على هذا السؤال ..

• • • • •

ثم يقول: "إنما آكل الأفيون الحقيقى هو المادى الذى ينكر الدين هرباً من تبعاته ومسئولياته، ويتصور أن لحظته ملكه وأنه لاحسيب ولا رقيب ولا بعث بعد الموت .. فيفعل ما يخطر على باله .."
لاياسيدى الفاضل - إن ماتسميه بالـ"مادى" الذى ينكر الدين هو إنسان أعمل عقله مرة ومرات ثم أوصله تفكيره المنطقى إلى نبذ الفكر الدينى غير المنطقى .. فالذى يرفض أن ينساق كما تنساق الغوغاء هو مفكر حر - وهو لايهرب من تبعات الدين وفرائضه - ولى هنا أن أقول أنه من الخطأ أن نتصور أن انعدام الأخلاق هو نتيجة تلقائية لعدم اتباع الدين .. هذا كلام خاطىء تماماً - إن اعتناق أى فكر لمجرد أنه يمَكنك من فعل ماتريد دون رقيب أو حسيب فإن ذلك الفكر برىء منك .. بل ولى أن أقول أن الإلحاد ليس فكراً أو ديناً يهرع إليه الإنسان كى يعتق نفسه من عبودية الدين وتكاليفه .. لا وألف لا .. هذا فكر أبعد مايكون عن الصواب - إن الإنسان عندما يفكر مرة ومرات ويرهق نفسه وعقله فى فهم هذا الكون وكيف يعمل وفى فهم الدين ومنبعه وكيف نشأ وكيف تجرى الأمور فإنه لايفعل ذلك كى يتحرر من قيود الدين وليفعل مايحلو له، وإنما هو يفعل ذلك للوصول إلى الحقيقة - لذلك فهو يرفض كل ماينافى المنطق ويقبل كل مايحترم العقل والفكر ..
ومن الخطأ أيضاً أن نتصور أن الدين مصدر الأخلاق .. أو المصدر الوحيد للأخلاق .. وإلا كان من الأخلاق أن نغير على القرى الآمنة ونروع أهلها ونقتل أطفالها ونسبى نسائها باسم الدين - أو أن نتاجر فى أسرى الحرب والعبيد والجوارى ونبيع النساء ونشتريها ونتفحصها تماماً كالسلع التى تباع وتشترى أو ترفض لعدم صلاحيتها ..
لقد خطت البشرية خطاً واسعة نحو التقدم والرقى الأخلاقى ونبذ مثل هذه الأمور، وهى أمور كانت مقبولة ومعمول بها فى عصور بائدة - أمور كالرق، وسبى النساء وبيعها - وتقديم القرابين البشرية للآلهة وحرق الأرملة مع زوجها المتوفى، وزواج القصر - وحرق العلماء والمفكرين والمتهمين بالسحر والشعوذة على الصلبان - والعقوبات الجسدية كالجلد وتقطيع الأطراف والتعذيب وخلافه - وهى أمور تزخر بها الديانات على تنوعها - فكما قلنا سابقاً أن الدين هو نتاج ثقافة جماعات البشر على اختلافها .. لذلك كان حرق الأرملة مع زوجها المتوفى أمراً مقبولاً لدى الهندوس - وكان

ولازال قطع يد المتهم بالسرقة أمراً مقبولاً لدى المسلمين - وحرق المهرطقين كان مقبولاً لدى المسيحيين - وإلقاء فتاة حية فى النيل أمر مقبول لدى المصريين القدماء - ودفن شابة حية لإرضاء الآلهة أمر مقبول لدى المايا .. وكلها انتهاكات صارخة لأبسط حقوق الإنسان - وهى حقوق لم يعرفها أجدادنا فى أزمنتهم الغابرة وكان لزاماً على البشرية أن تعانى لقرون طوال قبل أن تتمكن من التخلص من كل تلك الأثقال البالية - ولذلك فإن المفكر الحر لابد وأن يقدر أهمية الأخلاق فى المجتمع - ونحن إن ركنا إلى أخلاقيات العصور المظلمة لظللنا على تخلفنا تماماً كما هو الحال الآن فى أرض الإسلام .. إنما المفكر الحر يدعو إلى أخلاقيات وضعية تتم مناقشتها بترو ودراسة وعمل متأن لامجال فيه للتهاون أو الإهمال، وليست أخلاقيات عقائدية أو "دوجما" لاسبيل لمناقشتها ..

وإن كان الإسلام دين عمل وسعى واجتهاد وخلافه كما تقول، ماهو إذن سبب الخيبة الثقيلة التى لازالت تتعثر فيها بلاد المسلمين؟

وواقع الأمرأننا إذا ماجئنا للإسلام تحديداً لواجهتنا إشكالية غاية فى التعقيد، ذلك أن الإسلام فى حقيقته وأصله دين فى غاية الشراسة والخطورة - وهو دين يحض على قتل النفس وقتل الآخرين - وهو ماانتبه له كثير من الشباب فى مجتمعاتنا الإسلامية مؤخراً - ليس فقط لأنهم قرأوا وتبحروا فى علوم ذلك الدين بل وقرروا أن يتعاملوا مع ذلك الفكر بحياد تام - وأن ينظروا إليه نظرة علمية مجردة بعيداً عن أى خوف أو تحيز - وهو مالايفعله أصحاب العمائم من المقتاتين بالدين بطبيعة الحال ..!

● ● ● ● ●

ثم يقول مصطفى محمود أن الإسلام قد جاء ثورة على الأغنياء والكانزين المال والمستغلين الظالمين، وأمر ألا يكون المال بين الأغنياء يحتكرونه ويتداولونه بينهم وإنما يكون حقاً للكل .. ويقول أيضاً أن هذا التفاوت فى الرزق والدرجات والرتب الإقتصادية فتنة وامتحان لكى يرى الله ماذا سيفعل الغنى بغناه .. هل سيسرق ويطغى أم سيعطف ويحسن ..

حسناً - إن هذه الكلام يحتم علينا أن نتسائل كالآتى:

١) لماذا يرسل الله نبياً ليقوم بثورة على الأغنياء ويشن الحروب عليهم وينتصر حيناً وينهزم حيناً ويؤمن به البعض ولايؤمن به آخرون؟ لماذا لايشق الأرض لتبتلع هؤلاء الأغنياء كما فعل مع قارون وننتهى من الأمر برمته؟

٢) لماذا لايزال هناك أغنياء ومستغلين وظالمين حتى بعد أن أرسل خالق هذا الكون نبياً ليقوم بثورة عليهم؟ هل معنى ذلك أن مراد الله لم يتحقق بالكلية؟
٣) لماذا يرسل الله نبياً ليقوم بثورة على الأغنياء بعد أن أغناهم هو نفسه؟
٤) ماهو مراد الإله من اختبار من خلقهم؟ إن الاختبار أو الامتحان معناه أن المختبر أو الممتحن لايعرف الإجابة أو النتيجة، فنحن نصنع المجهر وندخل المختبر ونجرى التجارب لنتعلم كيف تعمل الطبيعة، أما ذلك الكائن الخارق للطبيعة الذى تفرضه علينا، كيف له أن يجرى اختباراً وهو يعلم كل شىء؟ وبالطبع سيخرج علينا أحد الأذكياء قائلاً أن الله لايختبر ليعلم وإنما يختبر ليظهر ..
يظهر لمن؟
لنفسه؟ أم لمخلوقاته؟
إن كان يسأل ليظهر لنفسه فذلك ادعاء غريب إذ أنك تخبرنى بأنه بكل شىء عليم ..! وإن كان يختبر ليظهر لمخلوقاته فلماذا يحتاجهم كشهود؟ ألا تخبرنى أنت أيضاً بأنه على كل شىء شهيد؟

سؤال مفتوح لمن كان على علم بالإجابة ..

● ● ● ● ●

ثم يتناول مصطفى محمود قضية الطبقية وكيف أن الله قد فضل بعضنا على بعض درجات وهو مايستخدمه الماركسيون فى إثبات أن الدين لم ينزل من عند الله ولكن نبع من الدواعى الاجتماعية ليكون سلاحاً لطبقة على أخرى .. ويقرع مصطفى محمود هذه الحجة بقوله أن التفاوت هو سنة الحياة - وأن غنى الطبيعة وخصبها لايظهر إلا بالتنويع فى ثمارها وغلاتها والتفاوت فى ألوانها وأصنافها ..
كلام جميل، وهو أيضاً كلام صحيح .. فالناس مختلفون - وهم درجات بالفعل .. إلا أن المشكلة تكمن فيما يقوله بعد ذلك، إذ أنه ينسب ذلك التفاوت إلى الله، ويقول "والطبيعة تقوم كلها على أساس التفاضل والتفاوت والتنوع فى ثمار الأرض وفى البهائم وفى الناس .. فى القطن نجد طويل التيلة وقصير التيلة .. وفى الحيوان والإنسان نجد الرتب والدرجات والتفاوت أكثر .. هذا هو قانون الوجود كله .. التفاضل" .. ويقول أيضاً "إن هذا التفاوت فتنة

وامتحان .. سوف نرى ماذا يفعل القوى بقوته، هل ينجد بها الضعفاء أو يضرب ويقتل ويكون جباراً فى الأرض؟"
والتنوع ياسيدى الفاضل ليس الحكمة منه أن يثرى الله الطبيعة أو أن يمتحن الغنى والقادر - ولاهو له حكمة أصلاً - إنما القضية هنا هى صراع البقاء ..
إن صراع البقاء هو الذى أدى بالفهد لأن يطور جسماً مرناً فائق السرعة وبالغزال أن يطور نفس الشيء ليتحاشى الوقوع فريسة للفهد - والغزال إن غفل للحظة لانتهت حياته بين براثن الوحش - والفهد إن تخاذل عن المطاردة والاقتناص لمات جوعاً ..
هل تقول لى إذن أن الله خلق الفهد على شاكلته تلك تحديداً لينقض على الغزال ويلتهمه؟ وهل خلق الغزال على هذا الشكل تحديداً كى يهرب من الفهد؟
هل تقول لى أن الله قد صمم الميكروب ليقتلنا ثم صمم جهازنا المناعى ليقتل نفس ذلك الميكروب؟
وماهى الحكمة فى كل ذلك؟
أليس هذا هو التنوع الذى تتحدث عنه يادكتور؟

ثم يقول: "وحينما كان المسلمون يأتمرون بهذه الآيات حقاً كان هناك تقدم وكانت هناك دولة من المحيط إلى الخليج .. ولم يتقدم الغرب بالإلحاد بل بالعلم .. وإنما وقع الخلط مما حدث فى العصور الوسطى من طغيان الكنيسة ومحاكم التفتيش وحجرها على العلم والعلماء وما حدث من سجن جاليليو وحرق جيوردانو برونو .. حينما حكمت الكنيسة وانحرف بها البابوات عن أهدافها النبيلة فكانت عنصر تأخر .."
وكلام مصطفى محمود هنا صحيح إلا أنه يشوبه شيء من الخلط .. فلا التخلف ولا التقدم لهما علاقة مباشرة بالدين - وإنما القضية هنا هى العمل - العمل الجاد المخلص المثابر، وليس الصلاة والتضرع والبكاء .. وصحيح أن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن تخلصت من سلطة الكنيسة والبابوية - إلا أن الأسباب الحقيقية لتقدم أوروبا تعود إلى أن هناك شيئاً مميزاً فى الشخصية الأوروبية - هذا الشيء هو تقديس العمل .. والرغبة الدائمة فى تحسين الواقع، أضف إلى ذلك روح المغامرة والأخذ بالأسباب والتفكير المنهجى وإعمال المنطق فى الأمور .. ولهذه الأسباب تقلص دور الدين فى الغرب وخرج من المشترك الاجتماعى كما يقول الدكتور سيد القمنى - وهو الذى يدعو إلى تحجيم دور الدين فى المجتمع واقتصاره على العبادات دون

المعاملات .. وهى بالطبع دعوة محمودة، إلا أننى لاأتوقع تقدم الشرق قريباً - فالدين فى مجتمعاتنا الشرقية ضرورة لافكاك منها - ولازلنا ننتظر الحلول من السماء ..

٧) وحكاية الإسلام مع المرأة

السؤال هذه المرة عن موقف الإسلام من المرأة - ويعدد الملحد أموراً مثل تعدد الزوجات، والحجاب، والهجر فى المضاجع وملك اليمين الخ .. ويرد عليه مصطفى محمود بأن الإسلام، على عكس مايقول، قد كرم المرأة أيما تكريم وأعطاها حقوقاً لاتحصل عليها المرأة فى أوروبا ..
وأنا فى الحقيقة لاشأن لى بذلك ولايعنينى موقف الإسلام من المرأة كثيراً .. وربما كان مصطفى محمود محقاً فى كلامه ذلك على الرغم من أن حال النساء فى بلاد المسلمين لايسر عدو ولاحبيب - وهذه ليست قضيتى فى هذا الكتاب .. إلا أن الدكتور مصطفى محمود فى معرض حديثه فى هذا الباب أثار نقاطاً مضللة للغاية رأيت لزاماً علىّ ألا أتركها دون تعليق ..
النقطة الأولى هى تبرير الدكتور مصطفى محمود للحجاب بأن الممنوع مرغوب وأن ستر مواطن الفتنة يزيدها جاذبية .. ويقول أنه لاشك أنه من صالح المرأة أن تكون مرغوبة أكثر وألا تتحول إلى شىء عادى لايثير ..
وهنا أعتقد أن الدكتور مصطفى محمود قد جانبه الصواب تماماً .. فالغرض من تغطية المرأة ليس هو زيادة جاذبيتها بل على النقيض من ذلك تماماً .. إن الحجاب والنقاب أمور بدوية صحراوية تعود إلى ماقبل الإسلام بمئات السنين - فكان النقاب فرضاً من الرجال على النساء الأحرار بينما كان مطلوباً من العبدة أن تظهر وجهها - بل إن عورة الأمة فى الإسلام هى من السرة إلى الركبة - والسبب فى ذلك بسيط وهو أن العبيد قد تم اصطيادهم من زنجبار وشرق إفريقيا حيث تعيش قبائل الميجيكندا، وهذا هو رداء النساء فيها - إذ يكفى لنساء هذه القبائل أن يغطين من السرة إلى الركبة وكان ذلك أمراً ليس فيه أية غرابة .. فسمح رجال العرب لنساء العبيد بذلك، بالطبع، وإذا ماتحررت العبدة كان عليها أن تتغطى تماماً كباقى النساء .. بل إن عمر بن الخطاب كان إذا رأى أمة تغطى وجهها ضربها وقال "أتتشبهين بالحرائر؟" .. أما أن تقول لى أن الغرض من هذه التغطية هو لجعل المرأة مرغوبة أكثر فهو شطح محض، وهو فى الحقيقة كلام لايسعنى إلا أن أصفه بأنه يرقى لمرتبة التهريج .. فتاريخ الإسلام كله لايعنى بشىء كما يعنى بتغطية المرأة .. ليس فقط فى القرآن بل وكثير من الأحاديث مثل "المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وإنها لاتكون أقرب إلى الله منها فى قعر بيتها" و"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدخل حليلته الحمام" و"الحمام حرام على نساء أمتى" .. ليس فقط لأن النساء ينكشفن فى الحمام على بعضهن ولكن لأنه أيضاً يبيض وجه المرأة وهذا غير مرغوب فيه!

فالأصل فى المرأة الستر كما تخبرنا كتب الفقه، وفى الإسلام أن المرأة إن خرجت من بيتها كان عليها أن تتغطى ولاتظهر إلا عيناً واحدة واختلف علماء المسلمين أى عين تظهر وأى تخفى، فهناك من قال تخفى اليسار وتظهر اليمين مثل الطبرى (تفسير الطبرى) ومنهم من قال بإظهار اليسار وإخفاء اليمين مثل العز بن عبد السلام (تفسير العز) .. إلى آخر ذلك من مهازل ..

النقطة الثانية والتى لاأعلم كيف توصل لها عقل الدكتور الكبير هو مايقول عن ضرب النساء .. هنا يقول الدكتور: "والضرب والهجر فى المضاجع من معجزات القرآن فى فهم النشوز .. وهو يتفق مع أحدث ماوصل إليه علم النفس العصرى فى فهم المسلك المرضى للمرأة .. وكما تعلم يقسم علم النفس هذا المسلك المرضى إلى نوعين: "المسلك الخضوعى" وهو مايسمى فى الإصطلاح العلمى "ماسوشزم - masochism" وهو تلك الحالة المرضية التى تلتذ فيها المرأة بأن تضرب وتعذب وتكون الطرف الخاضع .. والنوع الثانى هو: "المسلك التحكمى" وهو مايسمى فى الإصطلاح العلمى "سادزم - sadism" وهو تلك الحالة المرضية التى تلتذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط وتوقع الأذى بالغير .. ومثل هذه المرأة لاحل لها سوى انتزاع شوكتها وكسر سلاحها الذى تتحكم به - وسلاح المرأة أنوثتها - وذلك بهجرها فى المضجع فلا يعود لها سلاح تتحكم به .. أما المرأة الأخرى التى لاتجد لذتها إلا فى الخضوع والضرب فإن الضرب لها علاج ومن هنا كانت كلمة القرآن: (واهجروهن فى المضاجع واضربوهن) إعجازاً علمياً وتلخيصاً فى كلمتين لكل ماأتى به علم النفس فى مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها .."
وهذا هو الخرف بعينه .. وعلى أصوله ..
إن المسلك الخضوعى والمسلك السادى هى أمور شاذة مرضية تكون فى الرجال والنساء على حد سواء - وليست قاصرة على الجنس الأنثوى فقط .. وتمشياً مع منطق الدكتور مصطفى محمود هنا فإن القرآن إذن لابد عليه أن يتعامل مع الرجال الخضوعيين أيضاً - إذ أنه لزاماً علينا هنا أن نتبع قاعدة القياس الفقهية - وبالقياس على ذلك فإن للزوجة أيضاً أن تضرب زوجها الخضوعى تماماً كما للرجل أن يضرب زوجته الخضوعية - وأن يسامح زوجته السادية إن ما ضربته ..!
إلا أن واقع الأمر ليس كذلك بالمرة - وإنما تحدث محمد بمفاهيم عصره وبما كان مقبولاً بل ومتوقعاً من الرجال فى ذلك الوقت - فضرب النساء أمر

معتاد فى هذه المجتمعات القبلية القديمة بل ولازال متبعاً فى كثير من المجتمعات المتخلفة - ولاشأن لهذا الكلام بالماشوسية والسادية وهى أمور لاأعتقد أن محمد كان على علم بها أو كان يقصدها عندما تحدث بهذه الآيات .. وأنا لاأرى فى هذه الآيات أية إشارة للمسلك الخضوعى أو السادى على الإطلاق ..
أضف إلى ذلك أن علاج السادية ليس بالاستسلام للضرب وعلاج الماشوسية ليس بضرب الرجل أو المرأة الخضوعية - بل على العكس - إن العلاج هنا هو منع ذلك عن المريض - وعدم إعطائه مايريد ..

وأخيراً يستشهد مصطفى محمود بالحديث القائل "حبب إلى من دنياكم النساء والطِيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة" .. ويقول أن ذكر النساء مع الطيب والعطر والصلاة هو غاية الإعزاز ..
أما أنا فرأيى الشخصى أن ذكر النساء مع الطيب على هذا النحو يجعل من المرأة سلعة شأنها شأن زجاجة العطر ..
وقد أكون مخطئاً .. ولكننى لاأرى كيف يكون ذكر النساء مع الطيب هو من قبيل الإعزاز والاعتزاز - ففى اعتقادى أن بعض أسباب عدم انتشار الإسلام فى البلاد الأوروبية هو مثل تلك الأفكار البالية .. أو بأن تواجه الغرب بآيات مثل "نساؤكم حرث لكم" وهى على ماأعتقد أفكار لم تعد مقبولة فى القرن الواحد والعشرين ..

سامحنى ياأستاذى الكبير - فلقد عشقتك وعشقت كلامك لسنوات عديدة - إلا أن الوقت قد حان لكى أعمل عقلى أنا فى التفكير - وألا استسلم لما تعارض مع المنطق السليم ..
ولازال الحوار مفتوحاً - وقد أكون مخطئاً - ولسوف يسعدنى أن استمع لكل وجهات النظر ..

٨) الروح

يتسائل الصديق الملحد هذه المرة عن الروح - والبعث - وفكرة تحضير الأرواح ..
ويقول الدكتور مصطفى محمود - بعد برهة تفكير - أن أول المؤشرات التى تدل على وجود الروح هى أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة، طبيعة خارجية مشهودة هى جسده وطبيعة أخرى مخالفة لذلك فى داخله تتصف بالسكون واللازمان واللامكان والديمومة هى العقل بمعاييره الثابتة والضمير بأحكامه والحس الجمالى، والـ"أنا" التى تحمل كل تلك الصفات هى الذات العميقة المطلقة، وعن طريق هذه الذات يشعر الإنسان بالحضور والكينونة والمثول فى العالم، وهو شعور ثابت ممتد لايتغير وليس فيه ماض وحاضر ومستقبل، وهو نوع آخر من الوجود لايتصف بصفات المادة ولا يتحيز فى المكان أو يتزمن بالزمان ولا يقبل الوزن والقياس .. ويقول مصطفى محمود أن هذا الوجود هو الثابت الذى نقيس به المتغيرات والمطلق الذى نعرف به كل ما هو نسبى فى عالم المادة .. وأصدق ما نصف به هذا الوجود أنه روحى وأن طبيعته روحية .. وكما أن كثير من أعضاء الإنسان يمكن فكها وتركيب بدائل لها كطقم الأسنان والعين الصناعية والساق الخشبية، إلا أن الإنسان نفسه ليس هذه الأعضاء وإنما ماحرك هذه الأعضاء ..
كلام جميل ..
وبالنسبة لى كمفكر حر فأنا ليست لدى مشكلة فى الإقرار بأن هناك دائماً شىء لانعرفه - إلا أننى لاأتوقف هنا لألقى بالقضية إلى قوة عليا أو أمر غيبى لامنال له، وأنما أعمل على فهم المزيد ..
إن مانعرفه محدود، ومالانعرفه ليس له حدود .. إلا أن ذلك ليس سبباً لكى نتوقف عن العمل ومحاولة الفهم - ولك أن تتخيل معى حال البشرية إن قرر الإنسان الأول ألا يعمل ذهنه فى محاولة فهم كيفية عمل الأشياء .. بالطبع لما كان هناك تطور ولاتقدم ولظللنا نسكن فروع الأشجار ..
وأنا ليست لدى مشكلة فى القول بأن العلم على تطوره لم يصل بعد لفهم جميع أسرار الحياة وسبر أغوار تلك الطاقة التى تحرك الأشياء على تنوعها - حية كانت أم جماداً .. أو على وجه التحديد، إن العلم لم يصل بعد لفهم كيف ومن أين نشأت قوانين الطبيعة التى بمقتضاها تعمل الأشياء .. ولازالت تلك الطاقة الكونية التى تحرك الأشياء لغزاً - وهى ماحرك الإلكترون فى مساره والكوكب فى مداره .. والإنسان فى دربه والطائر فى سربه - وهى لغز كلما عمدت إلى التقرب منه ازداد بعداً .. إنها كقضية اللانهاية -

واللانهاية لايمكن تعريفها فإن عرفتها حددتها ووضعتها فى قالب - إنها كقول على بن أبى طالب "من وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن قال (فيم) فقد ضمنه، ومن قال (علام) فقد أخلى منه"..

إنه هنا يتحدث عن اللانهاية .. ويسميها بالله ..

وأعود فأقول أن صعوبة أى أمر لاتزيد العالم أو المفكر إلا شغفاً وإصراراً على المعرفة - وهذا هو الفرق بين المفكر والمنساق - وبين العالم الدؤوب ومن آثر التسليم وأراح نفسه من الجدل ..

ولاشك أن التطور العلمى غير المسبوق الذى نعيشه الآن أفهمنا الكثيرعن كيمياء وفسيولوجية الحياة - وكذلك فإن علوم الكيمياء والفيزياء الكمية والطب وفروعه من تشريح إلى وظائف أعضاء إلى علوم السلوك الإنسانى والسيكولوجى وعلم الهرمونات وعلم الأعصاب شرحت الكثير مما عزاه أهل الأزمنة الغابرة إلى الجن والشياطين وأرواح الأجداد والآلهة على تنوعها - ولازلنا نعمل - ولازلنا نكتشف ونتعلم ونسبر أغوار تلك الطاقة الجبارة التى تحركنى وتحركك وتحرك الكون .. وليست هناك نهاية لهذا السعى ..

أما بالنسبة لقضية الروح فأنا أؤمن بأن الإنسان بداخله طاقة - إلا أننى لايمكنى شرح ماهية هذه الطاقة - وليس لدى دليل يؤكد أو يعارض أى نظرية بشأن تلك الطاقة الداخلية - والتى هى فى نظرى لاتنفصل عن طاقة هذا الكون ..

وفى الحقيقة أنا ليست لدى مشكلة إن أنت أسميت هذه الطاقة "روحاً"، إلا أن المشكلة تكمن فيما تنسبه لهذه الطاقة حينما تسميها كذلك - فهذه التسمية تأتى ومعها تبعات أخرى كثيرة كالبعث والخلود وتناسخ الأرواح والحساب والثواب والعقاب .. إلى آخر هذه الأمور التى لايوجد دليل واحد على صدقها .. فالمفهوم الدينى للروح لاينفصل عن هذه المفاهيم ..

وإذا مأتينا للديانات الإبراهيمية لوجدنا أن مفهوم الروح قد أتى متأخراً - إذ لم يتحدث زعماء اليهود الأوائل عن أى شىء يمت للروح بصلة - وأمور كالثواب والعقاب هى لدى اليهود أمور دنيوية - أن يحرق الله زرعك - أو يسلط عليك الجراد والبق والقمل - أو يهلكك بزلزال أو طوفان - ولاحديث عن حياة بعد الموت - فاليهود هم أنفسهم أصحاب مبدأ "الموتى لايعرفون شيئاً" .. إلا أن مفهوم الروح تطور متأخراً بعد سبى بابل عندما سمح الفرس لليهود بالإستيطان ثانية فى أورشليم وفى هذه الفترة تأثر اليهود بالثقافة الفارسية ونقل اليهود عن الفرس معتقادتهم وأضافوها الى كتبهم المقدسة -

ثم أتى الإغريق بعد الفرس وأيضاً انتعش اليهود تحت حكم الإغريق ونسخوا كتبهم وكانت هذه هى بدايات ظهورمفهوم الروح فى التوراة ثم بعد ذلك فى المسيحية والإسلام نقلاً عن اليهودية ..
وأعود إلى إجابة مصطفى محمود فى أول هذا الباب - ولى أن أقول أن مايعزوه هو للغيبيات إجابته ألوف الكتب والمراجع العلمية فى شتى علوم النفس ووظائف الأعضاء والأعصاب ووظائف الهرمونات وكيمياء وفسيولوجية الجسم إلى آخر ذلك من علوم نحيا الآن بفضلها على صورة أفضل من النحو الذى عاش عليه أجدادنا سكان الكهوف .. وللقارىء أن يسبر أغوار تلك الفاعلية التى تحرك الإنسان بأن يطلع على ميكانيكية عمل القلب والإشارات العصبية والكهربية التى تحكم حركته وانقباضه وانبساطه ودور حمض الـ DNA وهو أول مكون للحياة وكيف ينسخ نفسه وكيف تنقسم الخلايا وماهو دور الجينات أو العوامل الوراثية فى تحديد صفات كل كائن حى .. وللقارىء أيضاً أن يطلع على وظائف المركبات الكيميائية العصبية مثل الدوبامين والأوكسيتوسين والإندورفين والسيروتونين والأدرينالين ودور كل مركب فى ضبط مشاعر الإنسان وانفعالاته وتصرفاته، وكيف أن تطور علوم السيكولوجى الآن أدى إلى تفسير وعلاج الكثير من الاضطرابات العصبية التى عزاها أجدادنا إلى الأرواح والأشباح ..
وأنا لاأقول أن العلوم الحالية قد فسرت كل شىء وحلت كل المعضلات المستعصية، ولكننى أقول أن العلم هو الأسلوب الوحيد الذى يجب اتباعه لمعالجة أى مشكلة تواجه الإنسان ..
إن مشكلتى الكبرى مع إجابته تلك تكمن فى تجاهله لكل هذه العلوم وارتكانه لفروض الغيب ..
إن رحلة المعرفة أشرف عندى من الارتكان إلى فروض الغيب وإن تطلبت هذه الرحلة عمر البشر أجمعين - إذ لو ارتكن الإنسان لفروض الغيب لما عرفنا دوائاً ولامصلاً ولاعرفنا طائرة ولاحاسباً آلياً وما طورنا أى علم من العلوم الإنسانية كما نعرفها الآن ..
أما أن تفرض على أن أؤمن بثواب وحساب وعقاب فلى إذن أن أطلب منك الدليل ..

ويسوق الدكتور مصطفى محمود دليلاً على العودة والبدء من نهاية عندما يقول: "إن شواهد الوجود وظواهره تشير جميعها إلى أن هناك عوداً على بدء ودورة لكل شىء .. بعد النهار يأتى الليل ثم يعود من جديد فيأتى النهار، والشمس تشرق ثم تغرب ثم تعود فتشرق .. بعد اليقظة ونوم الليل نعود

فنستيقظ من جديد .. وهذا يرجح أنه بعد رقود الموت هناك صحوة بعث .. والله يسمى نفسه فى القرآن المبدئ المعيد" .. ويستشهد مصطفى محمود بآيات من القرآن مثل "كما بدأكم تعودون" و "يبدأ الخلق ثم يعيده"..
حسناً ..
والسؤال هنا هو كيف تفسر لى الفردوس والجحيم إذن؟ وهى أمور تفرضها على ولكنها لاتتبع قاعدة العودة إلى بدء - وإنما هى نهاية أبدية - فأهل النعيم هم على الأرائك متكئين إلى جوار أنهار اللبن والعسل تداعبهم حور العين ويطوف عليهم الغلمان بأقداح الخمر إلى أبد الآبدين .. وأهل الجحيم يأكلون شوكاً وزقوماً ويشربون نحاساً مذاباً وتحترق جلودهم مجدداً أيضاً إلى أبد الآبدين .. أين العودة والبدء من نهاية هنا؟؟
ويسوق مصطفى محمود دليلاً آخراً على البعث بقوله: "الدليل الآخر على البعث هو النظام المحكم الذى ليس فيه بادرة خلل واحدة من أكبر المجرات حتى أصغر الذرات .. حتى الإلكترون المتناهى فى الصغر لايستطيع أن ينتقل من فلك إلى فلك فى الذرة إلا إذا أعطى أو أخذ مقداراً من الطاقة يساوى حركته .. فكيف نتصور فى هذا النظام المحكم أن يهرب قاتل أو يفر ظالم .. إن العقل يتصور أنه لابد سيلقى جزاءه حتماً، وإن هناك لابد عالما آخر يسوى فيه الحساب .. هكذا يقول العدل .. ونحن مفطورون على تحرى العدل وعلى حب العدل والبحث عن العدل ومحاولة تحقيق العدل .. ومع ذلك فالعدل فى الدنيا غير موجود .. وكما يقول أهل الفكر إذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء .. فلابد أن الظمأ إلى العدل يدل على وجود العدل .. فإن لم يكن موجودا فى دنيانا فلابد أن له يوماً وساعة تنصب فيها موازينه .. كل هذه مؤشرات تشير وترجح أن هناك بعثاً وحساباً وعالماً آخر .."
وهو كلام فى ظاهره جميل .. ولكن فكر معى قليلاً - ألا ترى معى أن العدل هو أمر نسبى؟
العدل فى مفهوم هتلر النازى هو أن يمحى جميع اليهود والغجر وكل من كانت له ميول جنسية مختلفة عن المعتاد من على سطح الأرض ..
والعدل فى مفهوم أرسطو هو الصفوة - والتخلص من المعاقين والإبقاء على العبيد ..
والعدل فى مفهوم نبى الإسلام هو قتل كل من غير دينه ..
والعدل فى مفهوم المسيح أن يضربك أحدهم على خدك الأيمن فتدير له الأيسر..
والعدل فى مفهوم زعماء إسرائيل هو دولة تمتد من النيل إلى الفرات ..

والعدل فى مفهوم العرب هو أن تمحى إسرائيل من الوجود ..
والعدل فى مفهوم الخالق هو أن يصيب طفلاً بثقب فى القلب - هذا الكائن الذى لاذنب له قرر له خالقه أن يحيا لبضعة سنوات يقضيها فى تدهور مستمر إلى أن يموت ..
وفى عدل الخالق أن يبتلى أحدهم بتصلب الأنسجة وهو فى التاسعة .. فيقضى السنوات الباقية من عمره من سيء إلى أسوأ .. إلى أن يموت ..
والعدل فى مفهوم المسلمين هو تغطية المرأة من الرأس إلى القدم - وهى إن أخطأت كان عقابها الرجم حتى الموت ..
وفى مفهوم الهندوس العدل هو أن تحرق الأرملة مع زوجها المتوفى ..
وفى نظر متطرفى الإسلام العدل هو ذبح كل من خالفهم - والتلذذ بذلك!
هذا الإنسان الذى تم ذبحه مفطور على العدل أيضاً، وهو إن مابعث فلاشك أنه سينتظر تحقيق العدل فى الآخرة كما تقول يادكتور، إلا أنه ويالللأسف فلسوف يلقى إله المسلمين الذى سيخبره بأن قطع رأسه فى الدنيا كان هو العدل بعينه، فإله المسلمين هو نفسه من أوحى لنبيه أن يقول: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام"، ومعنى "إلا بحق الإسلام" أنه قد تكون هناك أمور أخرى لاتزال تستوجب نهب الأموال وسفك الدماء حتى بعد أن أسلم الجميع .. وبعدها يلقى الإله به فى جهنم ويرسل قاتله إلى جنات الخلد ..
أى عدل تتحدث عنه هنا ياسيدى الفاضل؟
إن حقيقة الأمر أننا فى صراع مع الطبيعة - ومع ماحولنا من كائنات - ومع بعضنا البعض - وفى صراع مع المرض والألم والموت .. وفى معرض هذا الصراع نعرف أحداً على أنه العدو وآخراً على أنه الصديق ..
العدو من أراد أرضى ومالى - ومادمر جسدى ..
والصديق هو من ساعدنى .. ودمر عدوى أو دمر الكائن الذى يمرضنى ..
وإذا ماانقلب صديقى علىّ صار عدوى .. وصرت أنا عدوه ..
إنها نفس قضية داود وجوليات التى تحدثنا عنها فى الأبواب السابقة .. أو نسبية الشر والخير..
وعبر ألوف السنين سن الإنسان مبادئاً وقوانيناً وأعرافاً لتقنن له حياته ولتسمح له وللآخرين بالحياة .. وحارب الإنسان المرض والموت .. وحارب بشراً آخرين .. ولازالت هناك حروب وأضغان وأحقاد .. ومامن يوتوبيا .. إلا أن الإنسان لازال يحاول أن يحسن من واقعه ومجتمعه .. ومن هذا الصراع نشأت القوانين وتطورت وتغيرت وتحسنت - ليس لأن هناك نوعاً

واحداً من العدل، أو لأن هناك روح وبعث وآلهة، وإنما لأن هناك رغبة داخلية مبرمجة فى داخلنا لبقاء النوع شأننا شأن جميع الكائنات الحية .. والحروب والقتل هى فى واقع الأمر إظهارات لهذه الجينات التى بداخلنا التى تعمل أيضاً على إبقاء النوع - وفى هذه الحالة يكون البقاء للأصلح - والأقوى - والأقدر على التكيف والتطور والتحمل ..
وفى المجتمعات الثرية نتحدث عن حقوق الإنسان ..
أما فى المجاعة يأكل البشر بعضهم البعض ..
أى عدل تتحدث عنه ياأستاذى العزيز؟
إن مفهوم العدل هو أن يطور الإنسان نظماً وقوانيناً تكفل حياة مقبولة لأكبر عدد ممكن من البشر - أما هذا المعنى الذى تحدثنى عنه فهو معنى مطلق لاوجود له فى عالمنا ذلك .. فالعدل المطلق هو أن يحيا الجميع بلا مرض وبلا ألم وبلا معاناة وإلى الأبد .. وهذه هى الجنة التى يحدثك عنها إلهك وكتابك .. وهو معنى مثالى لاوجود له فى كوننا ذلك الذى نعرفه بل ولاوجود له حتى فى الدين الذى تفرضه علينا .. فإلى جوار النعيم الأبدى الذى تحدثنى عنه هناك أيضاً عذاب أبدى مروع لانهاية له ..
أى عدل يقول بعذاب "أبدى" لانهاية له ..؟
فكر معى قليلاً فى هذا السؤال ..

● ● ● ● ●

ويستطرد مصطفى محمود قائلاً : "ولحظة التضحية بالنفس حينما يضع الفدائى حزام الديناميت حول جسده ويتقدم ليحطم الدبابة ومن فيها .. أين جسده هنا .. أين المصلحة المادية التى يحققها بموته .. ومن الذى يأمر الآخر .. إن الروح تقرر إعدام الجسد فى لحظة مثالية تماماً لايمكن أن يفسرها مذهب مادى بأى مكسب مادى والجسد لايستطيع أن يقاوم هذا الأمر"..
وسامحنى ياأستاذى الكبير حينما أقول أنك هنا قد جانبك الصواب تماماً .. إن التضحية بالنفس سلوك بيولوجى طبيعى معروف فى كثير من الكائنات وليس الإنسان فقط .. والهدف منه هو بقاء النوع .. نحلة العسل تدافع عن الخلية الأم وتفقد حياتها حينما تلدغ الدخيل .. أنواع النمل تدافع عن عشها حتى الموت، ومنها ما يموت فى سبيل صنع كوبرى فوق الماء تعبر فوقه الشغالات الأخرى .. خلايا الأميبا وقت الخطر تتجمع لتكون مستعمرة واحدة

وفى سبيل ذلك تدمر بعض الخلايا نفسها فى سبيل تكوين المستعمرة الأم الأقدر على الحياة ..
إن القضية هنا هى بقاء النوع واستمرار توريث جينات النوع لأجيال قادمة، وفى سبيل ذلك يهلك الأفراد ليعيش النوع ..
وبنفس منطقك هل لنا إذن أن نقبل أن هذه الكائنات لها روح أيضاً ..؟ وهل يعنى ذلك إذن أن قضايا البعث والثواب والعقاب تنطبق عليهم بالتبعية؟

• • • • •

أما تحضير الأرواح فقصته طويلة، فكما قُدر للكاتب الكبير أنيس منصور أن يرتحل فى أندونيسيا ويلتقى بمحضرى الأرواح والذين أتوا له بهتلر وبيتهوفن وشفيقة القبطية - قُدر لى أيضاً أن أفعل نفس الشىء إذ ارتحلت إلى جزيرة جاوة الأندونيسية واستفسرت عن "جيلان كوم" و"جيلان بيس" وهو ماعرضه أنيس فى كتابه الأشهر "٢٠٠ يوم حول العالم" .. وفهمت أن "Jailangkung" لاتعنى الهيكل العظمى كما قال أنيس فى كتابه وإنما الهيكل العظمى "Jerangkung" هو أحد أشباح الخرافات الماليزية - أما "جيلان بيس" فهى كلمة لاوجود لها فى لغة أهل جاوة ولاأعلم من أين أتى أنيس منصور بها .. ولى هنا أن أقول أن مقالاته تلك والتى كان قد نشرها فى مطلع الستينات من القرن الماضى قد فعلت الأعاجيب فى الشعب المصرى البسيط - إذ أتى الجميع بالسلال ولم يكن لأحدهم شغلة ولامشغلة سوى سؤال السلة وأرواح الأجداد - وهو بالطبع أمر مؤسف .. وهو دليل على بساطة ذلك الشعب وسهولة انقياده .. وهو أيضاً دليل على إصرار هذا الشعب على عدم الأخذ بالأسباب - والركون إلى الخزعبلات والعفاريت ..
وأعود إلى مدينة باسوروان الأندونيسية حيث جلست وجلس الوسيط بعد أن وضع الشاى والقهوة والبخور والطعام والشراب والورود والعطور بل والسجائر فيما يشبه الصينية الكبيرة كعطاءات للأرواح - ولم ينظر لى الوسيط ولم يعرنى أى انتباه - بل كان مشغولاً بترتيب وإعداد الحجرة لاستقبال الأرواح - وسألت إن كان هو بإمكانه التخاطب مع الأرواح، لماذا لايسأل الأرواح عن الأرقام الرابحة فى اليانصيب ليصير هو أغنى الأغنياء؟ وأتت الإجابة بأنه لايبغى ثرائاً من ذلك وإنما هو يبغى مساعدة الناس - وسألت، أليس موتى البشر الآن فى الجنة أم فى الجحيم؟ فإذا نحن ماطلبنا روح أحد هؤلاء ألا تعتقد معى أنهم لن يجيبوننا لانشغالهم إما مع حور العين وإما بالحريق؟ وترددت المترجمة المحترمة قليلاً وكادت أن تعدل عن سؤاله

إلا أنها أذعنت أمام إصرارى وترجمت له السؤال فى شىء من الحرج، وجائت الإجابة بلا معنى .. شىء مثل "إن الله لايسأل عما يفعل، وهو يعلم من فى النار ومن فى الجنة الآن .."
حسناً ياسيادة الوسيط ..
وتسائلت إن كان بإمكانه معرفة السارق أو مرتكب جريمة ما - وجائت الإجابة بنعم، فتسائلت: ولماذا لاتأخذ الشرطة بهذه الطريقة وتبنى المحاكم حكمها على سؤال السلة؟ وجائت الإجابة مقتضبة وبلا معنى - شىء مثل: إن الشرطة قد قررت ألا تأخذ بهذه الطريقة ..
وتسائلت .. إن كان هو بقادر على مخاطبة الأرواح، هل بإمكانه أن يطلع على ماسوف يأتى فى الامتحان الدراسى - وجائت الإجابة بنعم، وتسائلت .. إن كان ذلك صحيحاً - لماذا لم يستخدم ذلك هو فى دراسته ليصير أول المتفوقين؟ وهنا ضحكت المترجمة فى ود إلا أنها اعتذرت فى أدب عن ترجمة السؤال، ولم تتراجع أمام إصرارى هذه المرة ..
وامتلأت الحجرة بدخان البخور - ولدقائق عشر كدت أن اختنق فيها من كثافة الدخان انتظرت وانتظر الجميع حضور الروح - وطلبت روح أبى .. ولم يحدث شىء .. وإذا بالوسيط يخرج من الحجرة إلى الخلاء .. وترجم لى الحضور أن أبى من فرط حرصه علىّ قد امتنع عن الحضور خشية أن تحضر معه أرواحاً أخرى تضرنى وتصيبنى بسوء ..
حسناً ياسيادة الوسيط .. ماهو الحل إذن؟ وردت المترجمة أن الوسيط يحتاج أن يخاطب أرواحاً أخرى لتسمح لأبى بالحضور .. وكنت أرى الوسيط من مقعدى يحادث شجرة كبيرة توسطت الحديقة الخلفية للمنزل .. وجاء ثانية وجلسنا حوله .. وإذا بالمترجمة تقول أن أبى قد حضر ويمكنك الآن سؤاله - وسألت بالإنجليزية وجاء الرد بالأندونيسية (Bahasa Indonesia) .. وتسائلت لماذا يرد أبى بالأندونيسية وهو الذى لم يكن على علم بهذه اللغة؟ وجائت الإجابة أننا نظراً لوجودنا فى أندونيسيا فإن الروح لابد وأن تتحدث بلغة البلد التى تحل فيها ..
حسناً ياسيادة الوسيط .. ياله من رد حويط ..
وسألت الوسيط - أو أبى - ثلاثة أسئلة عن أمور لم تحدث بالمرة ..
سألته لم طلقت أمى .. وجائت الإجابة بأنها كانت سيدة أنانية ..
وسألته لم هاجرت وتركتنا - وجائت الإجابة أنه خجل من تطليقه لأمى وقرر الرحيل ..
وسألته لم غيرت اسمك - وجائت الإجابة أنه أراد أن يختفى من حياتنا إلى حيث لايستطيع أن يجده أحد ..

وهو الذى لم يفعل أى من هذه الأشياء ..
ثم أرغى الوسيط وأزبد وقالوا أن روح طفل صغير قد حلت - وصار هو يتحدث ويتباكى بصوت رفيع كالأطفال - وقال فيما قاله أن أبى يعمل الآن جاهداً على منع الأرواح السفلية الشريرة من مسى - ثم زحف على أربع وأمسك بالسلة التى خرجت منها ريشة خشبية طويلة بلل طرفها بحبر أسود، وحمل السلة وكتب على ورقة علقت على الحائط: "Jangan diteruskan" وهو ماترجمته "لاتكمل" .. ثم وقع مغشياً عليه - وحملوه وأفاقوه ومسح عن وجهه عرق الممثلين ..
وكم كانت خيبة أملى فى ذلك الذى رأيت ..
خيبة أملى الأولى كانت فى أبى الذى لم يحضر برغم الشاى والسجائر ..
وخيبة أملى الثانية كانت فى ذلك الممثل المتواضع وهو الذى لم يقنعنى بأدائه ذلك .. وأنا أقدر الممثل الجيد ..
وخرجت بعدها فى شىء من الإحباط - وخرج الجمع معى وفهمت أنهم جميعاً يصدقون أن أبى قد حضر بالفعل - بل وأبدوا سعادتهم أن أبى قد حمانى من أن أُمس بسوء من قبل الأرواح سيئة السمعة - وقالوا أن أبى يحبنى أشد الحب وإلا ماكان فعل ذلك ..
وفهمت أن هذه الأفكار لهى من صميم الحياة الأندونيسية فى القرى والأنحاء الفقيرة، وبرغم تراجع مثل هذه الأفكار الآن إلا أن الكثير من الأندونيسيين لايزالون يستشيرون الأرواح عن أمورهم الدنيوية كالزواج والطلاق والوظيفة والعمل ..
ويبدو لى أن الأرواح لم تساعدهم كثيراً - فلا يزال هناك فقر وعوز وبراكين وزلازل واكتساحات فياضانية وسونامى وخلافه - وهى أيضاً أمور يفسرها الأندونيسى البسيط على أنه قد أغضب الآلهة أو الأرواح - وبذلك يرسخ لهذه القضية أيضاً فى مخيلته ومخيلة الآخرين ..
إن بلادنا الشرقية مرتع لهذه الأفكار - من أن الأمريكان يسخرون الجان للتجسس على السوفيت والإنجليز يسخرون الجان للتجسس على الألمان أو لفك شفرات الكمبيوتر وغيره .. وهو ما يدل على ضحالة فكرنا كشرقيين وتكاسلنا واستكانتنا لمثل هذه التفاسير - فنحن نرفض الاقتناع بأن التقدم العلمى الحالى هو نتاج عمل شاق ودؤوب - وإنما نحيل ذلك إلى أرواح وغيبيات قررت أن تفضل قوم على قوم بلا سبب واضح ..
أما تفسير مصطفى محمود نفسه لموضوع تحضير الأرواح فهو مايثير العجب - فها نحن أمام الدكتور الذى درس فى كليات الطب والذى كان من المفترض أن ينظر إلى الأمور نظرة علمية محللة، تبحث فى التأثير النفسى لمثل هذه

الجلسات على من سمى بالوسيط وعلى من اجتمعوا حوله فى ترقب وخيفة، وكذلك تأثير الجو الأثيرى الباطن المذهب للعقل والبخور المسبب للهلوسة .. إلا أنه يحدثنا عن القرين، والخادم، والأرواح السفلية والجان الذى يلهو ويضحك على هبل الحاضرين ..
ياخسارة ياأستاذى الكبير..
وياألف خسارة ..
فبدلاً من أن توجه الشباب توجيهاً سليماً يحيلهم إلى العلوم والبحث العلمى السليم إذا بك تلقى بكل ذلك جانباً وتحيلهم إلى القرين والخادم والجن الأزرق ..
إن هذا تحديداً هو السبب الذى من أجله هاجمك الدكتور سيد القمنى - فالارتكان للغيبيات أمر سهل، أما الصعب فهو الأخذ بالأسباب واتباع الإسلوب العلمى والمنهجى فى البحث وتقصى أسباب مانراه حولنا من ظواهر تنتظر التفسير، وقد نقضى فى ذلك العمر كله ..
إن أى تقدم علمى هو نتاج عمل دؤوب ومستمر وممتد لسنوات طوال بل ولأجيال من البشر .. بل إننى لاأبالغ إن قلت أن أى تقدم علمى يعود فى أصله وأول نشأته إلى الإنسان الأول الذى وضع حجراً إلى جوار حجر آخر وقرر أن ذلك الذى فعله معناه أن ١+١=٢
إن مكتشف هذه المعادلة الأولية هو إنسان عبقرى ..
ومنذ ذلك الحين، أى اختراع أو ابتكار تستخدمه أنت الآن هو نتاج شقاء كل البشر وتجاربهم وأخطائهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم عبر آلاف السنين ..
يقول "جول فيرن": "العلم، ياصاح، هو نتاج الأخطاء، ولكنها أخطاء ذات فائدة، إذ تقودنا شيئاً فشيئاً إلى الحقيقة .."
إن الزر الذى تضغط عليه فتحادث صديقاً لك على الطرف الآخر من الكرة الأرضية بدأ منذ تلك اللحظة التى اكتشف فيها الإنسان الأول أن ١+١=٢
إن مافعله مصطفى محمود هو أن أخذ بيد الشباب ومضى به نصف الطريق - إلا أنه توقف هناك وأحاله بعد ذلك للغيبيات .. وهنا تكمن المشكلة .. فصحيح أن العلم لايملك الإجابة على كل شىء - إلا أن العلم هو المنهج الوحيد الذى لابد علينا أن نتبعه كى نتمكن من فهم أى شىء .. وليس هناك ضمان أن العلم سيقدم لنا إجابة فورية ومضمونة وسريعة .. فليست هناك إجابة سهلة على أى سؤال - إلا أن كل يوم يحمل معه فهماً جديداً - وفكراً أفضل - وتفسيراً أوضح لماهية الأمور ..
إن المشكلة تكمن فى تقاعسنا عن المضى فى النصف الآخر من الطريق .. فهذا هو الجزء الصعب - وهو أيضاً طريق بلا نهاية - ولكن كل خطوة فيه

تحمل تقدماً ما - وتطوراً ما - وفهماً أفضل لماهية الأمور - ولاشك أيضاً تحمل حلاً لمشكلة عجز الإنسان عن حلها سابقاً .. ومامن وسيلة لحلها إلا بالمضى فى الطريق واجتياز العقبات - وليس بالخروج عن الطريق بأكمله وتفويض الأمر للغيبيات ..

إننا إن وجدنا الإله فى معرض ترحالنا فإن ذلك لايعنى نهاية الترحال - وإنما هى بداية لترحال آخر ..

وفى الآخر يقول لصديقه الملحد: "لاشك أنك سوف تضحك على كلمات مثل الجن والأرواح السفلية والقرين .. ولك عذرك .. فإذا كنت لاتؤمن بروحك أنت فكيف يتوقع منك أن تؤمن بجنى .. وإذا كنت لاتؤمن بالله فكيف ينتظر منك أن تؤمن بشياطينه .."
بلى ياأستاذى العزيز، أنا ولاشك لاأؤمن بأى من ذلك .. إلا أننى أؤمن بالعلم - والبحث العلمى الدؤوب - وإضافة فكرة جديدة واكتشافاً جديداً كل يوم - والمحاولة والخطأ - والرأى والرأى الآخر ..
ثم يقول: "ومع ذلك لو كنت ولدت منذ مئة سنة وجاءك رجل يحدثك عن أشعة غير منظورة تخرق الحديد، وصور تنتقل فى الهواء عبر المحيطات فى أقل من ثانية، ورائد فضاء يمشى على تراب القمر .. ألم تكن تضحك وتقهقه وتستلقى على قفاك أضعاف ماتضحك الآن .. وتقول لنفسك هذا رجل هارب من مستشفى المجاذيب .. ومع ذلك فيالها من حقائق ملء السمع والبصر الآن" ..
حسناً ياأستاذى العزيز .. كلامك فى ظاهره جميل ومقنع كالعادة .. وهو أيضاً صحيح .. فخرافة الأمس هى حقيقة اليوم .. إلا أن الخطأ الذى وقعت فيه هنا هو أن هذا المنطق لايصلح لأن تقرع به أية حجة، والسبب هو أننا إذا قلنا بذلك صار كل شىء ممكناً إذن وليس علينا إزر إثباته .. فبنفس المنطق يمكننى أن أحادثك عن يوم يأتى على البشر يقهرون فيه الموت .. أو يرتحلون عبر الأزمان .. أو يرتحلون إلى الشمس فيخترقونها من اليمين ويخرجون من اليسار .. أو يضغطون على زر فإذا بهم عند حافة الكون ينظرون إلى ماحده من خواء .. ويضغطون على زر آخر فإذا بالكرة الأرضية تدور عكس الاتجاه ..
ونحن إن قبلنا كلامك ذلك فهذا معناه أن الإنسان لابد سيتوصل إلى التحقق من هذه الادعاءات التى تفرضها علينا مثل الأرواح والأشباح والجن والعفاريت والآلهة بالطبع فى المستقبل .. والسؤال هنا .. هل كان مراد الله

أن يحجب عن خلقه كل هذه الأمور لآلاف السنين ويعذب منهم من يعذب إلى أن يأتى اليوم الذى يكتشف فيه البشر حقيقة كل ذلك فإذا بهم جميعاً ساجدين محوقلين؟
وإن ذلك سيحدث فى غضون السنوات الألف أو الألفين القادمة؟
نعم سأتفق معك أن خرافة الأمس هى حقيقة اليوم، ولكن ليس "كل" خرافة تصير واقعاً بالتبعية .. فمثلاً أنا يمكننى القول فى شىء من الثقة أن المستقبل سوف يحمل علاجاً لبعض الأمراض المستعصية حالياً مثل مرض السكر على سبيل المثال .. إلا أننى لايمكننى القول أن المستقبل سيحقق للبشر عالماً خالياً تماماً من جميع الأمراض والآفات .. أليس كذلك؟
لذلك يجب علينا قبل أن نطلق أية ادعاءات أن نزن مانقوله بميزان العلم والمنطق أولاً ..

وقبل أن أنتهى من هذا الباب يعنينى أن أعلق على أمرين لايمكننى تركهما بلا تعليق .. الأمر الأول هو الجملة التى تقول: "والمؤمن الذى يصدق القرآن فى غير حاجة إلى هذه الاستدلالات لأنه آمن بقلبه وأراح نفسه من الجدل" .. أما الأمر الثانى فهو فى الجملة التى تقول فى معرض الحديث عن تحضير الأرواح: "وللأسف الشعوذات فى هذا الموضوع أكثر من الحقائق والكلمة الأخيرة لم تقل بعد" ..
ياخسارة ياأستاذى الكبير ..
إن جملتك الأولى هى فى حقيقة الأمر ليست سوى النقيض التام لكل شىء تعلمته منك - فأنت الذى علمتنى أن أنتهج التفكير المنطقى العقلانى فى كل الأمور، وأنت آخر واحد أتوقع منه أن يطلب منى أن ألقى بكل ذلك فى صفيحة النفايات وأريح دماغى من الجدل ..
أما تعليقى على النقطة الثانية فهو إننا إذا ماآمنا أن القرآن قد أتى بالكلمة الأخيرة فى كل شىء كما تقول، لماذا لم يأت بالكلمة الأخيرة فى موضوع الروح أيضاً ويريحنا هو من الجدل؟؟
والخلاصة هنا هى أن الكلام عن الروح هو ضرب فى تيه - تماماً كما قلت ياأستاذى الكبير - إلى أن ادعاءاتك لايمكن قبولها لعدم استنادها على دليل علمى أو منطقى واضح ..
ولسوف يسعدنى أن استمع لكل وجهات النظر ..

٩) الضمير

السؤال هذه المرة عن الضمير، ويقول الملحد أن الضمير ليس سوى أحد المصنوعات الاجتماعية، وهو شيء تتغير أحكامه وضوابطه وفق المصالح الجارية .. ويرد مصطفى محمود قائلاً أن الضمير نور وضعه الله فى الفطرة ومؤشر ودليل وبوصلة نولد بها تهدينا إلى الحقائق وكل دور الاكتساب الاجتماعى أنه يجلو مرآة هذه البوصلة ويصقل زجاجها .. ويأتى مصطفى محمود بقصص من عالم الحيوان:

- القطة تتبرز ثم تغطى فضلاتها بالتراب ..
- القطة إذا سرقت السمكة وضربتها طأطأت ونكست بصرها فى إحساس واضح بالذنب .. وإذا كسرت فازة تجرى وتختبىء وقد أدركت أنها أخطأت ..
- وتقاليد الوفاء الزوجى فى الحمام ..
- ونبل الحصان فى ارتباطه بصاحبه حتى الموت ..
- وكبرياء الأسد وترفعه عن الهجوم على فريسته من الخلف ..
- وخجل الجمل وتوقفه عن مضاجعة أنثاه إذا وجد عيناً تراقبه ..
- والأسد الذى انتحر بعد أن انقض على مدربه محمد الحلو ..

وليس هناك تفسير لذلك سوى الضمير - ونحن هنا أمام فشل كامل للتفسير المادى وقصة المكاسب الاجتماعية التى يتحدث عنها الماديون .. فالمعاشرة والمحبة صقلت تلك النفس الحيوانية وأيقظت ذلك القبس الرحمانى، فإذا بالأسد يحزن ويندم وينتحر كمداً كالبشر ..

حسناً ياأستاذى الكبير ..

الموضوع هذه المرة يطول .. فلقد أثرت عدة نقاط هنا وللتعليق عليها يجب أن نبدأ من البداية ..

أنت هنا ياسيدى الفاضل تضع أمامنا عدة أمثلة منتقاة من عالم الحيوان لتؤكد على قضية الضمير وعلى أنه نور وقبس من الله - وكل ماينبغى فعله هو أن نروض تلك النفس الحيوانية ونصقلها لنبصر ماهو الخطأ وماهو الصواب .. وفى الحقيقة هذا شطح محض ..

ولشرح ذلك يجب أولاً أن نتفهم بعض الحقائق الأساسية عن سلوك الحيوان .. ولنبدأ بالقطة التى تغطى فضلاتها بالتراب وتختبىء إذا ما كسرت فازة أثناء اللعب .. ولفهم ذلك يجب علينا أولاً أن نتفهم قضية التطور - وكيف تطورت الكائنات على ماهى عليه الآن ولماذا طورت هذه الكائنات هذا النمط السلوكى .. وهو ماكنت أتوقع منك أنت ياأستاذى الكبير أن تشرحه كرجل علم .. لاأن تحيل القضية برمتها إلى الغيبيات ..

إن القضية هنا ياأستاذى الفاضل هى بقاء النوع ..
ففى تطور الكائنات تنوعت الطرق الحياتية والمعيشية وتلائم كل كائن طبقاً لظروف بيئته وطبقاً للضغوط البيئية .. فإذا ماعدنا إلى الوراء عدة ملايين من السنين لوجدنا أن النوع الذى نشأت منه القطط والكلاب والأفراس المستأنسة حالياً هى أنواع برية فى الأصل .. ونظراً للتنوع البيولوجى صار البعض برياً مفترساً أو جامحاً ومال البعض الآخر من نفس الفصيلة إلى حياة أقل جموحاً وأكثر ألفة واستئناساً .. وتمكن الإنسان وهو حديث الظهور على سطح الأرض من استئناس بعض أفراد هذا النوع ولم يتمكن من استئناس البعض الآخر .. فالقط البرى لازال برياً .. إلا أن بعض أفراد هذا النوع اقتربت شيئاً فشيئاً من بنى البشر ليطعمهم ويأويهم وشيئاً فشيئاً تخلصت أفراد هذا الجمع من صفاتها الوراثية البرية الجامحة .. وأبقت على الصفات الوراثية الذى تضمن لها الألفة والتآلف إلى جوار بنى البشر ..
ونضرب مثلاً بحيوان الجاموس الوحشى، وهو حيوان شديد الخطورة تهابه الأسود قبل البشر .. عبر آلاف السنين تطورت بعض مجموعات هذا الكائن إلى مجموعات أقل جموحاً وعنفاً .. وهى المجموعات التى نشأت إلى جوار قبائل البشر .. فسلك بعض أفراد هذا المجموع مسلكاً تطورياً مختلفاً بأن ركنوا واستكانوا إلى بنى البشر يركبونهم ويحلبونهم ويجرون بهم عرباتهم فى مقابل إطعامهم وحمايتهم من الحيوانات المفترسة .. وظل بعض أفراد الجمع على بريتهم وجموحهم - فلم ينلهم استئناس البشر ولكنهم ظلوا على حريتهم وانطلاقهم فى ربوع الغاب .. وهذا هو أساس التطور .. وهو أن أى كائن حى فى معرض تطوره يكسب شيئاً ويخسر شيئاً آخر .. الحمار الوحشى مثلاً مكسبه هو حريته وعدم استعباد البشر له فى جر أثقالهم وأحمالهم .. وفى نفس الوقت هو معرض للافتراس من قبل أسود الغاب .. وبالمثل يفقد الجاموس الوحشى قرونه الضخمة وعضلاته وعنفوانه وجبروته عبر أجيال من الاستئناس والاقتياد للبشر، ويصير ثقيلاً بليداً طيعاً ويفقد إدراكه أو تقديره للخطر وإمكانية تفاديه والهروب منه عكس أقرانه البريين .. وأنت إذا ماوضعت طائراً مهاجراً فى قفص ضمرت أجنحته وتقلصت قدراته المعيشية وعبر أجيال من التربية فى الأسر يتحول شيئاً فشيئاً إلى طائر داجن شأنه شأن البط والدجاج .. والحيوانات التى يربيها الإنسان تتغير فسيولوجيتها عبر الأجيال فتحول ماتأكله إلى لحم ودهون بدلاً من العضلات .. وبذلك تفقد تلك الحيوانات قدرتها على المعيشة فى الغاب وعلى تجنب ومقاومة الافتراس وعلى الهجرة والبحث عن المرعى وتحمل الظروف البيئية المتقلبة .. أو بالتعبير العلمى الدقيق، شيئاً فشيئاً يقل عدد الجينات

المسؤولة عن الجموح والدفاع عن النفس وإدراك الخطر نظراً لعدم الحاجة إليها على مدار الأجيال، وتتراكم الجينات المسؤولة عن الاستكانة والانقياد وتراكم الدهون بدلاً من العضلات ..
وكذلك الكلب المستأنس، وهو أحد أفرع العائلة التى تضم الذئاب والضباع والكلاب البرية المفترسة - إذ تطور بعض أفراد النوع البرى إلى أفراد أقل شراسة وأكثر تآلفاً مع بنى البشر - فأطعمهم واستخدمهم للحماية والصيد والحراسة وتطويق الأغنام - فمن الكلاب المستأنسة ماهو شديد الاستئناس مثل كلب السبانيل وكلب التريير المدلل ومنها مالازال يحمل بعض صفاته البرية مثل الهاوند وكلاب الصيد وهو مايستخدمه الإنسان فى مطاردة حيوانات أخرى كالخنازير البرية مثلاً ..
ونأتى هنا للقطة التى تغطى فضلاتها وتطأطىء رأسها وتختبىء إذا ماكسرت الفازة، ولى هنا ملحوظة سريعة يجب أن أذكرها قبل أن نبدأ فى شرح مثل هذا السلوك .. هذه الملحوظة هى أن القطة إن فعلت ذلك فهناك آلاف مؤلفة من الكائنات الحية الأخرى التى لاتفعل ذلك .. ماالذى حدث للقطة وقد استيقظ ضميرها ولم يحدث نفس الشىء للحمار ..؟
السبب هنا ياسيدى الفاضل هو أسلوب التطور وأسبابه ..
يقول العلماء أن القطط البرية فى الطبيعة تدفن فضلاتها فيما عدا القط الرئيسى فى المجموعة، ذلك لأن القط الرئيسى هو المسؤول عن تحديد محيط أو نطاق تجوال المجموعة، فالقط الرئيسى يترك فضلاته بدون دفن عند حدود المنطقة التى تعيش فيها تلك المجموعة وبذلك تدرك مجموعات القطط الأخرى هذه الحدود، ويستخدم ذكور القطط ذلك فى التتبع والوصول الى الإناث فى موسم التزاوج .. وعادة ماتترك القطط التى تعيش منفردة فضلاتها بدون تغطية خاصة فى موسم التزاوج، أما القطط التى تعيش فى مجموعات فإن هذه هى مهمة القط الرئيسى فقط طبقاً لما يعرف بالبناء الهرمى للمجموعة أو الـ"Pecking order" .. ولاحظ العلماء أن سلوك القطط المنزلية عادة ما يتشابه مع سلوك أقرانهم البريين الذين يعيشون فى مجموعات .. والقط المستأنس الآن لازال يحمل بعض الجينات أو الصفات الوراثية التى تجعله يتصرف على هذا النحو حتى وإن تخلص من فضلاته على السجادة .. فإذا بالقط يرفس السجادة بقدميه الخلفيتين ومامن تراب هناك .. وإنما هو سلوك مبرمج داخل القط يطيعه حتى الآن رغم اختلاف بيئته عن البيئة الأصلية .. فكيف تفسر لى ذلك إذن؟
ثم نأتى إلى الفازة التى كسرتها القطة .. وتفسير هروب القط والاختباء تحت الكرسى هو أن ذلك القط هو سليل أجيال وأجيال من القطط التى استكانت

إلى بنى الإنس ليطعمهم ويأويهم .. وتعلم ذلك الكائن عبر آلاف الأجيال مايضمن له رضاء سيده الإنسان ومايجر عليه المشاكل .. فتعلم القط أنه سيعاقب إذا ماترك فضلاته قرب سيده .. أو إن افترس طيوره .. أو إن عض طفله .. أو إن كسر الفازة .. فإذا مااستكان القط وصار يلهو ويقفز ويلاعب الأطفال - وإن استكان الكلب ولم ينبح إلا فى مواجهة الغريب أو المتسلل، وإن هدأ الجاموس وجر الساقية فى خضوع، ضمن الحياة .. وبذلك تزيد فرص الحياة حول الإنسان للقط والكلب والجاموس المستأنس إذ يطعمهم ويأويهم - أما إذا أخطأ القط أو توحش الكلب وانقض على من يطعمه كانت العواقب وخيمة - ولذلك زادت فرص توريث الصفات الوراثية لدى الكلب المستأنس إذا مااستكان وأطاع سيده، وقلت فرص توريث الصفات الوراثية للشرس والجامح إلى أن وصلنا إلى القطط الوديعة والكلاب المنزلية المدللة .. بل وانتخب الإنسان سلالات الكلاب طبقاً للدور المطلوب من كل سلالة ..

وننتقل الآن إلى تقاليد الوفاء الزوجى فى الحمام - وهو مايشير إليه مصطفى محمود كمثال عظيم على يقظة الضمير .. وقبل أن أبدأ فى شرح هذا السلوك يجب على أولاً أن أنوه أنه كما أن هناك أنواع من الطيور يكون زواجها "كاثوليكياً" لاانفصال فيه - فهناك أيضاً بعض الكائنات الأخرى كعنكبوت الأرملة السوداء وفرس النبى تأكل الأنثى فيها الذكر وقت الجماع ..
أين ضمير فرس النبى هنا؟
وأين ضمير بقة الماء التى تأكل بعض نسلها وقت خروجه من البيضة ..؟
إن القضية برمتها هى بقاء النوع، وفى تنوع المسلك التطورى الذى تسلكه الكائنات لضمان الحياة ..
ولكى نفهم ذلك السلوك يجب علينا أولاً أن نتفهم بعض الحقائق العلمية بخصوص تزاوج الحيوانات فى الطبيعة .. ففى عالم الحيوان عادة ماتمتنع الأنثى عن التزاوج بعد أن تحمل، أما الذكر فيستمر فى محاولاته للتزاوج مع أكثر من أنثى .. غير أن هذه القاعدة تختلف قليلاً فى بعض أنواع الطيور خاصة الأنواع التى يعتنى فيها الذكر أيضاً بالأبناء وليس الأنثى فقط، فما أن اختارت الأنثى ذكرها وبنيا عشهما استمرت فى العش مع الذكر حتى يغادره الصغار وينفصل الأبوين بعدها .. إلا أنه فى عدد قليل جداً من الطيور لاحظ العلماء أن الذكر والأنثى لاينفصلان بعد ذلك وإنما يستمران فى الحياة سوياً عبر عدة مواسم، ويحدث ذلك فى الأنواع التى يصعب فيها على الأنثى العثور على الذكر المناسب كل موسم وسط المجموع .. وحتى فى هذه الأنواع فقد لاحظ العلماء أن بعض الإناث أحياناً ماتتزاوج مع ذكر آخر أثناء

انشغال الذكر الأصلى فى الرعاية بالصغار فى العش، وهكذا تزداد وتتنوع العوامل الوراثية فى مجموع الأبناء وتزداد فرص بقاء النوع .. هذا هو التفسير العلمى للقضية ياأستاذى الكبير ..

أما نبل الحصان فهو أيضاً ضمان الحياة والمأكل والمأوى .. وبالطبع فإن الدكتور مصطفى محمود هنا إنما يتحدث عن الحصان المستأنس وليس عن الحصان البرى الذى إن حاولت ركوبه ركلك فى رأسك ركلة الموت! وهو بلاشك يعلم أيضاً أن سلالات الأفراس تتنوع شأنها شأن أى شىء فى عالمنا ذلك - فمنها الهادىء ومنها الأهوج، ومنها الخفيف الرشيق الذى يكسب سباق الخيول ومنها الضخم الثقيل الذى يجر أثقال الإنسان .. وهناك سلالات تولد أفرادها مطيعة مستكينة وسلالات أخرى برية تحتاج إلى عمل طويل وشاق ومجهود عضلى كبير لاستئناسها وكسر شوكتها .. وقد ينجح الإنسان فى ترويض البعض وقد لاينجح .. فعلى هذا النحو كان تطور الكائنات ..

أما عن كبرياء الأسد وترفعه عن مهاجمة فريسته من الخلف فهو كلام خاطىء برمته ..
إن هذا الأسد شديد الكبرياء الذى يتحدث عنه مصطفى محمود ليس له سوى مصير واحد وهو الموت جوعاً ..
ولى هنا أن أشرح عملية الافتراس فى الأسود على وجه التحديد كما درستها وشهدتها بعينى فى غابات السافانا الإفريقية ..
تبدأ العملية بأن تحدد الإناث موقع الفريسة على بعد .. فتقبع اللبوءات فى الحرش فى صمت وتختار بقعة ضد اتجاه الريح كى لاتشتم الفريسة رائحتها .. ومأأن تحين الفرصة تبدأ إحدى الإناث فى الزحف فى حرص وتؤدة متخفية فى الحرش .. وتتحرك إناث أخرى بزاوية إلى يمين أو يسار مع اتجاه الأنثى الأولى .. وذلك سببه هو أن الفريسة إن انتبهت وجرت وقعت فى براثن إحدى الإناث عن يمين أو يسار - وتستمر الأنثى الأولى فى الزحف فى هدوء وتقترب شيئاً فشيئاً من الهدف .. ثم تقبع ثانية فى الحرش لدقائق قبل أن تعاود الزحف .. وما أن صارت اللبوءة على مسافة قريبة تمكنها من مغافلة الفريسة بدأت فى الانقضاض - وهنا قد يحدث أى شىء ..
قد تنتبه الفريسة مبكراً وتشرع فى الجرى - وهنا تبييت الإناث جائعات هن وأشبالهن ..

أو أن تنتبه الفريسة وتشرع فى الجرى إلا أنها لاتلحظ الإناث الأخريات وقد قبعن فى نفس اتجاه فرارها - فتقع فريسة لهم إذا جرت فى اتجاههم - وهكذا تزيد فرص نجاح الافتراس بزيادة عدد اللبوءات المتعاونة ..
وقد يحدث أيضاً أن تنتبه الفريسة وتشرع فى الجرى إلا أن اللبوءة تتمكن من اللحاق بها - وهذا عادة مايحدث مع الفرائس الأقل سرعة مثل الحمار الوحشى أو الـ(wildebeast) أو مايعرف بالتيتل الأفريقى أو المريض والعجوز من تلك الأنواع وغيرها - أما الغزال بأنواعه المختلفة كالإمبالا وغزال طومسون وغيره فإن فرص اصطياده من قبل الأسود نادرة للغاية، وعادة مايقع فريسة لأنواع أخرى من القطط المفترسة مثل الشيتا والذى هو من أسرع حيوانات الغاب أو الفهد (leopard) والذى يتسلق الشجر ويقفز على فريسته من أعلى قبل أن تشرع فى الفرار ..
أما ذكر الأسود (الليث) فدوره يتوقف على سنه ومكانته لدى قبيلة الإناث .. فإن كان شاباً صغيراً حديث العهد بالانفصال عن قبيلته الأم كان عليه أن يصطاد بمفرده أو بالتعاون مع ذكر آخر من سنه (وبالطبع يجب أن يكون الهجوم هنا من الخلف كى يتحاشى الأسد قرون الحيوان أو أسنانه الحادة) .. أما إذا نجح هذا الأسد فى السيطرة على مجموعة من الإناث صار هو ذكرهم الأول ودوره هنا هو فرض حمايته على المجموع، فهو يهاجم الضباع التى تبغى قتل أشبالهم وسرقة فرائسهم .. وأحيانا يتدخل الليث لإسقاط فريسة ضخمة يصعب اقتناصها مثل الجاموس الوحشى أو الزراف بل وأحيانا الأفيال - ففى بعض الغابات الإفريقية حيث قضت القبائل هناك تماماً على معظم الحياة البرية بعد أن تم اصطياد جميع أنواع الغزال والظباء كالـ(antelope) وخلافه للغذاء أو فى بتسوانا حيث يشتد الجفاف وتندر الفرائس الأخرى لم يبق للأسود خيار سوى الهجوم على الأفيال وهى التى يحرم القانون اصطيادها - وبالطبع فهذه مهمة شديدة المشقة والخطورة بالنسبة للأسود - وقد يخسر بعض الأسود حياتهم فى سبيل مخاطرة كهذه - فالأفيال تأتى بجمعها وتهاجم الأسود بأرجلها الثقيلة - ويحدث ذلك أيضاً فى حالة الجاموس الوحشى الذى يأتى بأعداد غفيرة وينطح الأسود لكى يخلص صغاره من أنيابهم ..
هذا هو صراع الغاب ياأستاذى الكبير - وهو صراع خال من الكبرياء والترفع والكرامة - وإنما قاتل ومقتول .. وليس فى صراع الغاب أية فلسفة أو علوم إنسانية .. وليس فى انقضاض الفأر أو العرسة على الحمام والدواجن أية فلسفة أو كبرياء أو عواطف .. وليس فى قتل الإنسان لكل هذه الحيوانات المستأنسة التى يتغذى عليها كل يوم أية فلسفة أو عاطفة .. المسألة هنا

برمتها قاتل ومقتول، وآكل ومأكول، وحى يأكل ميت .. ومنتصر ومهزوم .. فقط هكذا ..
ثم تعال هنا ..
ماهى المشكلة فى الافتراس؟ ولماذا كان التمنع عن الافتراس يعنى استيقاظ الضمير؟ ألا تفترس أنت أيضاً طيوراً وأبقاراً وأسماكاً كل يوم؟
أين الضمير هنا وأنت تذبح طائراً وادعاً كالحمامة بعد أن أطعمته لسنوات؟
وكيف تتحدث عن ضمير الأسد الذى انقض على مدربه بينما يسمح لك ضميرك أن تفترس كل هذه الكائنات المستأنسة كل يوم؟
إن القضية هنا هى أن هذه الحيوانات تأتى إليك فى طبق شيك على مائدة شيك فلا تنتبه لحقيقة أن هذا الكائن قد تم ذبحه وتقطيعه وتشريحه وشواءه قبل أن يصل إلى شوكتك وسكينك .. أليس قتل هذا الحيوان هو أيضاً افتراس شأنه شأن صراع الغاب؟
إن أى كائن لكى يعيش يجب عليه أن يقتل كائناً آخر .. إن الافتراس والقتل هم سنة هذا الكون برمته .. ليس فقط فى عالم الأحياء بل فى جميع العوالم ماعلمناه ومالم نعلمه - الثقب الأسود يبتلع النجوم - والانفجار النجمى يمحو الكواكب - والماء يطفىء النار - والصدأ يأكل الحديد - والعدم ينهى الوجود ..
أليس كذلك ..؟

أما الجمل الذى يتوقف عن مضاجعة أنثاه إذا ماوجد عيناً تراقبه فهو أمر لاعلم لى به - وإن كان ذلك صحيحاً فلايزال نفس السؤال قائماً وذلك هو: ماهو السبب الذى صقل نفس الجمل وأيقظ ضميره ولم يحدث نفس الشىء للصرصار ..؟

ثم نأتى للأسد الذى هجم على مدربه محمد الحلو ثم مات كمداً .. وهو المثال الذى يسوقه الدكتور مصطفى محمود للشهادة على قضية الضمير وكيف أنه قبس من الخالق ونور يبثه الإله فى قلوب خلقه ..
حسناً ياأستاذى العزيز .. كم من أسد هجم على مدربه وقتله ولم ينتحر كمداً؟
إن هذه الحالة هى حالة فردية وعجيبة تحتاج منا إلى ترو وتفكير كى نفسر ذلك الذى حدث ..
وبداية أقول أن المصير المروع الذى نال المدرب محمد الحلو هو مصير ينال عدد ليس بالقليل من مدربى الحيوانات المفترسة .. فالكائن المفترس أياً مافعلت به لتنزع عنه صفة الافتراس والهجوم لايزال كائناً مفترساً .. إذ

لازال يحمل الصفات الوراثية بداخله التى تميزه عن غيره من الكائنات المستأنسة والأليفة ..
وترويض الحيوان المفترس عمل شاق ودؤوب يبدأ من يوم أن يولد هذا الحيوان - فتقلم أظافره ويتم إطعامه والعناية به ومداعبته كل يوم حتى يترسخ فى ذهنه أن هذا الكائن القائم على قدميه الخلفيتين هو مصدر حياته وسيده - ثم يبدأ المدرب فى ترويضه على القفز واللعب - ويتم ذلك عن طريق إغوائه بقطع اللحم هنا وهناك - ناهيك عن الضرب المبرح منذ الصغر - وهكذا يتم تقليم أظافر هذا الكائن الذى جبل على الافتراس والهجوم .. هذا الكائن الذى ولد فى الأسر وعاش مطية لسيده إن أطلقته فى الغاب لمات جوعاً أو لقتلته الأسود الأخرى .. فقد عاش حياته بدون حاجة لأن يطارد فريسة أو أن يدافع عن حياته أمام الأسود الأخرى وسائر أخطار البرية - إلا أن غرائزه البرية لازالت كما هى طبقاً لصفاته الوراثية .. وهو إن هجم على مدربه إنما هو يطيع صفاته الوراثية والتى هى تركيبته الجينية التى أدت به عبر أزمنة التطور السحيقة إلى أن يصير على ماهو عليه الآن - وأنت إذا ماأتيت وحاولت نزع هذه الصفات عنه إذا بك تتحدى مسار الطبيعة ومسار التطور ..
إن الحيوان المفترس قد تطور جسده وأعدته الطبيعة لكى يفعل شيئاً واحداً: القتل ..
إن اللعب مع الأسد هو لعب بالنار ..
أنت بإمكانك أن تربى تمساحاً صغيراً فى بحيرة مسورة - ويمكنك أن تطعمه كل يوم بل ويمكنك أن تدربه على أن يستجيب لصفارتك عندما يحين ميعاد إطعامه .. إلا أنك إذا أخطأت يوماً وزلت قدمك فى هذا المستنقع لنلت مصيراً غاية فى السوء ..
أين ضمير التمساح هنا؟ ولماذا لم يستيقظ رغم العناية والتدليل لسنوات؟
إن القضية هنا ليست قضية ضمير ونور إلهى وقبس من الرحمن .. إن القضية هنا هى صراع التطور، وهو ماسوف نأتى إليه فى أبواب قادمة ..
أما بخصوص الأسد الذى هجم على الحلو فيجب علينا أولاً أن نتحرى الدقة فى الحديث حينما نقول أن الأسد انتحر كمداً وحزناً على مدربه - إذ يجب علينا أن نلتزم بالموضوعية فى تحليل ماحدث بعيداً عن التحيز أو الانسياق وراء العواطف الجياشة .. فالذى حدث بعد هجوم الأسد سلطان على المدرب محمد الحلو أن خشى العاملون بالسيرك الاقتراب منه فتم حبسه وعزله تماماً، وذلك لأن العاملين بالسيرك يعلمون تمام العلم أنهم يتعاملون مع كائن مفترس - وفى مفهومهم أن ذلك الحيوان قد عاد إلى طبيعته البرية المتوحشة ولاسبيل

إلى السيطرة عليه الآن - فتخوف العاملون بالسيرك من الاقتراب منه خاصة وأن هذا الأسد كان رفيق الحلو منذ ولادته، وكونه يقدم على ذلك فهذا يعنى أنه لايؤمن له ثانية ..
الأمر الثانى الذى أظنه أنا هنا هو أن هذا الحيوان المفترس قد أصابه الجنون - فالجنون يصيب الحيوانات أيضاً وليس الإنسان فقط - وعبر أعوام من الضرب والنهر والزجر والقفز وربما أطنان المخدرات جن الأسد ..
ثم دعنا أن نفترض أن الأسد قد مات كمداً وحزناً بالفعل .. ماالذى يدلنا ذلك عليه؟ إن أمور كالحزن والاكتئاب والوفاء هى أمور معروفة فى عالم الحيوان - ولكن مالاأرتاح له أنا هنا هو حشر فكرة الإله فى المنتصف دون أن نفتح أعيننا على الأسباب العلمية والتطورية لذلك السلوك .. فجذور الأسباب الحقيقية لهذه السلوكيات تكمن فى تطور الكائنات وأساليب بقاء النوع وصراع البقاء .. وكل هذه السلوكيات مردودة فى أصلها إلى كيمياء فى الجسم - فى هرمونات الغضب - وهرمونات الهدوء .. وكيمياء القلق .. وكيمياء التوتر .. وكيمياء الاكتئاب - وآلاف العوامل الكيميائية والنفسية والعصبية التى تحكم تصرفات الكائنات، ويجب علينا أولاً أن نلم بكل ذلك قبل أن نطلق أية ادعاءات لايساندها أى دليل علمى ..

ماهو الضمير إذن ..
الضمير هو إحساس داخلى واقتناع مبدئى بماهو خطأ وماهو صواب .. هذا الاقتناع منشأه التركيبة الجينية للفرد وتفاعل ذلك مع البيئة التى نشأ فيها هذا الفرد - ومن بين آلاف التراكيب الجينية وآلاف البيئات وتفاعل هذا بذاك يتنوع الضمير وتتنوع المبادىء ..
المبادىء فى مجملها هى قوانين يضعها البشر لتضمن لهم حياتهم وحياة من يعنيه أمرهم من الآخرين - وتضمن لهم إمكانية تحسين هذه الحياة دون الإضرار بمن يعنيه أمرهم من الآخرين .. وبالطبع ذلك يتغير طبقاً لعوامل النشأة والمجتمع والفكر العام ..
فى ضمير جماعات الإسلام المسلحة أن ذبح الآخرين والتلذذ بذلك هو أمر يثلج الصدر ويريح الضمير ..
وفى ضمير من ألقى القنبلة النووية على هيروشيما أن مافعله هو عين الصواب ونام ليلتها قرير العين ..
فقد سأل السيد Paul Tibbets عن إحساسه بعد أن قتل ١٤٠ ألف مدنى فى هيروشيما وأجاب أنه ينام قرير العين كل ليلة ..

وفى ضمير هولاكو أن حرق وإغراق جميع كتب العلم والفكر التى طورتها حضارة الرافدين فى نهر دجلة إلى أن تغير لون الماء بلون الحبر هو إنجاز عظيم وحميد ..
وفى ضمير حاكم العراق الذى أهلك آلاف الأكراد أن مافعله هو عين الصواب ..
وفى ضمير حكام إسرائيل أن قتل أطفال فلسطين هو أمر لاغبار عليه ..
وفى ضمير الحركات المسلحة بفلسطين أن قتل المدنيين اليهود هو أسرع وسيلة للوصول إلى جنة الخلد ..
وفى ضمير الشعوب الآسيوية أن تُشحن القطط والكلاب فى أقفاص حديدية إلى حيث يتم خنقهم واحداً تلو الآخر أمام أقرانهم المزدحمين فى القفص - ثم أكلهم ..
وفى اليابان يتم اصطياد الحيتان عن طريق إطلاق رمح فى مقدمته عبوة متفجرة تخترق جسم الحوت وتنفجر بداخله - وبذلك ينفجر الحيوان من الداخل ويموت موتاً بطيئاً بشعاً - وهو أمر لاغبار عليه مطلقاً فى اليابان وإن أثار غضب الدول الغربية ..
وفى ضمير نبى الإسلام أن يتزوج من فتاة فى التاسعة لم تكد أن حاضت وهو ابن الثانية والخمسين ويبيت هو وأبيها مرتاحى الضمير ..
ونفس ذلك الرجل لايضيره أن يجمع رجال قبيلته حول امرأة أخطأت ويرجمونها بالطوب والحجارة حتى ينفجر رأسها وتموت ..
وضمير غاندى سمح له أن ينام عارياً وسط فتايات مراهقات تصغرنه على الأقل بخمسين عاماً .. وسببه فى ذلك أنه أراد أن يختبر نفسه وقدرته على التحكم فى غرائزه ..
وفى ضمير تاجر العبيد أن يصطاد صفوة شباب القبائل الإفريقية ويبيعهم تماماً كما تباع الخردوات والحلى وأن يتخذ نسائهم سريرات وخادمات ووصيفات وفى نفس الوقت يقطع يد من يسرق رغيفاً ولايؤنبه ضميره حينما يسرق هو شعباً بأكمله ..
وفى ضمير ملوك أوروبا فى القرون الماضية أن استعمار بلاد العالم والدوس بالأقدام على ساكنيها أمر مشروع ..
وفى ضمير نيلسون مانديلا أن زرع المتفجرات فى أماكن تجمع السكان البيض فى جوهانسبرج وقتل عشرات المدنيين هو أمر لاغبار عليه ..
وفى ضمير أرسطو أعظم الفلاسفة أن التخلص من الأطفال المعاقين هو أمر يجب على البشرية أن تتبعه - وهو أيضاً من قال بأن العبيد قد خلقوا عبيداً وأنهم لايصلحون لشىء سوى ذلك ..

إن كل هؤلاء الذين ذكرتهم ينامون مرتاحى البال قريرى العين سعداء الضمير .. ففى مفهومهم أن مايفعلونه صحيح - ولاغبار عليه بالمرة .. بل إن منعهم من فعل مايرونه صحيحاً هو الخطأ فى نظرهم ..
إن من يحارب الجماعات الإسلامية ويحاول نهيهم عن فظائعهم لهو كافر فى نظرهم .. ومن يحاسب حاكم العراق على قتله للمدنيين الأبرياء خائن .. ومن يمنع الآسيويين من خنق الكلاب والقطط واحداً تلو الآخر أمام أعين أقرانهم هو إنسان وضيع يحاول أن يمنعهم من ممارسة حياتهم اليومية وتوفير الطعام لأهليهم .. ومن يحتج على اصطياد اليابانيين للحيتان هو منافق فهو أيضاً يصطاد أسماكاً أخرى ويقتل أبقاراً وأغناماً وماشية لإطعام نفسه وأهله كل يوم .. ومن يحاول منع تجارة الرقيق متسلط يتدخل فى شؤون الآخرين ويحاول منعهم من جلب القوة العاملة التى يحتاجها مجتمعهم .. ومن يعترض على رجم الزانية قد ينتهى به الحال إلى جوارها مقيداً بالحبال .. وفى نظر الرئيس ترومان ومؤيديه أن قرار إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما وناجازاكى هو قرار صائب ولو عاد بهم الزمن ثانية لفعلوا نفس الشىء - فهو القرار الذى أدى إلى إنهاء الحرب العالمية الثانية ووضع حداً للجنون الذى حاق بالعالم آنذاك ..
إن القضية ياسيدى الفاضل ليست قبس من الرحمن ولاهى بوصلة تضىء لك الطريق ألهمها لك خالقك .. وإنما القضية هى بقاء النوع .. البقاء للأصلح، والأقوى، والأدهى، والأقدر على التكيف ..
ومن هذا الصراع عبر الأزمنة السحيقة نشأت أنا وأنت والآخرين على النحو الذى تراه اليوم ..
ولايزال الصراع قائماً ..

• • • • •

وقبل أن أنهى كلامى فى هذا الصدد أود لو علقت سريعاً على نقطة لايمكننى تركها دون تعليق، تلك هى جملة مصطفى محمود الأخيرة فى هذا الباب والتى يقول فيها : "يقول الله فى الحديث القدسى للصوفى محمد عبد الجبار: كيف تيأس منى وفى قلبك سفيرى ومتحدثى .."
وتعليقى هنا هو: من هو ذلك المدعو بالسيد عبد الجبار؟
وهل يضيف مصطفى محمود بجملته هذه نبياً جديداً لانعرفه إلى سلسلة الأنبياء الذين تحادثهم الآلهة؟ وماقول مشايخ الإسلام فى هذا الادعاء؟
سؤال يهمنى أن أجد الإجابة عليه ..

١٠) هل مناسك الحج وثنية؟

السؤال هذه المرة عن وثنية مناسك الحج - والبناء الحجرى الذى يطوف حوله المسلمون، ورجم الشيطان والهرولة وتقبيل الحجر الأسود وثوب الإحرام والسبع طوفات والسبع رجمات والسبع هرولات، وهى كلها بقايا الخرافات الطلسمية فى الشعوذات القديمة ..
ويرد مصطفى محمود قائلاً: "إن فى قوانين المادة تجد أن الأصغر يطوف حول الأكبر - الإلكترون حول النواة، والقمر حول الأرض، والأرض حول الشمس والشمس حول المجرة وهكذا إلى أن نصل إلى الأكبر مطلقاً وهو الله .. وبما إن الله أكبر من كل شىء إذن حسب قانونك العلمى لابد أن يطوف حوله كل شىء .. وأنت الآن تطوف حوله ضمن مجموعتك الشمسية رغم أنفك فلا شىء ثابت فى الكون إلا الله الصمد الصامد الساكن والكل فى حركة حوله .."
حسناً ياسيدى الفاضل - إجابتك جد مبهرة، وقد دفعتنى للتفكير، فما تقوله صحيح، نحن جميعاً ندور حول ماهو أكبر، والأكبر يدور حول ماهو أكبر منه ..
كلامك جميل ..
إلا أنك وقعت فى خطأ كبير هنا - ذلك أنك جعلت الخالق الذى تفرضه علينا خاضعاً لقوانين الطبيعة أيضاً - وهو ماينناقض كلامك فى أولى صفحات كتابك من أن الله لايخضع لقوانين الطبيعة ..
إن كان الله لايخضع لقوانين الطبيعة - لماذا جائت إجابتك هذه المرة من أن "وبالتالى وحسب قانونك العلمى لابد أن يطوف حوله كل شىء .."
لماذا استخدمت القانون العلمى هذه المرة ورفضته حينذاك ..؟
أنت حينما تقول أن الله هو الصمد الصامد الساكن الذى لايحركه شىء - إذن فبالتبعية لابد له أن يكون ساكناً تمام السكون!
هذا هو المطلق الذى تتحدث عنه ياأستاذى الكبير ..
لقد قررت أن الله هو الساكن الصامد الوحيد فى هذا الكون - إلا أنك بعد ذلك تدعى أنه يحادثنا ويستجيب لنا ويخلق ويبعث ويحيى ويميت .. كيف ذلك؟
إن كان هو صامداً ساكناً "مطلقاً" فلابد أنه "مطلق" السكون - وليس نصف أو ربع ذلك ..

وأعود إلى السؤال الأول عن وثنية مناسك الحج ..

ومن المعروف أن هذه المناسك جميعها هى فى حقيقتها مناسك العرب الأوائل - وقبل الإسلام كانت قبائل شبه الجزيرة العربية تحج إلى عدة بيوت أو (كعبات) - إلا أن أكبرها كانت كعبة مكة .. بل إن جميع المناسك التى هى إسلامية الآن من طواف لمرات سبع إلى الهرولة بين الصفا والمروة والرجم وحلق الشعر ثم بعد ذلك ذبح القرابين وإنهاء الشعائر بالوقوف فى عرفة هى كلها مناسك العرب قبل الإسلام .. بل إن اسم الله نفسه كان موجوداً قبل الإسلام كأعظم إله للكعبة - وهو أعلى قيمة من هبل واللات والعزى ومناة - ومافعله نبى الإسلام أنه قوض هذه الآلهة وأبقى على أكبرهم (الله) - وبذلك وحد القبائل كلها تحت راية واحدة ..

وتقبيل الحجر الأسود كان أيضاً متبعاً قبل ظهور الإسلام .. ولى هنا أن أحيى عمر بن الخطاب الذى قال فى قوة وثقة مخاطباً الحجر الأسود: "إنك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله قبلك ماقبلتك" .. وبعض العرب كانوا يطوفون عراة وسببهم فى ذلك أنهم لايطوفون حول بيت الإله فى ملابس أذنبوا فيها - فأتى الإسلام واحتضن هذه الشعيرة إلا أن محمد فرض ثوب الإحرام البسيط لتغطية العورة .. والحج كانت له مواسم معلومة وله بيوت كثيرة مثل بيت الأقصر وذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت رضاء ونجران وبت اللات وكعبة شداد الأيادى والكعبة اليمانية وبيت العزى وبيت مناة، وشعيرته كانت دائماً الأشواط السبعة .. أما مكة فقد تميزت نظراً لموقعها المتمركز بين طرق القوافل فكانت محطة تجارية ودينية وسبب ذلك هو بئر زمزم والحجر الأسود .. فقد قدس القدماء أحجار النيازك لاعتقادهم أنها سقطت من البيت الإلهى فى السماء ولذلك فلابد وأن يكون البيت الإلهى فوق مكان سقوط الحجر مباشرة .. والحجر الأسود ليس متفرداً فى كونه حجراً مقدساً بل هناك الكثير من الأحجار المقدسة مثل حجر "بيت إيل" عند اليهود وحجر البنبن فى معبد رع بمصر القديمة وصخرة أولورو الضخمة وأحجار الأولجا لدى سكان أستراليا الأصليين وأحجار وينونا عند الهنود الحمر فى المكان الذى هو حالياً ولاية أريزونا الأمريكية .. وأيضاً حجر بلارنى فى أيرلندا والذى يعتقد قدامى الأيرلنديين أن تقبيله يهب المرء بلاغة الحديث - ولايزال تقبيل هذا الحجر متبعاً إلى يومنا هذا بل ويحج إليه كبار العلماء والمفكرين والباحثين وليس العامة فقط، إذ يبدو لى أن ذلك التخلف العقلى ليس قاصراً علينا نحن فقط كشرقيين ..!

وما لايلاحظه الدكتور مصطفى محمود هنا هو أنه حينما ينفى تهمة الوثنية عن طقوس الحج بقوله أنها كلها رموز فنحن نطوف بالمعنى الأكبر ونرجم "معنى" الشيطان ونهرول كما نهرول ونسعى فى حياتنا الدنيا فإنه أيضاً

ينفى تهمة الوثنية عن عرب الجاهلية أنفسهم، فهم أصحاب هذه الطقوس بل هم أول من طور هذه الشعائر ..
وأناشد القارىء الرجوع إلى كتاب "رب الزمان" للدكتور سيد القمنى - وهو كتاب قيم بحق .. وتحت عنوان "منذ فجر التاريخ والحق فريضة دينية" يقدم لنا الدكتور سيد القمنى بحثاً عميقاً لمنشأ الحج وشعائره لدى عرب الجاهلية - ويشرح كيف تطورت هذه الشعائر ويوضح لنا جذورها التاريخية والعوامل الجغرافية والسياسية بل واللغوية التى أدت بتطور هذه الشعائر إلى مانراه الآن ..
ولعل أبلغ مقولات الدكتور سيد القمنى فى كتابه ذلك هو أننا كشرقيين لاننظر إلى الأمور من منظور تطورى، ولانريد أن نشغل عقولنا ونرهق أذهاننا فى محاولة فهم كيف تطورت الأشياء إلى أن وصلت إلى ماهى عليه الآن، وكيف أنها لازالت تتطور ولن تزل - وأنه ليست هناك نهاية مطاف، وإنما ديناميكية وحركة دائمة إلى ماشاء الله .. ولكننا كشرقيين نرتكن إلى التفاسير السريعة المريحة - وهو أن الله قد أراد للأمور أن تكون على هذا الشكل فكانت ..
نحن كشرقيين لانريد أن نفهم كيف أن الإسلام أو المسيحية أو اليهودية هى كلها أيديولوجيات نشأت وتطورت من أيديولوجيات سبقتها بآلاف السنين - ولازالت هذه الأيديولوجيات على تطورها - ولسوف ينتج المستقبل أيديولوجيات جديدة هى فى أصلها ترتكز على الأيديولوجيات الحالية - وهكذا .. ولمزيد من التفاصيل أناشد القارىء الرجوع إلى مايكتبه المفكر داود سلمان الكعبى تحت عنوان "الإسلام وطقوس الجاهلية" والذى يشرح كيف أن معظم شعائر وحدود الإسلام هى فى أصلها شعائر وحدود ماسبق الإسلام من عقائد من مسيحية ويهودية وحنيفية وغيرها ..

ويبدو لى أن نظرية التطور لداروين قد أثرت تأثيراً كبيراً فى التفكير الغربى - إذ أن العقل الغربى الآن ينظر للأمور دائماً من منظور تطورى - إلا أننا فى مجتمعاتنا الشرقية وللأسف لانريد إرهاق أذهاننا فى سبر تلك الأغوار واقتفاء أثر كل كلمة وكل شعيرة وكل أيديولوجية - وإنما نحن نرتاح إلى اعتبار كل تلك الأمور برمتها أموراً مقدسة ..
الله أوحى إلى جبريل ونقل جبريل وحيه لمحمد من السماء السابعة - وهكذا هبط القرآن كاملاً من لوحه المحفوظ – انتهينا ..
نحن لانريد أن نفهم، كما بح صوت الدكتور سيد القمنى وآخرين، أن القرآن تفاعل مع عصره - وعلى مدار ثلاثة وعشرين عاماً نسخ محمد آيات ولغى البعض وغير من مواقفه .. وماتلائم مع العهد المكى لايتلائم بالضرورة مع

العهد المدنى - فمن "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" و "لكم دينكم ولى دين" إلى "قاتلوا المشركين كافة" و "إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب" و"اقتلوهم حيث ثقفتموهم" .. إلى آخره ..

• • • • •

أما مايقوله الدكتور مصطفى محمود عن الرقم سبعة فهو أمر يدعو للتفكير ..

يقول الدكتور مصطفى محمود: "ورقم ٧ الذى تسخر منه .. دعنى أسألك ماالسر فى أن درجات السلم الموسيقى ٧ وبعد المقام السابع يأتى جواب الصول من جديد، وكذلك درجات الطيف الضوئى ٧ وكذلك تدور الإلكترونات حول نواة الذرة فى نطاقات ٧ والجنين لايكتمل إلا فى الشهر ٧ إذا ولد قبل ذلك يموت وأيام الأسبوع عندنا وعند جميع أفراد الجنس البشرى ٧ .. ألا يدل ذلك على شيء .."

وفى الحقيقة هذا كلام جدير بالبحث والدراسة - وأعود إلى كتاب الدكتور سيد القمنى القيم "رب الزمان" - وتحت عنوان "سر الأسماء المقدسة" يقول أن الساميين القدماء لاحظوا أنه منذ ولادة القمر إلى اكتماله بدراً ١٤ يوماً ومن ظهوره بدراً إلى محاقه ١٤ يوماً فقسموا الزمن إلى ٤ أقسام متساوية (٧ أيام للإسبوع) وهو ربع الشهر القمرى - وكذلك البابليون الذين درسوا الأفلاك (المشترى: "الإله مردوخ"، الزهرة : "الإله عشتار"، زحل: "الإله نينيب"، عطارد: "الإله نابو"، المريخ: "الإله نرجال" والشمس: "الإله شماس" والقمر: "الإله سين") وعددهم سبعة آلهة .. ويشرح الدكتور سيد القمنى كيف أن تلك المعتقدات امتدت عبر تاريخ السكسونيين فى أوروبا لتتطور إلى مانحن عليه الآن من أسماء الإسبوع إلخ .. وكلها لها سبب تطورى ولم تنشأ من لاشيء - وهو ماكنت أتوقع من الدكتور مصطفى محمود أن يطرحه وهو العالم الدؤوب المستفسر لاأن يأخذنا إلى منتصف الطريق ويتركنا هناك ..

إن على هذا النحو تجب دراسة الأمور ياأستاذى الكبير ..

وفى الحقيقة فإن تفسير الدكتور سيد القمنى لرقم ٧ ولقضية الطواف (حيث نظر الإنسان القديم إلى السماء وتبين له طواف كل صغير حول ماهو أكبر منه) هو تفسير مقبول وحسن - ولقد فكرت مراراً فى قضية الرقم ٧ - فما يقوله الدكتور مصطفى محمود لازال صحيحاً - فدرجات الطيف الضوئى ٧ ونطاقات الإلكترون ٧ وعدد فقرات العنق ٧ تقريباً فى جميع الفقاريات -

أضف إلى ذلك أن الأس الهيدروجينى فى الكيمياء لدرجة التعادل هو ٧، والمدهش أيضاً أن الرقم ٧ هو آخر رقم فى سلسلة طويلة من الأرقام المكونة لعدد (جراهام) وعدد جراهام تعريفه أنه هو السقف الأعلى الذى يحد حل نظرية (رامزى) .. ونظرية (رامزى) تنسب إلى علم الرياضيات الذى يعنى بدراسة منشأ النظام فى الكون، وعندما سئل العالم (رونالد جراهام) عن رقمه ذاك أجاب أنه لايعرف كيف يمكن كتابته، وكل مايمكن أن يقوله هو أن الرقم ٧ هو آخر رقم فى سلسلة الأرقام التى تكون هذا الرقم الذى سمى بـ (Graham's number) نسبة إلى هذا العالم ..

ولى هنا أن أطرح ماتوصلت إليه أنا بخصوص الرقم ٧ بعد تفكير - وذلك أن هذا الرقم قد تكون له دلالة ما أو دور ما فى عمارة أو هندسة ذلك الكون كما نفهمه نحن البشر - أو كما نراه نحن كبشر - وبما إننا - كبشر- لسنا سوى نتاج هذا الكون - فلربما تصرفنا نحن كما تتصرف الإلكترونات ووحدات الطاقة - فنحن والإلكترونات والطيف الشمسى ودرجات السلم الموسيقى لسنا سوى إظهارات لنفس الشىء - هذا الكون المهيب ..
وأنا ليس لدى دليل قاطع على ماأقول - ولكنى أطرح ذلك كنظرية قابلة للبحث والدراسة والنقد .. إن المشكلة تكمن فى عقولنا الشرقية والتى تتكاسل عن دراسة أصل ومنشأ الأمور - وإنما نستكين للتفاسير السريعة السهلة المريحة التى لاترهق الأذهان - خاصة عندما ينتهى بنا اعتناق مثل هذه التفسيرات إلى جنان الخلد - والنجاة من الجحيم .. وقد يكون ذلك مافطن إليه الدكتور مصطفى محمود فجائت كتاباته السهلة اليسيرة - فقرأها الشباب بنهم، ومنهم أنا، إلا أن الوقت قد حان كى أعيد النظر - وأن أعيد النظر فى إعادة النظر، تماماً كما فعلت أنت ياأستاذى الكبير، ولكن فى عكس الاتجاه ..

إن إدعاءاً واحداً من ادعاءات مصطفى محمود فى كتابه ذلك قد تحتاج منا العمر كله فى التحليل والدراسة - لاأن نأخذ الأمور على علاتها ونستكين لما بدا صواباً أو بدا مريحاً ..
وإن كان هناك شىء أتمناه من كتابى هذا لهو أن ينتهج شبابنا منهجاً تحليلياً منهجياً فى النظر إلى الأمور - وألا يتوقف إذا ماواجهته إشكالية فيها شىء من التعقيد ليحيل الأمر برمته إلى الغيبيات - بل عليه أن يستمر فى التفكير المنهجى وإن استغرق ذلك العمر كله ..
ولسوف تزداد الأمور وضوحاً فى عقلك أيها الشاب إن أنت فعلت ذلك ..

١١) لماذا لايكون القرآن من تأليف محمد؟

يقول الملحد: "لاأريد أن أجرحك فأنا أعلم اعتزازك بالقرآن وأنا معك فى أنه كتاب قيم .. ولكن لماذا لايكون من تأليف محمد؟ إن رجلاً فى عظمة محمد لايستغرب منه أن يضع كتابا فى عظمة القرآن .. ونحن فى عصر من الصعب أن نقنع فيه إنسانا بأن هناك ملاكاً اسمه جبريل نزل من السماء بكتاب ليوحى به إلى أحد .."
ويرد مصطفى محمود، فى هدوء، قائلاً: "بل نحن فى عصر يسهل فيه تماماً أن نصدق بأن هناك ملائكة لاترى، وبأن الحقائق يمكن أن تلقى إلى الإنسان وحياً .. فهم يتكلمون اليوم عن أطباق طائره تنزل على الأرض من كواكب بعيدة وأشعة غير منظورة تقتل، وأمواجاً لاسلكية تحدد الأهداف وتضربها .. وصور تتحول إلى ذبذبات فى الهواء ثم تستقبل فى أجهزة صغيرة كعلب التبغ .. وكاميرات تصور الأشباح .. وعيوناً ترى فى الظلام .. ورجلاً يمشى على القمر .. وسفينة تنزل على المريخ .. لم يعد غريباً أن نسمع أن الله أرسل ملكاً خفياً من ملائكته .. وأنه ألقى بوحيه على أحد أنبيائه .. لقد أصبح وجود جبريل اليوم حقيقة من الدرجة الثانية .. وأقل عجباً وغرابة مما نرى ونسمع كل يوم .."

حسناً ياأستاذى الكبير ..إن نصف ماتقوله صحيح - إلا أن استنتاجك مع الأسف فيه خلط واضح ..
ودعنا نتناول إجابتك بالتحليل ..
بداية أقول أن بعض أطروحاتك سليمة - مثل الأشعة غير المنظورة التى تخرق الحديد - والصور التى تتحول إلى ذبذبات فى الهواء ثم تستقبل فى أجهزة صغيرة .. إلخ .. إلا أنك عندما تتحدث عن أطباق طائرة تنزل على الأرض من كواكب بعيدة فهذا كلام غير مدعوم بدلائل علمية .. وأيضاً عندما تتحدث عن كاميرات تصور الأشباح فهذا أيضاً شطح محض ..
أية كاميرات تلك ..؟ وأية أشباح ..؟
إلا أننى لازلت اتفهم أطروحاتك .. فما تريد قوله هنا هو أن خرافة الأمس هى حقيقة اليوم - وأن العلم بتطوره المذهل الآن يمَكننا أيضاً من تصور إمكانية الوحى الإلهى وهبوط جبريل على محمد وتلقيه القرآن .. وفى الحقيقة أنا يهمنى أن أناقش أطروحتك هذه إذ أنها تحوى تضليلاً هائلاً للشباب الصغير حديث العهد بالقراءة .. فالكلام فى ظاهره جميل كالعادة - إلا أنه يحوى خطئاً عظيماً يؤسفنى أن تكون أنت مصدره ياأستاذى العزيز ..

ولبيان هذا الخطأ لابد لنا بداية أن نعرف ما هو "العلم" ..
إن التعريف المقبول لكلمة العلم - أو بالتحديد للكلمة الإنجليزية (Science) هو "الأسلوب المنهجى الذى يعتمد على التجربة غير المنحازة ليقدم تفسيراً مدعماً بالحقائق لظواهر الطبيعة" .. وفى الحقيقة فأنا لم أجد مرادفاً لذلك التعريف فى اللغة العربية - على ثرائها، ولقد بحثت كثيراً فى تعريف كلمة (العلم) العربية واختلاف ذلك عن (المعرفة) إلا أننى لم أصل إلى نتيجة واضحة - والأمر متروك لعلماء اللغة، فلست متبحراً فى علوم اللغة العربية - إلا أن الفارق بين التعريف العربى والتعريف الغربى لكلمة العلم هو الفارق بين حضارتين ..
الفارق البسيط، والذى هو فارق ضخم فى حقيقته، هو فى الأخذ بالتجربة .. والتجربة هنا عمياء - غير منحازة - لامكان فيها لقدسية ولاامتيازات .. وهو فى اعتقادى مالا وجود له فى حياة العرب ..
إن فكرنا الشرقى يلقى بالعلم فى صفيحة النفايات إذا ماتعارض مع المقدسات ..
فالغيب والسحر والشعوذة والأشباح ومالانراه أهم مما نراه ..
هذا هو الحال فى مجتمعنا الشرقى .. للأسف ..
لذلك لازلنا نسوخ فى أساطير الأولين - البراق .. سبعون رأساً لجبريل .. نياق تخرج من صخور .. بحر ينشق لضربة عصا .. قمر ينشق إلى نصفين .. رجل يمشى على الماء .. أمرأة تحبل بلا رجل .. طفل يتكلم فى مهده .. طيور أبابيل تسحق الأفيال .. سفينة تحوى كل الكائنات الحية ذكراً وأنثى .. إلى آخر كل ذلك من مهازل وتخاريف ..
إن كل هذه الأمور خاضعة للتفسير العلمى، والتجربة العلمية غير المنحازة ..
إن ادعى أحدهم أن ناقة خرجت من صخرة فإن الأسلوب العلمى المنهجى هو الإتيان بهذه الصخرة أو ماشابهها من صخور ووضع ذلك تحت نفس الظروف البيئية وتدوين الملاحظات ..
هل سننتج نوقاً أم لا ..؟
والخطأ كل الخطأ أن نلقى بكل ذلك جانباً ونقول بالعلم البشرى والعلم الإلهى - فنحن بذلك نلقى بكل إمكانية للتحليل والتفكير فى صفيحة النفايات - فكل ماصعب حله عزيناه إلى الآلهة - وطالما تحدثنا عن علم إلهى وتدخل إلهى وإرادة إلهية صار كل شىء ممكناً إذن ..
إن العلم الذى تلقى به إلى صفيحة النفايات هو مامكنك من إذاعة برنامجك ليشاهده الملايين ..

وأنا أتفق معك حينما تقول أنك إذا حادثت أبناء القرون الماضية عن طائرة تقل المسافرين عبر المحيطات وكمبيوتر يأتى إليك بصورة صديقك وأنت فى مجلسك وأن ترسل رسالة فتصله "قبل أن يقوم من مقامه" لتصور أن ذلك كله من عمل عفاريت الجن .. كل ذلك صحيح .. إلا أن العلم لايتطور بين يوم وليلة ..

إن الطائرة التى تقلك عبر المحيطات والتى كانت خرافة الأمس بدأت منذ أن لاحظ الإنسان الأول طيران أوراق الشجر مع الريح، وطيران الفراش والطيور، وحركة دخان النار التى أشعلها، وحركة السحاب .. ومنذ ذلك الزمن السحيق تكونت الطائرة شيئاً فشيئاً إلى أن نجح الإخوان رايت وجراهام بل فى دفع أول جسم معدنى إلى الهواء ..

لقد تضاحك البعض عندما سقطت طائرة أورفيل رايت إلى الأرض عام ١٩٠٥ وتحطمت بعد أن حلقت قليلاً، ولابد أنهم تعجبوا من أمر هؤلاء المجانين الذين يبغون الطيران - وهو ما لاقبل للبشر به بالطبع فى مفهومهم فى ذلك الوقت .. ولو كان أن تراجع الإخوان رايت وخضعا لضحكاتهم لما تحققت المعجزة على يديهما وما حلق الإنسان فى الفضاء ..

ومدعى الدين لابد وأن يقبل بهذه الحقيقة الجديدة ولاشك فهى الآن واقع يراه رؤى العين .. إلا أنه لايزال يتمسك بالمعجزات ..

وكلما تطور العلم وقضى على خرافة ما كلما ابتدع مدعى الدين أمراً آخراً متحدياً للعلم، وكأنه يقول: حسناً، لقد حللت هذه المشكلة ولكن مارأيك فى تلك؟

مارأيك فى هذا الشيخ المبارك الذى يحادث الجان؟

وماقولك فى تلك الفتاة التى خرج عليها النبى إبراهيم من وراء شجرة فى الصحراء فحادثها وحادثته ..؟

وماقولك فى العروس التى انشقت الأرض وابتلعتها يوم زفافها بالأسكندرية ..؟

أليست كل هذه دلالات على الأشباح والأعمال والعفاريت الزرق ..؟

لاياسيدى الفاضل، إن كل هذه الظواهر لابد وأن تخضع إلى العلم والتجربة - وليس هناك أى شىء فى هذا الكون تمنعه قدسيته أو مكانته من الخضوع إلى التجربة وتدوين النتائج ..

والتجربة هنا أن تأتى بعدد من المفكرين والمتأملين ورعاة الأغنام والتجار والصادقين الأمناء وتضعهم فى غار حراء وأغوار مشابهة - ولهم أن يجلسوا بمفردهم فى هذه الأغوار لساعات طوال - يتأملون ويحادثون النجوم .. ولك أن تمضى فى هذا البحث لسنوات ..

هل سيرى أحدهم ملاكاً ..؟
هل سيحادث أحدهم إلهاً ..؟
هل سيَرى أحدهم مالا نراه نحن ..؟
هذا هو التفكير العلمى - ومامن شىء تمنعه قدسيته من الخضوع إلى التجربة العلمية ..
نعم لقد تطور العلم، ونحن الآن نرى مالم يره أبناء القرون الماضية من كائنات مجهرية وفيروسات وجسيمات متناهية فى الصغر إلى أجرام على أطراف الكون المعلوم لم يعد لها وجود الآن .. وحلت الإنترنت محل البلورة السحرية .. وحلت الطائرة محل البساط الطائر .. وعلوم بيئة وفسيولوجيا الحشرات أفهمتنا كيف يتبادل النمل والنحل المعلومات ولاداعى للرجوع إلى النبى سليمان ليترجم لنا مايقولون .. إلا أن هذه العلوم لاتتطور فى يوم وليلة، وإنما عبر قرون من العمل الشاق الدؤوب والمحاولة والخطأ - وسوف يتمكن أبناء القرون القادمة من رؤية أشياء لانراها نحن الآن - وسوف يتمكنون من اكتشاف سرعات فائقة لامقارنة لسرعاتنا الحالية بها، ولكن ذلك ليس وليد اللحظة، ولاهو يحدث فى ركن مظلم من آخر أركان العالم فى غار صخرى .. ولكنه وليد العلم والتجربة والمختبرات - وكلها أبحاث منشورة ومنقحة يمكن لأى فرد استخدامها وإعادة التجربة - وصنع نفس الشىء - أما أن تلقى بكل ذلك فى صفيحة النفايات وتفرض على أمراً لم يره أحد - ولم يدرسه أحد - ولم يختبر مصداقيته أحد - فهنا لنا وقفة ..
إن كل ادعاءات الأنبياء لهى أمور يمكن دراستها واختبارها بالمفهوم العلمى العصرى .. أمور كالإلهام والبصيرة والموهبة والإبداع والخيال بل وأمور أخرى مثل الهلوسة والصرع والفكرة الثابتة والوسواس القهرى وغيرها كلها تفسرها علوم إنسانية ونفسية واجتماعية بل وفسيولوجية .. وإن لم تفسرها هذه العلوم على نحو تام الآن فلازال الأمر قيد البحث والاجتهاد والتجربة، والعلم أبوابه مفتوحة للجميع ولانهاية للبحث والنظريات .. أما القول بأن الإيمان والدين لاينبغيا أن يقعا تحت الاختبار العلمى فهو قول خاطىء ومضلل - فهذا تحديداً هو الأفيون الذى تحدثنا عنه سابقاً ..
ورجل الدين ينبرى غاضباً إن حاولت أن تزن أقواله بميزان المنطق والعلم .. ففى مفهومه أن الله لاينبغى أن يوضع محل اختبار ..
وأنا أقول لم لا ..؟
فحينما تخبرنى عن أمرأة تضع وليدها دون أن يمسها رجل فهذا كلام لايدعمه أى منطق علمى .. ولكنك تطلب منى الإيمان والتصديق ..
حسناً .. أنا لن أؤمن بذلك ..

فإن أنا آمنت بذلك أكون قد ركلت كل العلوم البشرية إلى الشارع - وهى نفس العلوم التى مكنتك أنت من إذاعة كلامك عبر الأثير أو طباعة مقالاتك أو شحن كتبك عبر البحار ..
لقد تحدثت كثيراً ياأستاذى الكبير عن تشريحك للإنسان - وكيف أنك فتحت حقيبة ووجدت حقيبة .. فعندما شرحت الإنسان كنت تبحث عن ذلك الشىء بداخله - السر الأعظم - ماذا يحركه ..؟ ماذا يحُجمه ..؟ ماهى تلك الـ"أنا" التى تجعل من الإنسان إما راهباً وإما مجرماً .. إما شقياً وإما سعيداً - إما موهوباً وإما بليداً .. وفتحت الإنسان فلم تجد الإجابة .. لذا قررت أن تؤمن بقوة خارقة غيبية - لها رأس وعين ودماغ ويد .. كانت تحادثك عبر ثلاثين عاماً فلم تسمعها - إلى أن سمعتها أخيراً وحادثتها وصرت عبداً مخلصاً لها ..
ألا ترى معى أنك إنما خلقت إنساناً آخراً - ذكراً - ذا امكانيات خارقة؟
لماذا لم تتخيله أسداً أو ديناصوراً ..؟
لماذا لم تتخيله كوكباً أو نجماً ..؟
لماذا لم تتخيله موجة مغناطيسية أو جرماً عظيماً ..؟
دعنى أخبرك أنا لم لم تتخيله أنت أحد هؤلاء ..
أنت لم تتخيله أحد هؤلاء لأنك تريده أن يحادثك ويستمع إليك - ولاالأسود ولاالديناصورات ولاالموجات المغناطيسية تفعل ذلك ..
إذن فإلهك يتحدث العربية مثلك تماماً .. ويأمر وينهى .. ويغضب ويثأر .. ويرهب ويرغب .. ويجازى ويعذب .. ويهديك بنساء بيض وبكر مقصورات فى الخيام بحسبهن أعراباً إن أنت آمنت به .. ويسقيك صديداً ونحاساً مغلياً ويطعمك شوكاً وزقوماً إن سولت لك نفسك أن تفكر فى كنهه ومنشأه ..
أليس كذلك ..؟
أم أن هناك شىء غائب عن ذهنى فى تحليلى للأمور ..؟

● ● ● ● ●

ويستطرد مصطفى محمود قائلاً :"إن القران بشكله وعباراته وحروفه وما احتوى عليه من علوم ومعارف وأسرار وجمال بلاغى ودقة لغوية هو مما لايدخل فى قدرة بشر أن يؤلفه .. والله يتحدى المنكرين أمثالك ممن زعموا أن القرآن مؤلف .. "قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله" .. استعينوا بالجن والملائكة وعباقرة الإنس وأتوا بسورة من مثله .. ومازال التحدى قائما ولم يأت أحد بشىء .."

وهنا لنا وقفة .. فالسؤال هنا - وكما طرحه أحد المفكرين الشباب والذى أكن له كثير الاحترام هو: ماهو المقياس ..؟
أنت حينما تقول "فأتوا بسورة من مثله" - على أى نحو تريد أن يكون الكتاب المماثل ..؟
إن كلمة "فلتأت بمثله" هى كلمة طفولية غير ناضجة - شأنها شأن المراهق الصغير الذى يتباهى بحذائه أو سيارته الحديثة اللامعة بقوله "هات زيه" ..
هل الإتيان بمثل هذا الكتاب هو أن نأتى بكلام مسجوع؟
حسناً ..
إن معلقة واحدة من معلقات المتنبى أو المعرى لهى أكثر بلاغة من كثير من آى القرآن .. إقرأ معى هذا الكلام المعجز لأبى العلاء المعرى:

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باكٍ ولا ترنم شاد
وشبيهٌ صوت النعى إذا قيس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميادِ
صاحِ هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد
خففِ الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وأن قدم العهد هوان الآباء والأجداد
سر إن اسطعت فى الهواء رويداً لاختيالاً على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد

وهاهو ذا المتنبى يصُف كلامه السهل الممتنع كفصوص الدر والعقيق:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى .. وأسمعت كلماتى من به صمم ..
أنام ملء جفونى عن شواردها .. ويسهر الخلق جراها ويختصم ..
الخيل والليل والبيداء تعرفنى .. والسيف والرمح والقرطاس والقلم ..

أما حكيم الشعراء زهير بن أبى سلمى وهو من نظر إليه النبى محمد وكان عمره حينئذ مائة سنة وقال:"اللهم أعذنى من شيطانه" فقد أبدع قائلاً:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش .. ثمانين حولاً لاأبا لك يسأم ..
وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله .. ولكننى عن علم ما فى غد عم ..
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب .. تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم ..

ولايمكننى أن أنهى حديثى فى هذا الصدد بدون أن أعرض كلمات عملاق الكلمة صلاح عبد الصبور حينما يقول:

الناس فى بلادى جارحون كالصقور ..
غناؤهم كرجفة الشتاء فى ذؤابة المطر ..
وضحكهم يئز كاللهيب فى الحطب ..
خطاهمو تريد أن تسوخ فى التراب ..
ويقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون ..
لكنهم بشر..
وطيبون حين يملكون قبضتى نقود ..
ومؤمنون بالقدر ..

إن أى من هذه الأبيات فى تقديرى لهو أجود وأجزل بمكان من كثير من آى القرآن ..
ونحن لم ندرس جميع أنواع الشعر العربى قبل وبعد الإسلام لندرك أن النمط السجعى الذى اتبعه محمد فى القرآن لم يكن فريداً من نوعه حينئذ - فلسبب أو لآخر تم التغاضى عن دراسة النثر المسجوع مثل كلام الزبراء حينما تقول: "واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادى ليوأد ختلاً ،ويرق أنياباً عصلاً، وأن صخر الطود لينذر ثقلاً، لاتجدون عنه معلا" .. وغير ذلك من أنماط السجع الدينى الذى نبغ فيه الكثيرون مثل ابن صعب وربيعة بن ربيعة وبن ساعدة الأيادى وآخرين من كهنة العرب مثل شق وسطيح وغيرهم - وإنما كل ماوصلنا كان الكلام الفارغ الذى نسب إلى مسلمة بن حبيب والذى سمى فيما بعد بمسيلمة الكذاب والذى يقول: "يا ضفدع بنت ضفدعين، نقى ماتنقين، نصفك فى الماء ونصفك فى الطين، لاالماء تكدرين، ولاالشراب تمنعين" .. وهو بالطبع ماكان غرضه تشويه صورة مسيلمة لمعاداته لنبى الإسلام .. ومن الثابت أن محمد قد نهى عن سجع الكهان ربما لتشابه مع آى القرآن .. ولهذا السبب لم يعش الكثير منه بعد الإسلام وكل ماوصلنا لايتعدى أبيات قلائل معظمها ماينسب إلى مسلمة وليس له من هدف سوى التحقير من شأنه إذ ادعى النبوة ..

وليسمح لى القارىء أن أخرج قليلاً عن الموضوع الأصلى هنا .. إذ يحضرنى الآن مقالاً كنت قد قرأته للدكتورمصطفى محمود فى مطلع التسعينات يقول فيه مامفاده أن العقود الأولى من القرن العشرين كانت قد شهدت تصعيداً بل ودعماً للفكر المادى الإلحادى - من شيوعية إلى مادية جدلية إلى وجودية إلى ماركسية - وكان المراد آنذاك - فى رأى الدكتور

مصطفى محمود - هو عقد مؤامرة على العقل العربى والتأسيس لهذا الفكر الدخيل فى عقول شباب العرب - وفى ذلك المقال يذكر مصطفى محمود سؤالاً كان قد ألقاه فى شبابه على الدكتور لويس عوض عن نظرته للأديان السماوية - وجائت إجابة لويس عوض بقوله "هى أشعار بعضها جيد وبعضها ردىء" .. ولسوف أتعرض لإجابة لويس عوض لاحقاً - إلا أننى ينبغى علىّ أولاً أن أعلق على فكرة ذلك المقال ..

إن هذا المقال - شأنه شأن معظم كتابات مصطفى محمود بعد أن هداه الله - مصمم لكى ينفى تهمة الإلحاد عن كاتبه .. وهو ماكنت ولازلت أستشعره كلما طالعت مقالاً أو شاهدت حديثاً للدكتور مصطفى محمود ..

ويبدو لى أن الدكتور مصطفى محمود قد أراد أن يدفن ماضيه ذلك تحت الأرض - بل وعلمت أنه كان قد أوصى لأسرته قبيل وفاته ألا يعاد نشر كتابه "الله والإنسان" ..

إن الدكتور مصطفى محمود يعلم جيداً أن شعبنا لايقرأ - ولايتسائل - ولايسبر الأغوار - لذلك طالعنا كل أسبوع فى برنامجه الشهير عارضاً معجزات الرحمن - وكيف أن جميع الاكتشافات العلمية الحديثة لهى مذكورة فى القرآن الكريم - ولم يترك درباً إلا وسلكه لكى يتحقق تمام التحقق أن مامن أحد بإمكانه الآن أن يتحدى إيمانه أو أن يتقول عليه بالإلحاد .. ولاشك أنه قد نجح فى ذلك نجاحاً عظيماً - وليس عندى شك فى أن صورته الآن لدى معظم أبناء العرب قد ارتبطت بإسلامياته وعلمه وإيمانه بأكثر ماارتبطت بشكوكه وتساؤلاته وشقاوات شبابه .. إذ يكفى للشاب أن ينظر إلى الأرفف التى صففت فيها كتبه وعليها صورته وهو جليس ينهل من مائدة الرحمن بردائه الأبيض النقى ليعلم إننا بصدد كاتب إسلامى متميز ولاشك ..

وأعود إلى مقولة الدكتور لويس عوض من أن الديانات السماوية هى أشعار بعضها جيد وبعضها ردىء - وفى الحقيقة فأنا أرى إن إجابة الدكتور لويس عوض هنا هى إجابة متحفظة للغاية - فأنت إن سألتنى نفس السؤال لجائت إجابتى أنها أشعار بعضها جيد ومعظمها ردىء ..

ولقد نشر هذا المقال بعد وفاة لويس عوض بعام أو اثنين، ولم أرتح أنا إلى ذلك على الرغم من أن مصطفى محمود كان فى ذلك الوقت بمثابة الأب الروحى بالنسبة لى ..

● ● ● ● ●

ونأتى الآن إلى كلام مصطفى محمود عن الموسيقى الإعجازية فى القرآن - وهو يسجل انبهاره بآيات مثل (والضحى، والليل إذا سجى) ويقول أن الموسيقى تقطر من هذه الآية بدون تشطير أو قافية .. وبالطبع فقد أثار هذا الكلام غضب الكثير من المشايخ فى آنه - وتندر البعض عليه لاستخدامه ألفاظ كالـ"موسيقى" والـ"سيمفونية" وخلافه .. ولست متخصصاً فى علوم البلاغة ولكننى على علم بأن هذه الآية تتبع قاعدة الازدواج أو المزاوجة السجعية كقول المنفلوطى: "الشاعر يرى الجمال فى الزهرة الذابلة، والنبتة الحائلة، والنحلة الطائرة، والفراشة الحائمة"، أو كقول "سطيح" ساحر العرب فى الجاهلية حينما فسر رؤيا الملك بن نصر اللخمى على نحو أقلقه فسأله الملك: "أحق ذلك" فقال سطيح: "والشفق والغسق، والقمر إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحق" .. فعلى هذا النحو كان يتحدث السحرة والكهان حتى زمن محمد ..

ويستطرد الدكتور مصطفى محمود فى حديثه عن الإبداع والإعجاز فى كلام القرآن - ويحدثنا عن الدقة البالغة والإحكام المذهل - وكيف أن كل لفظة قد تم اختيارها من مليون لفظة بميزان دقيق .. ويسوق أمثلة عديدة على البلاغة المذهلة كقوله "اثاقلتم" بدلاً من "تثاقلتم" و"قل" بدلاً من "فقل" و"جعلناه" بدلاً من "لجعلناه" و"من إملاق" تارة و"خشية إملاق" تارة أخرى - وتقديم السمع على الأبصار وتقديم المال على البنون إلخ ..
وفى الحقيقة فالموضوع هنا يطول .. فنحن إن فتحنا الباب لمثل هذه التحايلات لما انتهينا، وحسماً للأمر هنا فلى أن أقول أننى ليست لدى مشكلة فى الإقرار بجودة الكثير من آيات القرآن - ماالمشكلة فى ذلك؟ إن محمد ولاشك كان إنساناً موهوباً، وقائداً وزعيماً مهاباً - وإلا مااستطاع أن يتحدث بكتاب مفصل كالقرآن وأن يؤثر فى جيله وأجيال بعده أعظم التأثير .. وبالمثل فأنا ليست لدى مشكلة فى قبول أن محمد هو من كتب القرآن أجمعه - بالرغم من ظهور بعض الدراسات التى تشير إلى أن القرآن قد وضعه عدد من الكهنة على مدار عدة سنين - قد يكون محمد أحدهم وقد لايكون .. بل وليست لدى مشكلة بالمرة فى أن أقبل أن القرآن لم يتغير منه الكثير، وأنه لحد كبير كلام محمد الحرفى، وإن حذفت بعض الآيات وبدلت آيات وأعيد ترتيب السور - ومن الثابت أن ذلك كله قد حدث فى فترة زمنية قصيرة لاتتجاوز السنوات العشر - وليس فى الديانات الأخرى أى شىء مماثل لذلك - فالأناجيل مثلاً قد تم جمعها وإقرارها بعد أكثر من ثلثمائة عام من موت

المسيح .. ناهيك عن العهد القديم (التوراة) فقد تمت كتابة أبوابها عبر المئات بل والآلاف من السنين على يد حكماء اليهود ..
إلا أن كل ذلك لايقنعنى بأن هذا هو كلام صانع هذا الكون .. فلكى أقتنع بذلك ينبغى على أولاً أن أقتنع بأن صانع هذا الكون هو رجل - (أى ذكر) – ذو إمكانيات خارقة ..
وثانياً أنه عربى العنصر ..
وثالثاً أنه رجل خفى ..
ورابعاً أنه كائن سادى مدمر ومفترى ولديه عدد من العقد النفسية المستعصية مثل جنون العظمة والتلذذ بتعذيب من هو أضعف منه والسادية والنرجسية ..
ودعنى أقفز السطور قليلاً لأصل إلى الحديث القدسى الذى تسوقه ياأستاذى الكبير للتدليل على أن الله غنى عن العالمين - إذ يقول: "هؤلاء فى النار ولاأبالى وهؤلاء فى الجنة ولاأبالى" ..
هذا هو إله الإسلام المفروض علينا ..
رجل - (مذكر) - عربى - لايعنيه عذاب خلقه ..
إنك إن رأيت كلباً حبيساً فى بيت يحترق لفعلت ماأمكنك لإنقاذه .. فما بالنا بإنسان ..؟
والسؤال هنا هو لماذا طور العربى فى صحرائه إلهاً على هذا النحو من القسوة والغلظة؟
والإجابة هى البيئة القاسية التى نشأ فيها هذا العربى - فما من عجب أن صار إلهه على نفس الدرجة من القسوة والجلافة ..
وخلاصة الكلام هنا هو أن التعبير البلاغى فى القرآن - فى رأيى أنا - يتراوح بين مقبول إلى جيد فى معظمه .. إلا أنه ليس أبلغ ماأتى به العرب ..

١٢) القرآن لايمكن أن يكون مؤلفاً

موضوع اللمحات العلمية فى القرآن هو موضوع يطول الحديث فيه - ومافعله مصطفى محمود هو أنه دخل إلى قلوب وعقول الشباب المحب للعلم - فجائت كتاباته بمثابة عقد قران بين العلم والدين - وهو لاشك أمر يروق للشاب الصغير المتفتح - فهاهو الدين قد تصالح مع العلم وكسبنا نحن دنيانا وآخرتنا ..

ويحضرنى الآن اسم ثان خاض صاحبه أيضاً مثل ذلك الخوض وهو عبد الرزاق نوفل، ولاأعلم إن التقى الرجلان أو إن اتفقا (أو اختلفا) على مدخلهما ذلك لتفسير القرآن - إلا أنه من المؤكد أن ذلك النهج قد نال قبولاً واسعاً لدى الشباب المتعلم الذى يبغى فى نفس الوقت إرضاء ربه - ولكنه فى نفس الوقت أثار ولايزال يثير اعتراض آخرين من رجال الدين لعلمهم بأن القرآن فى أصله ليس كتاب علم ولا يدعى أبداً أنه كذلك .. ورجل الدين أيضاً يعلم أن النظرية العلمية يمكن تحديها وإلغائها فى المستقبل، وهو أمر بالطبع لايرغب أن يقحم الدين فيه ..

وقد احتاج الأمر منى إلى سنين عديدة كى أقف على حقيقة هذا الادعاء - والادعاء هنا هو أن الله قد وضع فى كتابه لمحات أو ومضات علمية لم يشأ أن يفسرها علانية كى "لايصدم العرب الأوائل" كما يقول الدكتور مصطفى محمود .. ولتسهيل المهمة على القارىء رأيت أن ألخص ماقاله مصطفى محمود فى هذا الباب ثم أتناوله بالتحليل لاحقاً ..

يقول الدكتور مصطفى محمود:

"ما كان الفلك الحديث ولاعلوم الذرة والبيولوجيا والتشريح معروفة حينما نزلت الآيات الكونية فى القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة .. ولم يتعرض القرآن لهذه الموضوعات بتفصيل الكتاب العلمى المتخصص لأنه جاء فى المقام الأول كتاب عقيدة ومنهج وتشريع .. ولو أنه تعرض لتلك الموضوعات بتفصيل لصدم العرب بما لايفهمونه .. ومازال القرآن يكشف لنا يوماً بعد يوم مزيداً من تلك الآيات العجيبة .. فحول كروية الأرض جاءت هذه الآيات الصريحة التى تستخدم لفظ التكوير لتصف انزلاق الليل والنهار كنصفى كرة "يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل" .. ثم الآية التى تصف دحو الأرض "والأرض بعد ذلك دحاها" ودحا هى الكلمة الوحيدة فى القاموس التى تعنى البسط والتكوير معاً .. والأرض كما هو معلوم أشبه بالدحية "البيضة" فى تكويرها .. ثم نقرأ إشارة أخرى صريحة عن أن الجبال تسبح فى الفضاء "وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب"..

وتشبيه الجبال بالسحب فيه لمحة عن التكوين الهش للمادة التى نعرف الآن أنها مؤلفة من ذرات كما أن السحب مؤلفة من قطيرات .. ثم الكلام عن تواقت الليل والنهار بدون أن يسبق أحدهما الآخر ثم تأتى القيامة والأرض فى ليل ونهار فى وقت واحد "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس".. وفى قوله ليلاً أو نهاراً تأكيد لهذا التواقت الذى لاتفسير له إلا أن نصف الأرض محجوب عن الشمس ومظلم والآخر مواجه للشمس ومضىء بحكم كونها كروية .. ثم الكلام عن السماء بأن فيها مسارات ومجالات وطرقاً: "والسماء ذات الحبك" والحبك هى المسارات .. "والسماء ذات الرجع" أى أنها ترجع كل ما يرتفع فيها إلى الأرض .. ترجع بخار الماء مطراً وترجع الأجسام بالجاذبية الأرضية وترجع الأمواج اللاسلكية بانعكاسها من طبقة الأيونوسفير كما ترجع الأشعة الحرارية تحت الحمراء معكوسة إلى الأرض .. وكما تعكس السماء ما ينقذف إليها من الأرض كذلك تمتص وتعكس وتشتت ما ينقذف إليها من العالم الخارجى، وبذلك تحمى الأرض من الأشعة فوق البنفسجية القاتلة فهى تتصرف كأنها سقف "وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً" .. "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" وهوما يعرف الآن باسم تمدد الكون المطرد .. ثم بصيرة القرآن فى تكوين الإنسان وكلامه عن النطفة المنوية وانفرادها بتحديد جنس المولود "وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى" وهى حقيقة بيولوجية لم تُعرف إلا هذا الزمان .. وتسوية البنان بما فيه من رسوم البصمات "أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه" .. وفى ذلك لفتة إلى الإعجاز الملحوظ فى تسوية البنان بحيث لايتشابه فيه اثنان .. وأوهن البيوت فى القرآن هو بيت العنكبوت .. وخيط العنكبوت كما هو معلوم أقوى من مثيله من الصلب أربع مرات .. إنما الوهن فى البيت لافى الخيط حيث يكون البيت أسوأ ملجأ لمن يحتمى فيه فهو مصيدة لمن يقع فيه من الزوار الغرباء وهو مقتل حتى لأهله .. فالعنكبوت الأنثى تأكل زوجها بعد التلقيح وتأكل أولادها عند الفقس والأولاد يأكل بعضهم بعض .. كذلك نجد فى سورة الكهف "ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً" ونعرف الآن أن ثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسى تساوى ثلاثمائة وتسعاً بالتقويم القمرى باليوم والدقيقة والثانية .. وفى سورة مريم "فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلى واشربى وقرى عيناً" إن أحدث بحث علمى عن الرطب

يقول إن فيه مادة قابضة للرحم تساعد على الولادة وتساعد على منع النزيف بعد الولادة مثل مادة Oxytocin، وأن فيه مادة ملينة .. ومعلوم طبياً أن الملينات النباتية تفيد فى تسهيل وتأمين عملية الولادة بتنظيفها للقولون .. وما زالت فى القرآن نبوءات تتحقق أمام أعيننا .. فهذا إبراهيم يدعو ربه: "ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" .. ثم جاء وعد الله لأهل مكة بالرخاء حينما أمرهم بمنع المشركين من زيارة البيت فخافوا البوار الاقتصادى والكساد .. وكان أهل مكة يعتمدون فى رواجهم على حج البيت فقال ليطمئنهم "وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله" وهو وعد نراه الآن يتحقق أمامنا فى البترول الذى يتدفق من الصحراء بلا حساب وترتفع أسعاره فى جنون يوماً بعد يوم .. ثم فى كنوز اليورانيوم التى تخفيها تلك الصحارى بما يضمن لها الرخاء إلى نهاية الزمان .. ثم نرى القرآن يحدثنا عن الغيب المطلسم فى أسرار الجن والملائكة مما لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف .. فإذا رأى هؤلاء فهم لايرون إلا ما يوافق كلمة القرآن وإذا طالعوا لايطالعون إلا ما يطابق أسراره .. سألوا ابن عربى عن سر إعجاز القرآن فأجاب بكلمة واحدة هى "الصدق المطلق" .. فكلمات القرآن صادقة صدقاً مطلقاً، فى حين أقصى ما يستطيعه مؤلف هو أن يصل إلى صدق نسبى .. أما صاحب العلم المحيط والبصر الشامل فهو الله وحده لأنه أصاب الصدق المطلق فى كل شىء .."

حسناً ياأستاذى الكبير ..
وقبل أن أتناول هذا الكلام بالتحليل يعنينى أولاً أن أناقش قضية هامة أراها غائبة عن أذهاننا فى العالم الإسلامى، ذلك أننا قبل أن نأخذ مثل هذا الكلام على علته علينا أولاً أن نطّلع على تاريخ شبه جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، وكيف أن الإسلام هو نتاج صراع قبلى واجتماعى واقتصادى وعقائدى - وأنا بذلك أعنى أنه لاعلاقة له بالسماء أو بغيب أو خلافه، وإنما هو فكر إنسانى وصراع اجتماعى أولاً وأخيراً .. وهو لم يأت إلى الوجود ذات صباح من الأثير أو من اللاشىء وكأن لاشىء قبله ولابعده .. والسبب الذى من أجله أقول ذلك هو أننى سأعرض لاحقاً كيف أن محمد إنما تحدث بعلوم عصره، ولغة عصره، ومفاهيم عصره، وأنه ليس فى كلامه أية إشارات للعلم الحديث أو أية معلومات خارقة لزمنه .. ولكن فليسمح لى القارىء أولاً أن أطرح نظريتى سريعاً هنا وهى النظرية التى توصلت إليها بعض أن اطلعت على تاريخ جزيرة العرب قبل الإسلام .. وأنا فى الحقيقة

ليس لدى دليل قاطع على ماأقول ألا أننى أطرح نظريتى هذه ولسوف يسعدنى أن استمع إلى أى تصحيح أو نقد بناء ..
فى اعتقادى أن صراعاً على زعامة العرب ومقام النبوة كان دائراً بين عدد من الرجال - وهؤلاء هم محمد بن عبد الله، الأسود العنسى، أمية بن أبى الصلت، مسيلمة بن حبيب وطليحة بن خويلد الأسدى .. إلا أن محمد هو من كسب هذا الصراع .. وهو صراع قبلى مائة فى المائة، أو هو صراع قبلى أولاً قبل أن يكون أيديولوجياً .. ومعلوم أن التاريخ يكتبه المنتصرون - هكذا الواقع ..
إن محمد لم يكن هو الوحيد الذى يطمع فى زعامة العرب ومقام النبوة، فمن المعلوم أن العرب قبل محمد كانوا يتنبأون أو يتطلعون إلى نبى مرسل من الآلهة، وليس من المستغرب أن ينتظر البدو فى صحرائهم زعيماً يصلهم بالسماء ويفك طلاسم الكون، ويرون فيه النبى الحق المنتظر - فالإنسان بطبيعته ينتظر تفسيراً لألغاز الحياة - وعندما يعجز العقل عن الفهم إذا به ينتظر الإجابة من السماء - ولاشك أن العرب آمنوا بزعماء وأنبياء ورسل رأوا فيهم الخلاص - الخلاص من التخبط والحيرة - والخلاص من العناء - والوصول إلى إجابات سهلة مريحة قادمة من السماء بالحلول .. إن أنت فعلت ذلك ورثت الملكوت .. ونجوت من الجحيم .. وحظيت بالنساء والخمر والعسل ..
وقد ناظر محمد هؤلاء وناظروه، وحاربهم وحاربوه، وتحكى كتب التراث أن محمد قد تناظر مع أمية بن أبى الصلت إلى جوار الكعبة وبالطبع انتهت القصة بإيمان أمية - إلا أن روايات أخرى تقول بأن أمية لم يسلم - والدليل هو قول محمد "إن كاد أمية ليسلم" - ويقول الدكتور سجيع جميل الجبيلى فى كتابه القيم "ديوان أمية بن أبى الصلت" أن أمية حينما سمع عن "بعثة" النبى أخذ بنتيه وهرب إلى اليمن .. وقد ذكر أمية الآخرة فى أشعاره ووصف العزة الإلهية وذكر الأنبياء، بل وحرم الخمر وشكك فى الأوثان - إذ أنه قرأ فى الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان "يرجو أن يكونه"، ومن أشعاره:

لك الحمد والنعماء والملك ربنا .. ولا شىء أعلا منك مجداً وأمجدُ
مليكٌ على عرش ِالسماء مهيمنٌ .. لعزتهِ تعنو الوجوه وتسجدُ
عليه حجاب النور والنور حوله .. وأنهار نور حوله تتوقدُ
ولا بصر يسمو إليه بطرفه .. ودون حجاب النور خلق مؤيدُ
ملائكة أقدامهم تحت أرضه .. وأعناقهم فوق السماوات صعد
فمن حامل إحدى قوائم عرشه .. بأيد ولولا ذاك كلوا وبلدوا
قيام على الأقدام عانين تحته .. فرائصهم من شدة الخوف ترعد

فهم عند رب ينظرون لأمره .. يصيخون بالأسماع للوحى ركد
أميناه روح القدس جبريل منهما .. وميكال ذى الروح القوى المسدد
ملائكة لايفترون عبادة .. كروبية منهم ركوع وسجد
فساجدهم لايرفع الدهر رأسه .. يعظم ربا فوقه ويمجد
وراكعهم يحنو له الظهر خاشعا .. يردد آلاء الإله ويحمد
..
وسبحان ربى خالق النور لم يلد .. ولم يك مولوداً بذلك أشهد
وسبحانه من كل إفك وباطل .. ولا والد ذو العرش كيف يولد
هو الله بارىء الخلق والخلق كلهم .. إماء له طوعاً جميعاً وأعبد
هو الصمد الحى الذى لم يكن له .. من الخلق كفء قد يضاهيه ضدد

وفى موقع آخر يقول:
الحمد لله الذى لم يتخذ .. ولداً وقدر خلقه تقديرا
وعنا له وجهى وخلقى كله .. فى الخاشعين لوجهه مشكورا

وقال فى خراب سدوم :
ثم لوط أخو سدوم أتاها .. إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا .. قد نهيناك أن تقيم قراها
عرض الشيخ عند ذاك بنات .. كظباء بأجرع ترعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا .. أيها الشيخ خطبة نأباها
أجمع القوم أمرهم وعجوز .. خيب الله سعيها ورجاها
أرسل الله عند ذلك عذابا .. جعل الأرض سفلها أعلاها

وأنا أسوق هذا الكلام لتوضيح أن الإسلام كان منتج عصره، وأنه تفاعل مع مجتمعه وزمنه، وأنه ليس حدث فردى متفرد مفاجىء وعجيب، وأن لغته وماأتى به من كلام وقصص لم يكن فريداً من نوعه بالضرورة، بل هو نتاج تطور المنطقة العربية لزمن طويل يعود بجذوره إلى زمن زعماء اليهود الأوائل .. فعلى هذا النحو تسير الأمور ويتحرك التاريخ ..

ثم نأتى إلى طليحة بن خويلد وهو الذى كان من أشد أعداء محمد، ورغم أنه أسلم لفترة قصيرة إلا أنه تمرد ثانية وقال بالنبوة وتبعه كثير من عرب بنى أسد وغطفان ضد محمد وآمنوا بأنه يوحى إليه من قبل الملاك جبريل .. وتمكن طليحة من تكوين جيش قوى لمحاربة المسلمين ولكنه هزم على يد

أبى بكر وخالد بن الوليد وهرب إلى الشام إلى أن احتل المسلمون الشام فلم يبق لديه مخرج سوى قبول الإسلام ثانية ..
أما الأسود العنسى فقد حرك جيشاً كبيراً لقتال المسلمين وتمت له السيطرة على اليمن بأكمله فكلف محمد بعض صحابته بقتله وبالفعل تم ذلك وقاتله هو الصحابى فيروز الديلمى .. وقد آمن العرب بأن العنسى له شيطانان يوحيان إليه يقال لأحدهما سحيق بمهملتين وقاف مصغر والآخر شقيق بمعجمة وقافين مصغر - وعلى هذا النحو يتم تشويه الغريم - فبطل الرواية لابد أن من يوحى إليه هو الملاك - أما شرير الرواية فمصدر وحيه الشيطان ولاشك .. لذلك يبدو أن العرب صنفوا الناس على أنهم إذا ماأوحى اليهم الجن (فى وادى عبقر مثلاً) فهم شعراء، وإن أوحى اليهم الشيطان فهم سحرة، أما إن أوحى إليهم ملاكاً كجبريل أو ميكائيل فهم أنبياء .. والفائز فى معركة النبوة هو من استطاع إقناع أكبر عدد ممكن من البشر بأن الملاك هو الذى يأتيه بالوحى، وليس الشيطان ..
أما مسيلمة بن حبيب فقد نسبوا إليه السحر وأنه كان بإمكانه أن يضع بيضة فى زجاجة - وبصق فى بئر فغاض ماؤها وسقى بوضوئه نخلة فيبست .. إن على هذا الشكل كانت حياة العرب بل وقدامى البشر بصورة عامة فى اعتقادهم بالخرافات .. ولازال الكثير منا يؤمن بمثل هذا الهراء ..

• • • • •

كانت هذه مقدمة ضرورية رأيت لزاماً على أن أعرضها كى أتمكن من مناقشة الادعاء القائل بالإعجاز العلمى فى القرآن والذى هو فى نظرى ليس سوى تحايل واستجداء بل واستخفاف بالعقول .. وسأتناول الآن ادعاءات مصطفى محمود الواحدة تلو الأخرى .. وأبدأ بكلامه عن كروية الأرض، ومايقوله بشأن الدحية أو البيضة فى الآية التى تقول: "والأرض بعد ذلك دحاها" ..
وهنا أقول أن لفظة "الدحية" لم يبتدعها محمد فى الحديث عن الأرض، فمثلاً يقول زيد بن عمرو:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت .. له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدها .. سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت .. له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة .. أطاعت فصبت عليها سجالا

وأيضاً قال أمية بن أبى الصلت:

وبث الخلق فيها إذ دحاها .. فهم قطانها حتى التناد
وفى موقع آخر يقول:
دار دحاها ثم أعمرنا بها .. وأقام بالأخرى التى هى أمجد
فمحمد ليس هو أول أو آخر من استخدم تلك اللفظة التى يسوقها مصطفى محمود للتدليل على الإعجاز القرآنى ..

ثم نأتى إلى الكلام عن تواقت الليل والنهار وقول القرآن "أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً" والذى هو يدلل على كروية الأرض .. وبالطبع هذا تهريج وضحك على الذقون .. إن تعبير "ليلاً أو نهاراً" هو تعبير عربى صميم معناه "فى أى وقت" .. فمثلاً هذا واضح فى قول محمد: "من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع وقد وقف قبل ذلك بعرفة ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه" .. وهو أيضاً الذى قال "إذا قام الرجل يتوضأ ليلاً أو نهاراً فأحسن الوضوء واستن ثم قام فصلى أطاف به الملك ودنا منه حتى يضع فاه على فيه" .. وليس فى اعتقادى أن محمد كان لديه علم بفروق التوقيت كما نعلمها نحن الآن، والدليل هو حديثه الذى يقول فيه مخاطباً أبا ذر"أتدرى أين تذهب الشمس؟ فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، فقال محمد: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش فإذا أذن لها وقيل ارجعى من حيث جئت فتخرج من مغربها .." وهو بالطبع كلام ليس له أى معنى بأى مقياس علمى ..
وبنفس منطق مصطفى محمود فهل لنا إذن أن نتصور أن الآية القرآنية التى تقول "النار يعرضون عليها غدواً وعشياً" هى دليل على كروية جهنم ..؟
ونأتى الآن إلى آية الجبال التى تمر مر السحاب وهو مايستخدمه مصطفى محمود للتدليل على أن المادة مكونة من ذرات وإلكترونات .. ويفسر ابن كثير هذه الآية بأن أحد أهوال يوم القيامة أن الجبال سيتم تدميرها وتصير سحاباً أو غباراً، وهو ماأعتقد أنه كان مقصد كاتب القرآن بالنظر إلى سياق الكلام فى الآيات السابقة والتالية لهذه الآية .. أما فى عصر الإعجازات العلمية يخرج علينا الشعراوى ويقول أن هذا الكلام دليل على دوران الأرض فالجبال ليست ثابتة وإنما تتحرك دائماً مع حركة الأرض .. ويخرج علينا مصطفى محمود بقوله أن ذلك دليل على التركيب الهش للمادة .. وردى أنا على هذين التفسيرين هو: ولماذا الجبال تحديداً التى يذكرها القرآن كدليل على دوران الأرض أو التركيب الهش للمادة ..؟ أليس كل شىء فى الكون مكون من ذرات ويدور فى الفضاء؟ الأرض والنجوم والكواكب والأشجار والأحجار والأنهار وأهرامات الجيزة وأنا وأنت ..؟

ثم نأتى الآن إلى الحديث عن السماء ذات الحبك وذات الرجع أى التى فى تفسير مصطفى محمود ترجع الأمواج اللاسلكية بانعكاسها من طبقة الأيونوسفير والأشعة الحرارية تحت الحمراء إلى الأرض ..
والسؤال هنا: أين الأيونوسفير والأشعة الحرارية تحت الحمراء فى هذه الآية؟ وأين الإعجاز العلمى فى استخدام القرآن للفظة "الحبك"؟ ألم يبرع العرب فى علوم الفلك وهم الذين درسوا مواقع النجوم وحركة الأفلاك؟
ثم ماهى السماء ..؟
إن السماء أمر نسبى لساكن الأرض فقط وليست كينونة أو ماهية خلقها الله إلى جوار الأرض يوم أن أمرهما أن يأتيا طوعاً أو كرهاً فأتيا طائعين ..
إن هذا الكلام يعنى أن الكون فى مجمله ليس سوى جزئين اثنين:- الأرض والسماء .. أو الكرة الأرضية وباقى الكون .. فقط هكذا ..
وهذا كلام لامعنى له .. إن هذا الكلام ببساطة هو تفسير الإنسان القديم للكون قبل التلسكوبات والمناظير .. إن حجم الأرض بالنسبة لحجم الكون المعلوم هو مقدار متناه فى الضآلة إلى حد يسمح للعلماء أن يعتبرونه صفراً ..
وذلك يقودنا إلى مايقوله مصطفى محمود من أن الآية التى تقول "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" إنما تعنى بنظرية تمدد الكون المطرد ..
حسناً .. إن هذه الآية فى رأيى تتحدث عن الحجم المتسع شديد الاتساع للفضاء .. أما إذا أردت أن تفرض علينا أنها تعنى بنظرية التمدد المطرد فلابد إذن أن تعثر لنا فى كتابك على الإشارة إلى ما سيحدث بعد ذلك؟ هل سيستمر الكون على اتساعه حتى تنحل عراه ويتفكك وينتهى أم سيعود ويتقلص إلى ماكان عليه وقت الانفجار العظيم؟ وأين الحديث هنا عن الفوضى فى الكون أو مايعرف باسم "Chaos" أو "Entropy"؟ .. إن أنت اقحمت القرآن فى هذه القضايا فلابد إذن أن تكمل معنا الطريق ولاتتركنا على أول السلم وتقول أن هذا هو مقصد الإله وتتركنا هناك ..
أنت الآن أقحمت القرآن فى قضية من أعقد قضايا علوم الطبيعة والنسبية والميكانيكا الكمية - إن لم تكن أعقد القضايا على الإطلاق .. تلك هى قضية منشأ الكون وأصل قوانين الطبيعة .. أين حلول هذه المعضلات فى كتابك العلمى المعجز؟
إن كان فى يد المسلمين كتاب يحوى الكلمة الأخيرة الشاملة الجامعة لكل شىء كما تقول .. لماذا لايخرج علينا علماء المسلمين بالكلمة الأخيرة الشاملة الجامعة فى هذه القضية المعقدة بدلاً من أن نترك علماء الغرب يتخبطون بين النظرية الخيطية "String theory" والمادة المعتمة "Dark matter" والانفجار العظيم "Big bang" والحالة الثابتة "Steady state" والوجود

متعدد الأكوان "Multiverse" والنطاق الصالح للحياة "Circumstellar habitable zone" والمادة والمادة المضادة "Matter and anti-matter" والانزياح الأحمر "Redshift" وإشعاع خلفية الكون "Cosmic background radiation" والزمان - مكان "Spacetime" واللانهاية المحدودة واللانهاية غير المحدودة "Bounded and unbounded infinity" وغيره وغيره ..؟
أين الآيات التى تشرح لنا أى من هذه النظريات صحيح وأيهم خاطىء .. ؟
ولماذا لاينزل الخالق ملحقاً مع كتابه ذلك ويضع فيه حلول كل معضلات الطبيعة؟ وكل ماعلينا أن نفعله هو أن نعكف عليه بالدراسة وبذلك نسبق جميع أبناء البلدان الأخرى وننال نحن جوائز الفيزياء بدلاً من علماء اليهود ..؟
سؤال يعنينى أن أجد إجابة عليه ..

● ● ● ● ●

وننتقل الآن إلى الكلام عن النطفة المنوية وانفرادها بتحديد جنس المولود "وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى .."
حسناً .. سأفترض معك أن مقصد هذه الآية أن تحديد جنس الجنين راجع الى الحيوان المنوى وليس بويضة الأنثى ..
ماالمشكلة إن علم العرب بذلك؟
ألم تنشد زوجة ابو حمزة الضبى حين هجرها بعد أن ولدت له بنتاً:
مالأبى حمزة لايأتينا .. يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا .. تالله ماذلك فى أيدينا
وإنما نأخد ما أعطينا.. ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت مازرعوه فينا
إن المشكلة تكمن فى تفكيرنا الذى يرفض أن ينظر للأمور من منظور تطورى، أو الذى يتوقع حدوث الأمور بمعجزة سماوية وبدون مقدمات ..
إن كل شىء فى الكون مبنى على ماقبله، حتى الطفرات ..
ونأتى إلى تسوية البصمات فى الآية التى تقول: "بلى قادرين على أن نسوى بنانه"..
أين "البصمات" هنا؟
إن هذه الآية تتحدث عن طول الأصابع وليس فيها أية إشارة للبصمات ..!

ثم لنا أن نفترض جدلاً أن الحديث هنا عن البصمات .. من القائل بأن عرب الجاهلية لم يكن لديهم علم باختلاف البصمة من شخص لآخر؟ إن استخدام البصمات كان معمولاً به فى حضارات "تشين" و"هان" الصينية العريقة قبل ميلاد المسيح، بل إن التجار العرب كانوا على علم بهذا الإجراء نقلاً عن الصينيين والذين كانوا يستخدمونه فى التصديق على التعاملات التجارية .. ونفس الكلام حينما نتحدث عن خيط العنكبوت - وأن الوهن فى البيت لافى الخيط - أين الإشارة لوهن الحياة الأسرية فى بيت العنكبوت إلخ؟ إن ملحوظة وهن بيت العنكبوت لهى ملحوظة غاية فى البساطة والبداهة ..! ولاعلاقة لها بالأنثى التى تأكل الذكر والصغار .. ثم حتى إذا ماافترضنا جدلاً أن ذلك بالفعل كان مقصد كاتب القرآن وأنه لم يرد أن يصرح به كى لايصدم البسطاء من قومه .. ماهى المشكلة فى أن تكون مثل تلك الملاحظات معروفة حينئذ لدى العلماء والدارسين ..؟ وحتى إن لم يكن العرب أنفسهم هم من توصلوا إليها فلعلهم تعلموا ذلك من أبناء الحضارات المجاورة .. ماالمشكلة فى ذلك ..؟

ونفس الكلام نقوله أيضاً رداً على ادعاءات مصطفى محمود فى الباب السابق حينما يتحدث عن استخدام القرآن للفظة "لواقح" فى الآية "وأرسلنا الرياح لواقح" .. ويقول مصطفى محمود: "وكانوا يفسرونها فى الماضى بمعنى أن الرياح تثير السحب فتسقط المطر فيلقح الأرض بمعنى "يخصبها" ثم عرفنا اليوم أن الرياح تسوق السحب إيحابية التكهرب وتلقى بها فى أحضان السحب سالبة التكهرب فيحدث البرق والرعد والمطر .."

وهذا هو التحايل بعينه .. فالسؤال هنا هو: أين السحب سالبة أو موجبة الكهربية فى هذه الآية؟

إننا إن فتحنا الباب لمثل هذه التفسيرات لما انتهينا - ولوجدنا كل أنواع العلم مانعرفه ومالانعرفه فى أى كلام مكتوب - قرآناً كان أم غير ذلك .. إن تفسير هذه الآية ببساطة هو أن العرب قد سموا الريح التى لاتمطر بـ"العقيم" - أما الريح التى تأتى بالمطر فسميت "اللاقح" - كان هذا قبل محمد وقبل الإسلام ..

وهل نفهم من ذلك أيضاً أن بشامة بن عمرو كان يقصد تلك الشحنات السالبة والموجبة حينما قال يصف ناقته:

"وإن أدبرت قُلت مشحونة .. أطاع لها الريح ملعاً جفولاً .."

وهو هنا يقول أن ناقته إذا ماانصرفت عنه ظن أنها مشحونة بما حملت الريح ويشبهها هنا بـ"الملع" أو بـ"القلع" الذى يزيد من سرعة المركب (الجفول) - فعلى الأقل هنا صرح بشامة بلفظة (مشحونة) ..

فهل كان بشامة على علم بالشحنات الموجبة والسالبة أيضاً ..؟
ثم نأتى إلى القول بإعجاز آية أهل الكهف الذين لبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً، والسؤال هنا كالمعتاد: أين الإعجاز فى ذلك؟ وماهى المشكلة إن علم كاتب القرآن بكلا التقويمين؟ ألم يكن هناك علماء من اليهود والمسيحيين والإغريق والفرس والرومان والأشوريين وغيرهم يجوبون تلك البلاد؟ هذا بالطبع إن فرضنا جدلاً أن ذلك كان مقصد الكاتب .. أما أنا فلاأرى أكثر من أن الآية إنما تسرد عدد السنوات فى لغة بها شىء من البلاغة .. هذا كل مافى الأمر ..
وأيضاً لنا أن نقبل بأمر يخالف المنطق وهو أن ينام إنسان فى كهف لثلثمائة سنة، وازدادوا تسعاً، ثم يخرج إلى العالم الجديد بلحيته الطويلة وقد انتقل من زمن إلى زمن آخر ..
أية خرافات تلك ..؟ وأية أساطير ..؟
وأأتى أخيراً إلى التفسير الذى طالما أدهشنى وشغلنى وبهرنى لسنوات طوال، وذلك هو الحديث عن الإشارة العلمية للرطب وأنه يحتوى على مادة الـ Oxytocin التى تساعد على انقباض الرحم وأن به مادة ملينة ..
وهنا ليس لى إلا أن أتسائل: إمرأة حبلى تضع وليدها تحت نخلة فى البادية .. ماهى الخيارات المتاحة أمامها لتأكل وتشرب ..؟
عصير الفراولة ..؟
أم البيبسى كولا ..؟
وأين الـ Oxytocin والمواد التى تساعد على انقباض الرحم فى هذه الآية ..؟
ولنا أيضاً أن نطرح نفس السؤال الذى طرحته سابقاً .. ماهى المشكلة أن يكون عرب هذا الزمان على علم بمثل هذه الأمور ..؟ إن علم الأعشاب والنباتات الطبية الذى تسابق فيه العرب والصين لهو علم يدرس فى جامعات العالم ولازال العلماء يعودون إلى مثل تلك المراجع القديمة ويرتحلون إلى أقصى البقاع لتحليل المواد الكيميائية فى النباتات التى استخدمها البشر الأوائل وأبناء القبائل .. وهى النباتات التى هدت البشرية إلى اكتشاف الكثير من الأدوية الفعالة فى عصرنا هذا ..
هذا بالطبع إن فرضنا جدلاً أن ذلك كان مقصد الكاتب ..
أما عن أسعار البترول الذى ترتفع كل يوم فى جنون بعد دعاء إبراهيم .. هل نفهم من ذلك إذن أن ارتفاع أسعار البنزين هو خير من عند الله ..؟
وأخيراً يتحدث مصطفى محمود عن الغيب المطلسم الذى انفرد به القرآن ولم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف ..
ياخسارة ياأستاذى الكبير ..

أى غيب مطلسم ذلك الذى يكشف للخاصة من أهل التصوف ..؟
وأين كان هؤلاء الخاصة يوم أن هجمت طائرات العدو ودمرت سلاح الطيران العربى برمته فى ظرف ساعات.. وأعادتنا إلى القرون الوسطى ..؟
لماذا لم يكشف الله لهم مثل هذه المصائب قبل حدوثها .. لعلنا باغتنا أعداء الله بدلاً من أن يحدث العكس ..؟
ولماذا لم يوحى الإله العليم ببواطن الفيزياء والكيمياء والطب لنبيه بأن البكتريا والفطريات هى ماتسبب الأمراض وليس الشيطان حينما قال "قلم أظافرك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها" أو "الطاعون وخز أعدائكم من الجن" .. وإن العسل على فوائده لايعالج كل أمراض المعدة - فحينما أفتى محمد للأعرابى بأن يسقى أخاه عسلاً، لاشك وأنه كان يجهل أن العسل لايعالج جميع الأمراض المعوية، وإلا مااحتجنا إلى أى من الأدوية أو العمليات الجراحية التى يمكن اجرائها الآن لمعالجة المرض ..
وأين كانت اللمحات والومضات العلمية عندما أفتى محمد بعدم تلقيح النخل بقوله "إن لم تفعلوا لصلح" وكانت النتيجة أن تدهور المحصول فى ذلك العام واعترف محمد بخطئه بعدها وقال: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" ..
أعلم ممن ..؟
من الرجل الذى يحادث خالق الكون ..؟؟
كيف ذلك ..؟
ولماذا يوحى الله له بآيات معجزة كالعنكبوت التى تأكل زوجها والجبال التى هى فى الأصل ذرات والكترونات وطبقات الأيونوسفير والـ Oxytocin ثم لاينبه إلى خطئه ذلك ..؟
ثم السؤال الأخير .. لماذا لم يعلم الله العرب أعقد العلوم ويعطيهم مفاتيحها بدلاً من اعطائها للغرب وعلماء اليهود؟
أين علماء العرب وفى يدهم كتاب يحوى جميع علوم الفيزياء والكيمياء والطب والفلك؟
ولماذا كان اليهود هم الأكثر عدداً فى حيازة الجوائز العلمية وفى تسجيل الاختراعات والاكتشافات الحديثة فى جميع العلوم وبخاصة علم الفيزياء - وهم ليس لديهم كتاب مثل كتابنا ..؟
أم هم فهموا مافيه ولم نفهمه نحن ..؟
أفيقوا يابشر ..!

١٣) شكوك

تحت هذا العنوان يطرح الصديق الملحد أمام مصطفى محمود عدداً من تناقضات القرآن، ويتسائل كيف يمكن لكتاب منزل أن يناقض نفسه .. والصديق الملحد هنا هو مصطفى محمود نفسه قبل عشر سنوات من كتابة هذا الكتاب .. فجميع أبواب هذا الكتاب هى فى حقيقتها شكوك مصطفى محمود نفسه قبل أن يحدث له هذا التحول الكبير .. اللهم فيما عدا سؤال الباب الثانى (إذا كان الله قدر على أفعالى فلماذا يحاسبنى) - فكما قلت سابقاً فإن موقف مصطفى محمود من قضية التسيير والتخيير كان ثابتاً طوال حياته .. أما فيما عدا ذلك فإن باقى تساؤلات الصديق الملحد هى فى حقيقة الأمر تساؤلات مصطفى محمود نفسه طوال الخمسينات والستينات من القرن الماضى .. ويمكن للقارىء أن يجدها متخفية فى صفحات كتاباته فى هذه الفترة من حياته بدءًا من "أكل عيش" ووصولاً إلى "لغز الحياة" .. أما بعد ذلك فإن الكاتب المتمرد الشقى قد هداه الله وصار كاتباً إسلامياً متصوفاً .. والصديق الملحد على حق فى شكوكه .. كأن يقول القرآن "ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون" تارة ثم يقول "ستكتب شهادتهم ويسألون" تارة أخرى، أو "ولايوثق وثاقه أحد" و"كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا" ومرة أخرى يقول: "ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه" .. ويفسر مصطفى محمود ذلك أن كل آية تعنى طائفة مختلفة - فهناك من سوف يسأل وتطلب شهادته وهناك من ستكون ذنوبه من الكثرة بحيث تطفح على وجهه .. وأن هناك من سيكون حسيباً على نفسه يعذبها بالندم ويشد وثاقها بالحسرة وهو الذى لايوثق وثاقه أحد، وهناك أكابر المجرمين الذين سوف يكذبون على الله وهم الذين سيسحبون على وجوههم ويوثقون فى السلاسل .. وأبو حامد الغزالى يفسر هذه السلاسل بأنها سلاسل الأسباب ..

وفى الحقيقة فإن تضارب هذه الآيات وغيرها مثل "لكم دينكم ولى دين" مقابل "قاتلوا المشركين كافة" مثلاً سببه أن محمد قد تحدث بالقرآن عبر ثلاثة وعشرين عاماً - بدأها حريصاً متخفياً إلى أن صار حاكماً مطلقاً للعرب .. وبالطبع فإن لكل مقام مقال - ولكل حادث حديث .. فتبدلت آيات الرحمة والمحبة الإلهية بآيات الحرق والسحل والفرم والشواء بعد أن اكتسب الإسلام قوة ومنعة .. والقرآن أولاً وأخيراً قول بشر .. ومامن عجب إن ظهر فيه تناقض أو اختلاف ..

ويتسأل الملحد: "وماحكاية كرسى الله الذى تقولون أنه وسع السموات والأرض .. وعرش الله الذى يحمله ثمانية .. وماهو الكرسى ومماالعرش؟"
ويرد مصطفى محمود: "قل لى ماالإلكترون أقل لك ماالكرسى؟ قل لى ماالكهرباء؟ قل لى ماالجاذبية؟ قل لى ماالزمان؟ إنك لاتعرف ماهية أى شىء لتسألنى ماالكرسى ومماالعرش؟ إن العالم مملوء بالأسرار وهذه بعض أسراره .."
وهنا لابد لنا أن نتوقف قليلاً ونتأمل هذه الإجابة .. وهى فى رأيى أضعف ماجاء بالكتاب ..
إن المشكلة هنا ياأستاذى الكبير أنك على الرغم من اتخاذك العلم منهجاً ومساراً إلا أنك وللأسف قررت أن تضرب بكل ذلك عرض الحائط، وأن تفحم صديقك الملحد بأن تقول له مامعناه: هوه كدة ..
وليس فى العلم أى شىء إسمه هوه كدة ..
إنك بقولك "قل لى ماالإلكترون أقول لك ماالكرسى" تكون قد ألقيت بكل مبادىء العلم والتفكير المنهجى المنظم إلى صفيحة النفايات، وهو ما قضيت عمرك فى ترسيخه فى عقول الشباب .. فكما قلتُ سابقاً إن عدم معرفتنا بشىء لاينبغى أن يكون سبباً فى إلقاء الكرة خارج الملعب والكف عن التدبر والاستفسار والاختبار .. فمثلاً كون أن الإلكترون هو جسيم لم نره بعد ومحاط بالألغاز فإن ذلك لايعنى أن نساويه بأمر غيبى لاأساس له من علم أو منطق كالعرش أو الكرسى الذى يحمله ثمانية .. فالإلكترون يمكن دراسته واختباره بل وتطويعه واستخدامه فى كل ماتراه الآن حولنا من ابتكارات علمية لم يكن لدى الأجيال الماضية حتى إمكانية تصور حدوثها .. ولازلنا ندرس ونتعلم ونسبر أغوار المادة والطاقة والخلية الحية .. أما عندما يقول مصطفى محمود "قل لى ماالإلكترون أقول لك ماالكرسى"، وكأنما يتحدى صديقه الملحد ويسخر منه لجهله بأمر ما من أمور العلم - فكأنه يعلن على الملأ أن جسيماً كالإلكترون لن يتمكن البشر أبداً من سبر أغواره .. أو أنه أمر غيبى شأنه شأن الكرسى والعرش .. وهنا الخطأ ياأستاذى الكبير .. فإن سؤالك "قل لى ماالإلكترون" إجابته ألوف الكتب - وألوف الأبحاث العلمية - وألوف الأجهزة الإلكترونية المعجزة التى يتداولها أبناء العصر الحالى كل يوم - ولازلنا نعمل - ولازلنا نكتشف - ولازلنا ندرس ماهو أعقد من الإلكترون بزمان ..
إن الإلكترون يمكن دراسته واختباره، وكذلك الكهرباء والجاذبية والزمان - أما العرش والكرسى وجن سليمان فهى أمور شأنها شأن سائر خرافات الأقدمين كالتنين والغول والعنقاء والرخ وخلافه .. وجميع الآلهة والشياطين

وعفاريت التراث كما يقول الدكتور سيد القمنى كلها تخيلات إنسانية بحتة ليس هناك دليل واحد على وجودها - والدليل على أنها صناعة بشرية هو أن كل هذه الخرافات مبنية على مايعرفه الإنسان وعلى شاكلته أو على شاكلة مايعلمه .. فمثلاً التنين أصله مزيج من الحية والسحالى الضخمة، والغول أصله الغوريلا والشمبانزى والمشوهين من البشر، والعنقاء والرخ أصلهما النسر أو العُقاب، والعرش أصله عرش الملوك - والإله أصله ملوك الأرض إذ يجلسون على العرش ويحملهم اتباعهم على الأكتاف .. وكلها صناعة بشرية لامراء ..

ثم يسأل الصديق الملحد عن النملة التى تكلمت فى القرآن وحذرت بقية النمل من قدوم سليمان .. ويجيب مصطفى محمود: "لو قرأت القليل عن علم الحشرات لما سألت هذا السؤال .. إن علم الحشرات حافل بدراسات مستفيضة عن لغة النمل ولغة النحل .. ولغة النمل الآن حقيقة مؤكدة .. فما كان من الممكن أن تتوزع الوظائف فى خلية من مئات الألوف ويتم التنظيم وتنقل الأوامر والتعليمات بين هذا الحشد الحاشد لولا أن هناك لغة للتفاهم، ولامحل للعجب فى أن نملة عرفت سليمان .. ألم يعرف الإنسان الله؟"
ودعنى أعلق أولاً على الكلمة الأخيرة فى هذا الرد "ألم يعرف الإنسان الله؟".. لاياسيدى الفاضل - لم يعرف الإنسان الله - وإنما خلقَ الانسانُ اللهَ.
إن الإنسان كان لزاماً عليه أن يخلق لنفسه إلهاً .. اننا لانريد أن نصدق أننا بمفردنا فى هذا العالم - لامعين ولامنصف - ولاحتى شرير متسلط هدفه تعذيبنا - وإنما كون بارد لايعنيه وجودنا من عدمه .. إن هذا هو أصعب درس على الإنسان أن يقبله ..
أما بالنسبة للغة النمل والنحل فهذا صحيح - هناك لغة للنمل والنحل بل وجميع الكائنات الحية، وهى ليست بالضرورة "لغة" كما نفهمها نحن بمفردات لغوية وإنما وسيلة للتفاعل مع الأفراد من نفس النوع .. فلغة النحل هى حركة الشغالات بزاوية مع اتجاه الشمس إلى يمين أو يسار لتحديد مصدر الرحيق .. ولغة النمل مواد كيميائية تتبادلها الشغالات .. والحشرات تفرز مواداً كيميائية طيارة تمكن أفراد النوع من تحديد مصدر الغذاء - أو مصدر الخطر، أو للتزاوج بين الذكر والأنثى أو لأن ميعاد تكوين الطرد والارتحال قد حان .. والبكتريا والفطريات والنباتات تفرز مواداً كيميائية تحدد نموها ونمو غيرها من نفس النوع أو من نوع آخر، وكيماويات تساعد فى العثور على الخلايا الأخرى للتلاقح أو للإنبات .. ودراسة هذه العلوم أمر شاق يستغرق العلماء سنوات طوال - وهو بحث لانهاية له .. إلا

أن ماتطرحه علىّ هنا هو إمكانية أن يحيط أحدهم بهذه العلوم بلا تعب وبلا عمل شاق وجهد مستمر لسنوات طوال - وإنما لأن الله قد أراد له ذلك ..
إذن بالعامية المصرية دعنى أقول لك: ماكانش حد غلب ..
إن كان بيننا بشر يحادثون الآلهة ويفهمون كلام الحشرات ويسخرون الجان
إذن فليس هناك أى داع لجامعاتنا ومدارسنا ومؤسساتنا - ولنا أن نستشير هؤلاء الصفوة من الواصلين الأقطاب وأهل العلم اللدنى فى كل كبيرة وصغيرة وبهذا نسبق الغرب ونتوج بأرقى الحضارات .. إلا أن واقع الأمر هو عكس ذلك تماماً .. فإن هذه الأمور لاتزيد اصحابها إلا تخلفاً وتواكلاً واعتقاداً فى الخرافات .. والأدهى من ذلك أنها تصنع من أصحابها أناساً منزوعى الإرادة لاحيلة لهم ينتظرون المعجزة ..

ويتسائل الملحد: "كيف يمحو الله ما يكتب فى لوح قضائه .. أيخطىء ربكم كما نخطىء فى الحساب فنمحو ونثبت .. أم يراجع نفسه كما نراجع أنفسنا؟"
ويجيب مصطفى محمود: "الله يمحو السيئة بأن يلهمك بالحسنة "إن الحسنات يذهبن السيئات" ويقول عن عباده الصالحين: "وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة" وبذلك يمحو الله دون أن يمحو .."
حسناً ..
والسؤال هنا: ولماذا يتركك الله للسيئة من أصله؟
طبعاً ستقول لأنه أرادنا احراراً ..
حسناً .. لماذا إذن يلهمك بالحسنة طالما أنت حر..؟
ولماذا ألهمك بالسيئة قبلها ..؟
أم أنه يلهمك بالحسنات فقط بحسبه الإله، ثم هو يترك مهمة الإلهام بالسيئات للشيطان ولنفسك الأمارة بالسوء والتى لم ليخلقها لك هو طبقاً لما تقول فى الأبواب الأولى من هذا الكتاب .. وبهذا ننفى تهمة الظلم والشر عن الإله ونلصقها بكائن آخر هو أكثر استحقاقاً لها ..؟
سؤال مطلوب الإجابة عليه ..

● ● ● ● ●

ويتسائل الملحد: وما رأيك فى الآية "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، هل كان الله فى حاجة لعبادتنا؟
ويجيب مصطفى محمود:

"بل نحن المحتاجون لعبادته .. أتعبد المرأة الجميلة حباً بأمر تكليف أم أنك تلتذ بهذا الحب وتسعد لتذوقك لجمالها؟ كذلك الله وهو الأجمل من كل جميل إذا عرفت جلاله .. وذروة المعارف بعد معرفة النفس هى معرفة الرب الذى خلق تلك النفس .. وبهذه المعرفة يبلغ الإنسان ذروة السعادات .. يقول الصوفى لابس الخرقة: "نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف".. تلك هى لذة العبادة الحقة وهى من نصيب العابد .. ولكن الله فى غنى عنها وعن العالمين .. إنما خلقنا الله ليعطينا لاليأخذ منا .. وهو يقول لعبده المقرب فى الحديث القدسى :(عبد أطعنى أجعلك ربانيا تقول للشىء كن فيكون) .. ألم يفعل هذا لعيسى عليه السلام .. فكان عيسى يحى الموتى بإذنه ويخلق من الطين طيراً بإذنه ويشفى الأعمى والأبرص بإذنه .."

ياخسارة ياأستاذى الكبير ..

لقد وقعت أنت أيضاً فريسة لهذه الخرافات .. أن يحيى أحدهم الموتى ويخلق من الطين طيراً ..

والغريب أن يأتى ذلك من عالم مثلك - درس الطب والتشريح والفسيولوجى والبيولوجى .. وبدلاً من أن تناقش هذه الادعاءات مناقشة علمية تاريخية منقحة إذا بك تلقى بنا إلى خضم الأساطير والخرافات ..

ياخسارة ياأستاذى الكبير ..

إن ماتفعله هنا هو أنك تقول للشاب الصغير المتفتح إن أنت أردت أن تصبح كائناً متميزاً وخارقاً للمعتاد فليس عليك سوى الصلاة والتقرب إلى الله .. وبذلك تصير مثل المسيح وتحيى الموتى ..

كم من شاب أعماه كلامك ذلك عن اتباع الإسلوب العلمى المنهجى فى التفكير ..

كم من شاب قضى عمره فى التهدج والدعاء لعله صار عبداً ربانياً يقول للشىء كن فيكون .. واستيقظ من أوهامه على لاشىء ..

كم من شاب آمن بأن لاصلاح لأمره وأمر بلاده المتعثرة إلا بالصلاة والاجتهاد فى عبادة الله واستفاق بعد أن رأى البناء حوله يتهاوى رغم أنه ماادخر جهداً فى الدعاء والابتهال ..

وكم من شاب آمن بكلامك ولم يزده تدهور أحواله سوى غلواً وتشدداً فما كان منه إلا أن اعتنق فكر العنف والتدمير وانتهى به الأمر أن دمر حياته ..

إن الآية التى تقول "وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" ليس لها سوى معنى واحد .. وهو نفس المعنى الذى يطرحه الحديث القدسى "كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى" .. وليس فى الآية القرآنية أو الحديث القدسى أى التباس ..

كائن ضخم خارق للطبيعة أصابه الضجر من وحدته فخلق كائنات صغيرة على شاكلته لتعبده وتخبره أنه حلو ..
فقط هكذا ..
ولاأدرى من أين أتى مصطفى محمود بالتفسير الذى يطرحه من أن مخلوقات الله هم المحتاجين لعبادته ..
فإن كان هو غير محتاج لعبادتنا لماذا يحرقنا إذن إن نحن لم نفعل ذلك ..؟
ولماذا لايكون ماهو واضح لمصطفى محمود لهو واضح أيضاً لجميع تلك المخلوقات والتى من المفترض أن تعرف مهمتها فى الكون وهى عبادة ذلك الكائن الخارق ..؟
ولماذا لايعلنها الله واضحة صريحة لامراء فيها ويظهر لنا نفسه فى عليائه ثم يشير بإصبعه فإذا بنا جميعاً ساجدين محوقلين ..؟
أليس هذا هو مايريد ..؟

١٤) موقف الدين من التطور

يقول الصديق الملحد:
"موقفك اليوم سيكون صعباً، فعليك أن تثبت أن خلق الإنسان جاء على طريقة جلا جلا .. أمسك الخالق قطعة طين ثم عجنها فى يده ونفخ فيها فإذا بها آدم وهو كلام تخالفك فيه بشدة علوم التطور التى تقول إن آدم جاء نتيجة سلسلة من الأطوار الحيوانية السابقة، وإنه ليس مقطوع الصلة بأفراد عائلته من الحيوانات، وأنه والقرود أولاد عمومة يلتقون معاً فى سابع جد .. وإن التشابه الأكيد فى تفاصيل البنية التشريحية للجميع يدل على أنهم جميعاً أفراد أسرة واحدة .."
ويجيب مصطفى محمود قائلاً :
"دعنى أصحح معلوماتك أولا فأقول لك إن الله لم يخلق آدم على طريقة جلا جلا .. فالقرآن يروى قصة مختلفة تماماً عن خلق آدم، قصة يتم فيه الخلق على مراحل وأطوار وزمن إلهى مديد، والقرآن يقول إن الإنسان لم يخرج من الطين مباشرة، وإنما خرج من سلالة جاءت من الطين: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" وأن الإنسان فى البدء لم يكن شيئاً يذكر:"هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا" .. وأن خلقه جاء على أطوار "مالكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا" و"إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين" معنى ذلك أن هناك مراحل بدأت بالخلق ثم التصوير .. ثم التسوية ثم النفخ .. و"ثم" بالزمن الإلهى معناها ملايين السنين .. يقول الله سبحانه أنه: "وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة" فى البدء كان الطين، ثم جاءت سلالة من ماء مهين هى البدايات الأولى للإنسان التى لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم التسوية والتصوير، ثم نفخ الروح التى بها أصبح للإنسان سمع وبصر وفؤاد .. فآدم إذن نهاية سلسلة من الأطوار وليس بدءاً مطلقاً على طريقة جلا جلا .."
جميل ..
وقضية التطور لاشك قضية علمية معقدة ينبغى علينا فهمها فهماً جيداً قبل أن نخوض فى تفاصيلها وعلاقتها بقصة الخلق وموقف الدين من كل ذلك .. وبداية لى أن أقول أن نظرية داروين هى فى أصلها ملحوظة فى غاية البساطة ..

نظرية داروين، ببساطة، تقول بأن جميع الأنواع الحية نشأت من أصل واحد - ثم تفرعت الكائنات جميعها كفروع الشجرة - كل أتى مما قبله ..
أما كيف حدث ذلك فهنا المشكلة ..
ولتبسيط نظرية داروين رأيت أن أطرح نقاط ثلاث إن تفهمناها سهل علينا تفهم النظرية فى مجملها ..
النقطة الأولى التى يجب علينا تفهمها جيداً هى أن القرد لاينجب إنساناً - ولاالغوريلا تلد شمبانزى ولاللأرنب أن يلد فأراً .. إن التطور لايحدث على هذا النحو ..
التطور هو أن كائناً حياً يلد أو ينتج كائناً آخراً على شاكلته، إلا أن هذا المولود الجديد يختلف اختلافاً طفيفاً جداً عن الأبوين ..
هذه هى قاعدة التطور - بل وأساس الحياة بأكملها - التنوع والاختلاف ..
وعبر آلاف بل وملايين السنين تزداد هذه الاختلافات طبقاً للبيئة التى تعيش فيها الأفراد الجديدة حتى نصل إلى كائن يختلف فى شكله وفسيولوجيته (أى وظائفه الطبيعية) عن الكائن الأصلى .. فمثلاً إذا تصورنا معاً أن عالماً بيولوجياً قد اختبر ذلك الفرد الأول ثم خلفته لما وجد اختلافاً كثيراً، إلا أننا إذا سرعنا عجلة الزمن ونظرنا إلى الأجيال المتلاحقة واحداً تلو الآخر لأمكن لنا ملاحظة الاختلافات وهى تظهر فى بطء عبر الأجيال حتى يصير الفرق بين الجد الأول وماوصلنا إليه فرقاً كبيراً يمَكننا من اعتبارهما نوعين منفصلين ..
وهنا يعنينى أن أوضح نقطة هامة غالباً مايتسبب عدم فهمها فى عدم فهم النظرية على نحو تام .. تلك النقطة هى أنه من الخطأ أن نقول، على سبيل المثال، أنه إذا ماازدادت دكانة بشرة المرء نظراً لعمله لفترات طويلة تحت الشمس أنه سيورث هذه الصفة لأبنائه، أو أن الحداد سينتج بالضرورة أطفالاً ذوى عضلات قوية، إن التطور لايحدث على هذا النحو .. إن التطور هو أن يهاجر جمع من ذوى البشرة الداكنة إلى منطقة باردة لايرون فيها الشمس - وعبر الآلاف من السنين، وبدون الحاجة إلى التزاوج مع سلالة أخرى، تبدأ الصفات الوراثية المسؤولة عن دكانة البشرة فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً نظراً لعدم الحاجة إليها إلى أن نصل إلى أفراد أقل دكانة بكثير من الأجداد الذين عاشوا فى المناطق الحارة .. والعكس صحيح .. وكذلك بالنسبة للحداد قوى العضلات، فمثلاً إن فرضنا أن جمع من البشر نشأ فى منطقة جغرافية تستدعى عملاً عضلياً شاقاً فإن الصفات الوراثية المسؤولة عن تكوين العضلات تتراكم فى الأجيال التالية وتنتخب الطبيعة دائما الأصلح لهذا العمل حتى نصل إلى سلالة من البشر معظم أفرادها ذوى عضلات قوية، أو إن

عاش جمع من الكائنات فى ظروف باردة انتخبت الطبيعة شيئاً فشيئاً الأفراد الذين لديهم إمكانية أكبر على تراكم الدهون واضمحل عدد الأفراد الأقل كفاءة إلى أن نصل إلى مجموع من الأفراد يتفوقون فى هذه الصفة عن أقرانهم الذين عاشوا فى منطقة أكثر دفئاً .. وهكذا ..
إن على هذا النحو يحدث التطور .. وهو لذلك أمر تصعب دراسته فى الكائنات التى تعيش لفترات طويلة مثل الإنسان أو القردة أو الأفيال، بينما فى الكائنات الأولية مثل البكتريا والفيروسات والفطريات التى تمر بآلاف الأجيال فى أزمنة محدودة فإن التطور حقيقة يراها ويلمسها العالم كل يوم .. فدارس البكتريا والفطريات يرى تحت المجهر كيف تتطور هذه الكائنات إذا ماوضعت تحت ظروف بيئية أو كيميائية مختلفة - وكيف تُكون سلالات منيعة للمضادات الحيوية - وكيف تتكيف تلك الكائنات وتُطور سلالات جديدة أشد تحملاً أو أكثر تكيفاً مع الظروف البيئية الجديدة التى تجد عليها .. وكيف تتطور الحشرات لتصير منيعة للمبيدات ماجدّ منها .. وكيف أن النبات نفسه يتطور لكى يكافح الإصابة بالحشرات الضارة - فيطور شعيرات تعرقل سير الحشرة على الأوراق - وكيماويات تقلل من الكفاءة التناسلية للآفة، وكيماويات أخرى تستخدمها الكائنات النافعة لتصل إلى فريستها من الآفة الضارة للنبات .. وفى نفس الوقت فإن الآفة تتطور هى أيضاً بدورها فتستطيل أجزاء فمها وأرجلها لتتمكن من التغذية على النبات ذو الأشواك والشعيرات الطويلة - وتُخلق إنزيمات فى جسمها تكسر فاعلية الكيماويات الضارة التى تبتلعها إذا ماتغذت على النبات ..
هذا هو التطور ياأستاذى الفاضل .. وهذا هو صراع البقاء ..
النقطة الثانية والمهم فهمها هنا هى الانعزال الجغرافى - وهو عامل هام فى مسيرة التطور .. ذلك أنه إذا ماانفصل جمع من الكائنات عن بيئته الأصلية وانعزل فى بيئة أخرى مختلفة عن بيئة أسلافه فإنه شيئاً فشيئاً يتلائم ويتكيف مع تلك البيئة الجديدة .. وإذا ماستمر هذا الانعزال لزمن طويل وكان انعزالاً تاماً لايلتقى فيه أبناء الجمعين المنفصلين وصلنا بعد آلاف الأجيال إلى نوعين مختلفين من الكائنات لايمكنهما التزاوج ثانية .. وهكذا تتكون الأنواع .. وقد تم إثبات ذلك معملياً إذ نجح العالمين الأمريكيين وليام رايس وجورج سالت فى إنتاج سلالتين مختلفين من ذبابة الدروسوفيلا عن طريق عزل بعض الأفراد من نفس النوع فى مجموعتين منفصلتين ووضع كل مجموعة فى بيئة تختلف عن البيئة الأخرى - وعبر خمسة وثلاثين جيلاً ازدادت الاختلافات بين أفراد هاتين المجموعتين إلى أن وصلنا إلى سلالتين مختلفين لاتتزاوج افرادهما رغم أن مصدرهما نوع واحد ..

وفى حالة الإنسان فإن الجد الأكبر أو السلف المشترك لجميع القردة العليا الذى عاش على الأرض منذ ١٤ مليون سنة مضت كانت خلفته على شاكلته ولم تكن بشراً أو قردة أو شمبانزى، إلا أنه عبر الأزمنة السحيقة وعبر انفصال الأجيال الجديدة فى بيئات مختلفة تزداد هذه الاختلافات شيئاً فشيئاً إلى أن نصل إلى كائنات تختلف كثيراً مع ذلك الجد الأول القديم .. وهكذا يبدأ تكون الأنواع المنفصلة كالغوريلا والأورانج أوتانج والشمبانزى والإنسان .. وهذا لايعنى أن الغوريلا أنتج أورانج أوتانج وأن الأورانج أوتانج أنتج شمبانزى والشمبانزى أنتج إنسان .. وإنما من نوع واحد وهو ذلك السلف المشترك تفرعت عدة خطوط أو انفصلت عدة مجموعات كل مجموعة عاشت فى بيئة مختلفة فتشكلت طبقاً لما تمليه عليها هذا البيئة فى تواز مع الخطوط الأخرى، وكل نوع سواءً كان أورانج أوتانج أو شمبانزى أو إنسان هو نتاج كل خط منفصل ..

ويهمنا هنا أن نوضح أن هذا الجد القديم فى كثير من الحالات لم ينقرض ولايزال أيضاً موجوداً إذا مااستمر فى بيئته الأصلية، وذلك مثل الجاموس الوحشى مثلاً والذى هو أصل الجاموس المستأنس حالياً، فلايزال ذلك النوع الأصلى (أو الجد الأول) موجوداً الآن فى نفس زمن وجود أخلافه الحاليين الذين تكيفوا مع البيئة الجديدة حول بنى البشر، ونفس الكلام فى الكلاب والقطط البرية مثلاً والتى هى أصل الكلاب والقطط المستأنسة حالياً .. وينطبق ذلك على آلاف الأنواع الأخرى من الكائنات الحية حيث لايزال الجد أو النوع الأصلى الذى تفرعت منه أنواع أخرى موجوداً ولم ينقرض ..

النقطة الثالثة والهامة هنا لتفهم نظرية التطور هى السؤال الذى سمعته كثيرا بل وأثار حيرتى أنا نفسى أثناء دراستى لنظرية التطور .. هذا السؤال هو: لماذا إذن لسنا ملائكة ولماذا لسنا كائنات سامية بأجنحة وإمكانيات خارقة؟ فلطالما قلنا بالتطور فإن أى شىء يصير ممكناً إذن ..

وفهم هذه النقطة يكمن فى فهم حقيقة أن التطور يحدث لسبب - وسببه هو التكيف مع البيئة الجديدة ..

فحينما تطور الإنسان الأول وتمكن من صنع واستخدام الأدوات وتمكن من الزراعة والبناء لم يعد بحاجة إلى ذيل يمَكنه من تسلق الأشجار .. ولذلك اضمحل الذيل شيئاً فشيئاً ولم يبق منه فى العصعص سوى عدة فقرات أثرية تدل على وجود ذيل عند أسلافنا فى فترة جيولوجية سابقة إلا أنه ضمر لعدم الاستعمال لمئات الآلاف من السنين .. ونفس القضية نجدها فى عضلات الأذن الضامرة فى الإنسان - فنحن الآن لسنا بحاجة لتحريك آذاننا لنسمع كل

مايدور حولنا من صراع فى الغاب لنتمكن من الحياة .. وكذلك فى الزائدة الدودية التى ضمرت فى الإنسان الذى صار يطهو طعامه على عكس جميع الثدييات التى لاتزال تقتات بالطعام النىء - وكذلك الشعر الذى انحسر فى مناطق قليلة من جسم الإنسان الحالى بدلاً من أن كان (ولازال) يكسو جسم أقربائنا من القردة العليا ..

وكما أن التطور حقيقة بيولوجية فإنه حقيقة اجتماعية أيضاً .. فمثلاً ننظر إلى الدول المتقدمة والتى تمكنت من تحجيم سلطة الفرد وسلطة رجل الدين وسلطة الحاكم ووضعهم تحت المسائلة .. والسبب هو البيئة الباردة التى نشأ فيها هذا الإنسان وتميز أهلها بالعمل الجاد والدأب والمثابرة - فهو إن لم يعمل جاهداً فى الصيف لمات فى الشتاء البارد، وإن لم يتعلم الحرص والادخار وفنون تخزين الطعام وترشيد الاستهلاك لهلك فى شتائه الطويل .. وهو إن لم يجادل الحاكم الذى يبغى إخضاعه والتحكم فى مقدراته لما استطاع الحياة .. وهكذا تطورت بعض هذه المجتمعات إلى العمل "مع الحاكم" وليس "للحاكم" - وهكذا يحيا الجميع .. أما فى البلاد الحارة وحيث الوفرة فى كل شىء تكاسل البشر عن العمل - وتراجعوا عن تحدى الفرعون - فغداً تشرق الشمس - ويهطل المطر - ويأتى الماء - وتثمر الأشجار - ولاحاجة لنا لأن نتعلم التخزين والترشيد - فالخير كثير .. فإذا ماخرج علينا أحدهم بسوط وعصا وقال إن هذا النيل ملكى سجدنا له سمعاً وطاعة إذ لم نرد أن نخسر أرضنا الخصبة، وعشنا الهادىء إلى جوار النيل .. والنسيم العليل .. فلندعه يطعمنا ويجلدنا إن شاء .. ولاداعى للتحدى - ومن هنا تطورت بعض المجتمعات إلى تحجيم سلطة الفرد وتبنى العمل الجاد - وتطورت مجموعات أخرى إلى التواكل وتأليه الفرعون .. فكل من تمرد إما قُتل أو فر، وبذلك تراكمت الجينات أو الصفات الوراثية المسؤولة عن الخضوع والخوف والإذعان فى الجمع الذى بقى إلى جوار النيل وآثر السلامة، وفقدنا جينات المغامرة والإقدام والتحدى مع من أُعدم لتحديه الفرعون أو مع الذى فر من بطشه .. والسبب هو البيئة ..

وبقراءة ماكتبه مصطفى محمود فى هذا الباب فإنى على ثقة من أنه، وهو العالم القدير المتدبر، كان على علم تام بمصداقية نظرية داروين - إلا أنه لم يشأ أن يعلنها صريحة على الملأ .. إذ أننى كلما قرأت ماكتبه مصطفى محمود عن التطور سواءً فى كتابه ذلك أو فى كتب أخرى كلما ازددت اقتناعاً بأنه يعلم علم اليقين صواب تلك النظرية .. وهذا لايدهشنى فى الحقيقة .. فهو أولاً وأخيراً طبيب وقارىء ومفكر .. وهو إن فكر بصدق وعدم تحيز لانحنى احتراماً أمام براعة داروين حين يطرح أكثر التفاسير منطقية

ووضوحاً لقضية تطور ونشوء الكائنات .. إلا أنه للأسف رغم اقتناعه ذلك قرر أن يمسك العصا من المنتصف - ربما لعلمه بمدى شراسة الزوبعة التى سيثيرها والمتاعب التى سيجرها على نفسه إن طرح النظرية وأثبت مصداقيتها .. وربما كان بإمكانه أن يقف من التطور موقف بعض رجال الدين المسيحى الغربيين المعروفين الآن باسم "Theistic evolutionists" - وهم أولئك الذين قرروا الاعتراف بصواب أطروحة داروين إلا أنهم فى نفس الوقت قرروا ألا يتخلوا عن دور الإله فى ذلك .. وفى منطقهم أن الإله قد أراد للتطور أن يحدث - مثله مثل العالم الذى يزرع البكتريا فى طبق بترى ثم يضعها تحت ظروف مختلفة فإذا بها تتكيف وتنتج سلالات أخرى تختلف عن البكتريا الأم وعن بعضها البعض طبقاً للظروف البيئية والكيماوية التى توضع فيها كل سلالة حتى نصل إلى سلالات أو أنواع أخرى تختلف عن السلالة الأم .. وهؤلاء الـ Theistic evolutionists كثيرون الآن نظراً لوضوح نظرية داروين وصمودها أمام جميع التحديات العلمية والفكرية - وهى الآن تعد حقيقة علمية يساندها معظم العلماء حتى المتدينين منهم، فهى فى حقيقة الأمر مفتاح دراسة علم الأحياء برمته .. إلا أن الدكتور مصطفى محمود قد قرر أن يخفى اقتناعه ذلك على الرغم من أنه يكاد يصرح به فى مواربة ذكية بين آخر سطرين فى هذا الباب حيث يقول: "وإذا عدنا لسورة السجدة التى تحكى عن الله أنه "الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة" فإن معنى الآية صريح فى أن البدايات الأولى للإنسان التى جاء منها آدم فيما بعد وهى تلك التى جاء نسلها من ماء مهين لم يكن لها سمع ولا أبصار ولا أفئدة، وإنما جاءت هذه الأبصار والأسماع والأفئدة بعد نفخ الروح وهى آخر مراحل خلق آدم .. هى إذن بدايات أشبه بالحياة الحيوانية المتخلفة "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا" .. ولاأظن أن هذا يختلف عن العلوم التى تتحدث عنها .."

بل ولم يخف مصطفى محمود اقتناعه بنظرية داروين فقط فى آخر سطرين من هذا الباب - بل قرر نقد النظرية بأكملها .. وفى نقده للنظرية يقول أن داروين أخطأ أو لم يلحظ نقاط ثلاث ..

النقطة الأولى هى الجمال - وكيف أننا أمام خالق مبدع يرسم جناح الفراشات بالألوان الطبيعية - وليس فى ذلك دليل (على حد قول مصطفى محمود) على صراع البقاء الغليظ ..

والنقطة الثانية هى الطفرة، واستحالة ارتقاء الكائنات اعتماداً على الطفرة وحدها، فالطفرة فى معظمها تنتج مسوخاً وتشوهات ..
والنقطة الثالثة هى فى اكتشاف الخريطة الكروموزومية لكل كائن - وكيف أن هذه الخريطة تختلف من كائن لآخر - وبذلك تنتفى إمكانية خروج أى كائن من كائن آخر ..
وللأسف فإن كل نقطة من النقاط السابقة تحوى خطئاً عظيماً وتضليلاً للقارىء .. ويعنينى هنا أن أقول أننى لاأعتقد أنه كان تضليلاً متعمداً .. فلازلت على عشقى واحترامى لهذا الرجل .. على تناقضاته ..
ولأبدأ بقضية الجمال ..
ولى هنا أن أتسائل .. ماهو الجمال ..؟
الجمال هو ماتراه أنت جميلاً وهذا أمر نسبى ..
فمثلاً لماذا نرى الفراشات جميلة ..؟ سبب ذلك أننا عبر أزمنة التطور السحيقة ربطنا بين تواجد الفراشات وميعاد تفتح الزهور - وذلك معناه الخصب والنماء وقرب توفر الغذاء - لذلك صارت رؤية الفراشات وهى تنتقل من زهرة إلى زهرة وكذلك رؤية الزهور نفسها أمراً يبعث البهجة على نفس الإنسان ..
وفى نفس الوقت لنا أن نتسائل .. أنت تقول أن الله أبدع ورسم ولون أجنحة الفراشات الجميلة - والسؤال هنا .. من خلق الصرصور والبق والقمل والضفادع والذباب ..؟ ومن خلق فيروس السعار والجدرى وطفيل الملاريا فى مفهومك وطبقاً لما تعتقد فيه ..؟
إن عالماً مثلك كان من المفترض أن يشرح لنا ماهية الجمال .. ولماذا نرى الجمال فى أشياء والقبح فى أشياء أخرى .. لاأن تحدثنى عن فنان مبدع يلون الفراشات - فبنفس المنطق أسألك من المجرم الذى زود فم بعوضة الملاريا بمناشير ومخاريز تثقب جلدك وتمتص دمك ..؟ ومَن المفترى الذى نحت جسم طفيل الملاريا ليسبح عكس تيار الدم ويصل إلى الكبد أو المخ ويدمره ..؟
أليس كذلك؟
إن سبب رؤيتنا للقبح فى البعوضة والصرصور والذبابة أن هذه الكائنات تنقل لنا أمراضاً لذلك رأيناها قبيحة وتجنبناها وكافحنا أعدادها بالمبيدات وخلافه ..
ثم إنك تقول أن الجناح الملون لايتميز عن الجناح العادى وليس أكفأ فى الطيران ..

ياخسارة ياأستاذى الكبير .. فقد كنت انتظر منك أن تشرح المسلك التطورى الذى بمقتضاه ظهرت بعض أجنحة الفراشات ملونة وأخرى غير ملونة ..
إن السبب هو التكيف مع البيئة وتجنب الافتراس .. فهذه الحشرة الجميلة الملونة إذا ماحطت على زهرة لتتغذى عليها لصعب على الكائن المفترس تمييزها إذ تشابهت أشد الشبه مع النبات الذى تحط عليه - فذابت فى الطبيعة وزاد ذلك من فرصتها للتغذى على رحيق الزهرة دون أن يتمكن المفترس من رؤيتها بسهولة .. وهكذا تكيفت وتشكلت كل فراشة حسب بيئتها لضمان الحياة ولبقاء النوع ..
وكلماتك هذه تذكرنى بإحدى حلقات برنامجك الشهير وهى الحلقة التى عرضت فيها كيف أن تكيفت إحدى الحشرات وكادت أن تطابق شكل ورقة النبات التى تحط عليه - وياله من إبداع مذهل وإعجاز إلهى مهول، فهاهى تلك الحشرة وقد دبر لها الخالق مسلكاً عبقرياً للتخفى من الحداءة .. فهاهى تتشبه بورقة النبات التى تحط عليه وبذلك تخدع الحداءة وتفلت من الوقوع فريسة لها .. وطوال الحلقة كان شغلنا الشاغل هو عبقرية وإبداع الخالق المصور المدبر الحكيم المكير الذى خلق للحشرة هذه الإمكانية المعجزة .. ياسبحان الله ..
وانتظرت طوال الحلقة أن يعرض مصطفى محمود مافعله الخالق فى الحداءة نفسها - فالحداءة أيضاً إحدى مخلوقاته - أليس كذلك ..؟ ويجب عليه أيضاً كما منح تلك الحشرة مثل هذا التحايل البديع ليضمن لها حياتها أن يمنح الحداءة إمكانية أخرى لكى تتمكن من الافتراس والحياة ..
أليس كذلك ..؟
كنت أتصور مثلاً أنه سيعرض علينا كيف أن عين هذه الحداءة قد تطورت بدورها وصارت أكثر حدة من عين الإنسان نفسه - وبهذا يمكنها رؤية مايصعب علينا رؤيته ..
كنت أتصور مثلاً أنه سيعرض علينا كيف أن تطور جسم هذه الحداءة وصار على درجة معجزة من المرونة واللياقة والخفة لتتمكن من الهجوم الخاطف على فرائسها فى براعة وسرعة ..
كنت أيضاً أتصور أنه سيعرض علينا كيف أن هذه الحداءة قد طورت بدورها حواساً أخرى إلى جوار حاسة البصر، كالشم والسمع، فهذه الحداءة يمكنها شم رائحة فرائسها واستقبال كيماويات طيارة لانشمها نحن كبشر وليس لدينا إمكانية استشعارها .. وكيف أن هذه الحداءة يمكنها أيضاً سماع حفيف أجنحة هذه الحشرة لتتمكن من العثور عليها واصطيادها ..
وقد تنجح الحداءة .. وقد لاتنجح ..

وقد تفلت الحشرة .. وقد لاتنجح فى الإفلات ..
وهذا هو صراع البقاء ..
وانتظرت طويلاً لربما عرض مصطفى محمود النصف الآخر من القصة .. إلا أن عبارته الشهيرة جائت مسرعة .. وإلى حلقة قادمة بإذن الله ..
ولربما وجدت نفسى - كشاب صغير فى ذلك الوقت - أردد بعده قائلاً "ياسبحان الله" .. فلم يكن قد تطور فكرى بعد لأتمكن من رؤية النقص فى تلك القصة التى لم تكتمل .. واحتاج الأمر منى إلى عدة سنوات من التفكير ..
لماذا خص الإله هذه الحشرة بمثل ذلك التكيف البارع ..؟
هل كان بينه وبين الحداءة ثأر ما ..!
ومن خلق الحداءة إذن فى مفهومك ..؟
هل خلق الإله الحشرة الذكية - وأتى غريم له وخلق الحداءة ..؟
أم أن الإله هو الذى خلق الحداءة ثم أتى غريمه وخلق الحشرة الذكية ..؟
والقضية هنا أن ذلك الرجل الخارق الذى تسميه بالإله لم يخلق لاالحداءة ولاالحشرة الذكية .. ولا هو موجود أصلاً .. وإنما من بدايات غاية فى البساطة والبدائية ومن خلايا أحادية فى الماء ليس بها سوى شريط واحد من الحمض الأمينى DNA وعبر أزمنة سرمدية سحيقة نشأت وتطورت وتشكلت الحشرة على هذا النحو شيئاً فشيئاً طبقاً لقوانين الانتخاب الطبيعى، وزادت فرص الحياة للأفراد التى نجت من الاصطياد وزادت نسبة الجينات التى تجعلها مشابهة للورقة التى تحط عليها عبر الأجيال - فالحشرة التى اختلف شكلها وتميزت عن الورقة زادت فرصة اقتناصها وبالتالى قلت فرص توريث عواملها الوراثية للأجيال التالية، والعكس صحيح، فقد تراكمت الجينات التى تؤدى إلى تماثل الحشرة مع النبات التى تحط عليه، إلى أن وصلنا إلى حشرة تكاد تطابق ذلك النبات تحديداً .. ونفس الكلام فى الحداءة، فالأفراد الأنجح والأقدر على العثور على الحشرة زادت فرص حياتهم وتوريثهم لصفاتهم الوراثية، بينما الأفراد التى تفشل فى الاصطياد تقل فرص حياتها وتقل نسبة صفاتها الوراثية فى الأجيال التالية، وهكذا نصل إلى حداءة أُعد جسمها وكل حاسة فيها لاصطياد الحشرة بكفاءة، وفى نفس الوقت نصل إلى حشرة مُعد جسمها وكل صفة وراثية فيها لتفادى هذا الافتراس، ولايزال هذا الصراع والتطور قائماً .. فهو صراع بلا نهاية، فالشكل الحالى للحداءة أو الحشرة ليس هو نهاية المطاف، وإنما حلقة فى سلسلة لانهائية من التطور وصراع البقاء .. أما إن صممت على موقفك من أن الله هو الذى خلق كلاً من الحداءة والحشرة الذكية فعليك إذن أن تفسر لى الحكمة من خلق كائن ما خصيصاً

ليَفترس - بفتح الياء - وكائن آخر خصيصاً ليُفترس - بضم الياء .. وعليك أيضاً أن تفسر لى حكمة الإله فى أن يخص الكائن الأول بكل تحور ممكن ليتمكن من الافتراس، وأن يخص الكائن الثانى بكل تحور ممكن ليتفادى ذلك الافتراس ..

• • • • •

وننتقل الآن إلى النقطة الثانية فى النقد الذى يطرحه مصطفى محمود لنظرية داروين - وهى نظرية الطفرة .. وصحيح أن الطفرات فى معظمها تنتج مسوخاً وتشوهات إلا أنها فى حالات أخرى كثيرة تنتج صفاتاً مناسبة أو محسنة - وأحياناً تكون الطفرة محايدة تماماً ولاينتج عنها تحسناً أو تشوهاً .. فإذا أنتجت الطفرة مسوخاً اضمحل النسل وانقرض، أما إن أنتجت صفاتاً أفضل بقى النسل وازدهر ..
وفى معرض الحديث عن الطفرة يقول مصطفى محمود : "إن البعوضة تضع بيضها فى المستنقع وكل بيضة تأتى إلى الوجود مزودة بكيسين للطفو .. من أين تعلمت البعوضة قوانين أرشميدس لتزود بيضها بهذه الأكياس الطافية؟ وأشجار الصحارى تنتج بذوراً مجنحة تطير مع الرياح أميالاً وتنتثر فى مساحات واسعة بلا حدود .. من أين تعلمت أشجار الصحارى قوانين الحمل الهوائى لتصنع لنفسها هذه البذور المجنحة التى تطير مئات الأميال بحثاً عن أراض ملائمة للإنبات؟ وهذه النباتات المفترسة التى تصطنع لنفسها الفخاخ والشراك الخداعية العجيبة لتصيد الحشرات وتهضمها وتأكلها، بأى عقل استطاعت أن تصطنع تلك الحيل؟ نحن هنا أمام عقل كلى يفكر ويبتكر لمخلوقاته ويبدع لها أسباب الحيل .. لايمكن تصور حدوث الارتقاء بدون هذا العقل المبدع (الذى أعطى كل شىءٍ خلقه ثم هدى) .."
وهنا لابد لنا أن نتوقف قليلاً .. فالرد على هذه النقطة يحتاج منا إلى شىء من التفكير ..
بداية أقول أنك حينما تسألنى "من" فعل ذلك؟ كأن تقول "من" علم البعوضة قوانين أرشميدس للطفو .. فأنت بذلك تكون قد قررت مسبقاً أن الإجابة لابد وأن تكون "فلان الفلانى" .. فسؤالك "من" فعل ذلك يفترض مسبقاً أن فاعل هذا الأمر هو أولاً كائن على شاكلتنا نحن كبشر، وثانياً أنه كائن ذو إمكانيات خارقة، وثالثاً أن له إسم - تماماً كما أن لنا أسماءاً مثل حسن وعلى وابراهيم .. وعبر التاريخ الإنسانى طور الإنسان آلهة يقدر عددهم منذ التاريخ

المكتوب بحوالى ٤٠٠٠ إله - ولكل إله إسم .. إذن فنحن الآن بصدد ٤٠٠٠ إسماً قررت أن تختار أنت من بينهم إسماً واحداً وتنبذ الآخرين ..
وفيما نحن الآن بصدده فإن اسم ذلك الرجل الخارق الخفى الذى اخترته أنت يأأستاذى الكبير هو "الله"، وهذا الإسم كما تعلم هو اسم عربى قديم لكبير الآلهة فى عصر يسبق زمن محمد نبى الإسلام، وأتى محمد وأقر هذا الإسم وحطم الأوثان التى كان العرب يعبدونها لتقربهم من ذلك الكبير "الله" زلفى وقرر أن كبيرهم هذا هو الإله الحق ..
أما أنا فلم أجد دليلاً واحداً يرجح صحة ما قررت أن تؤمن أنت به على أنه تفسير لظواهر الطبيعية .. لذلك فالأسلوب الذى أتبعه أنا فى تفسير هذه الظواهر الطبيعية هو أسلوب العلم والمنطق ..
إن "الله" هو الإجابة السهلة السريعة الرخيصة على كل هذه التساؤلات .. أما الصعب هو أن نشمر عن سواعدنا وندخل المختبر ونحاول فهم السبب العلمى لهذا السلوك الطبيعى ..
ونبدأ بالبعوضة التى تزود بيضها بأكياس الطفو ..
وبتتبع التاريخ الطبيعى ومنشأ الكائنات نجد أن التركيب المعروف باسم الأكياس أو الحويصلات الهوائية هو أقدم التحورات التى طورتها الكائنات المائية لتتمكن من الطفو أو العوم .. فمنذ أن تكونت أول خلية حية فى الماء تكونت أيضاً بداخلها حويصلات هوائية لتمكنها من الطفو .. وذلك عن طريق أن يغلق السيتوبلازم (أو السائل الخلوى) على فراغ هوائى داخل الخلية فيُكون كيساً هوائياً .. ونحن نجد ذلك التركيب فى جذور النباتات المائية الطافية على الماء وأيضاً فى البكتريا والطحالب وجميع الأحياء المائية .. والتى هى أيضاً لاعلم لها بقوانين أرشميدس للطفو .. وفى مقابل كل ألف بيضة توضع فى الماء تنجح بعوضة واحدة فى الحياة .. والباقى يهلك إما جوعاً أو يتم افتراسه حياً من قبل جيش آخر من المفترسات ..
وكذلك البذور المجنحة، فقد طورت النباتات على اختلافها آلاف التحورات لتتمكن من الحياة والبقاء، فمن بذور مجنحة إلى بذور طافية إلى بذور ترقد فى التربة لسنوات إلى أن تحين ظروف إنباتها إلى آخره .. ومن بين آلاف البذور المجنحة والعائمة والطافية ينجح عدد يعد على أصابع اليد الواحدة فى الإنبات، والباقى يذوى ويذبل ويموت لعدم مواتاته الفرصة .. فمن سقط على بعد شبر واحد إلى يمين أو يسار المستنقع ذوى وخبى .. ومن سقط فى منقار العصفور مصيره الهضم فى معدته .. ومن سقط فى فوهة بركان مصيره الحريق والفناء ..
هذا هو صراع البقاء ..

ولربما تقول أنت الآن ماالمشكلة إن قبلنا أن ذلك كله من صنع الإله ونريح أنفسنا من الجدل .. وإجابتى هى أنك إن قلت بأن الله هو العقل الكلى المدبر الذى ابتكر لمخلوقاته أسباب الحيل كأن يلهم النباتات المفترسة أن تصنع الفخاخ لتصيد الحشرات فيجب عليك أيضاً أن توضح حكمته من خلق الحشرات التى ينتهى بها الأمر إلى الوقوع فريسة هذه النباتات المحتالة .. ويجب عليك أيضاً أن تفهمنى حكمته من هذا الصراع الذى يمارسه هو من عليائه كل يوم كمراهق يلعب بجهاز الكمبيوتر فيقتل هذا ويدمر ذاك .. فبنفس المنطق أسألك: أنت تقول أن الله أعطى كل شىءٍ خلقه ثم هدى .. حسناً .. من فى مفهومك أعطى طفيل الأنكلستوما خلقه بأن زوده بأجزاء فم ثاقبة حادة كالمنشار ثم هداه إلى أن ينهش فى أحشائنا وأن يمزق النسيج الحى الذى عكف على صنعه ووهبنا إياه نفس ذلك الخالق؟ ومن طبقاً لمعتقداتك علّم فيروس الإيبولا قوانين مندل للوراثة فإذا به يحقن الخلية بمادته الوراثية ويسخرها لتطبع منه ملايين النسخ وهكذا يتكاثر فى دمنا ويقتلنا بعد أن يكون قد عطل جميع وظائف الكبد والكلى وأصابنا بالحمى وفقدان السوائل والالتهابات والنزيف الداخلى والخارجى ثم الغيبوبة والموت ..؟ هل كانت إحدى هوايات الخالق أن يصمم مخلوقات أخرى تدمر ما خلقه هو نفسه سابقاً ..؟ وهل يجلس هو الآن فى عليائه ناظراً إلى مايفعله ذلك الفيروس المتعلم المتنور ويتلذذ بذلك ..؟ وماهى حكمة الإله الذى أبدع أجنحة البذور التى تحدثنا عنها فى أن يلهم النمل الأبيض أن ينخر فى جذع الشجرة التى أنبتتها نفس تلك البذرة المعجزة فتموت موتاً بطيئاً وتتحول هى نفسها إلى مسكن للحشرات .. وماهى حكمة نفس ذلك الإله الذى تصفه فى نهاية الباب الأول من كتابك بأنه "السميع المجيب المعتنى بمخلوقاته" فى أن يخلق مرضاً كالسرطان أو الطاعون أو السل أو التهاب الدماغ اليابانى لكى يقتلنا على أبشع نحو ممكن؟ هذا الإله المفكر المدبر الذى يلهم مخلوقاته بأذكى الحيل .. كيف يقتلهم هو نفسه على هذا النحو ..؟ وما الذى أدى به إلى أن ينفق من وقته ليبدع مرضاً كمرض الكلب أو الملاريا أو الجذام لالشىء إلا لكى ينظر إلينا من عليائه ونحن نتألم ونموت ..؟
إن أنت أردت أن تفرض على عقلاً مدبراً مفكراً وراء هذا الكون فلابد أيضاً أن تطلعنى على حكمته من خلق كل هذا الصراع ..

إن الحياة مغامرة غاية فى الخطورة .. يهلك فيها من يهلك ويستمر فيها من يستمر .. إلى أن يهلك هو الآخر فى حينه ..

إن كلامك هذا يذكرنى بحلقة أخرى من حلقات برنامجك الشهير .. تلك هى حلقة "تدبير الأرزاق" .. وفى هذه الحلقة تسائلتَ أولاً كيف يدبر الله الأرزاق لمخلوقاته الكثيرة المتعددة .. وكيف يتحقق من أن ينال كل كائن نصيباً من طعام وعناية ومأوى .. وتأتى الإجابة بما معناه: لاتخش شيئاً فالله موجود .. إنه يرزق النملة .. لاتقنط من رحمة الله .. فلطالما هناك إله لهذا الكون فليست هناك أية مشاكل .. فهو العاطى المانح المدبر المطعم الرحيم .. إلى آخره .. ثم إذا بك تعرض علينا كيف أن الله يرزق الأسماك فى الماء .. فهاهى ذى المحارة العظمى تنقبض وتنتج آلاف الأجنة الصغيرة طعاماً للسمك .. وهاهى ذى الكابوريا تضع آلاف البيض فيأكل السمك بيضها .. وهاهى ذى أسماك الرنجة تعمل كمخابز آلية إذ تنتج آلاف البيض طعاماً للأسماك الأخرى ..

ياسبحان الله ..

وطوال الحلقة لم يكن لنا شغلة ولامشغلة سوى التسبيح بقدرة ذلك الكائن العظيم المدبر الذى أنشأ كل هذه المخابز الآلية لإطعام الأسماك ..

ياسبحان الله ..

وتنتهى الحلقة بالطبع بأن يحوقل ويسبح المشاهد .. فهاهو ذا الإله يرزق الجميع .. فهو ينشىء المخابز الآلية فى المحيطات لإطعام السمك .. ولابد أنه أيضاً يطعمنا ويعتنى بنا نحن البشر .. فنحن نصلى ونسجد ونبكى ونتباكى .. فيزيد الله من مخابزه الآلية ويطعم الأفواه .. فم وراء فم .. ومليون وراء مليون .. ومائة مليون وراء مائة مليون .. والأرزاق على الله ..

والسؤال هنا .. إن كان الله قد دبر أرزاق الأسماك وأطعمها بيض الكابوريا .. أين رزق فقس الكابوريا الذى انتهى به الحال فريسة فى فم السمكة بمجرد أن فقس ..؟

هل تقول لى أن الإله المدبر الحكيم العليم الرزاق الرحيم "المعتنى بمخلوقاته" قد خلق ذلك الفقس خصيصاً ليطعم السمكة؟

هل على هذا النحو أراد الخالق أن تكون حياة مخلوقاته من الكابوريا .. فلا تكاد تبدأ إلا لتنتهى مثل هذه النهاية الدرامية؟

إن القضية هنا ياأستاذى الكبير ليست قضية إله رحيم قدير مكير يلهم مخلوقاته بالحيل .. فإن نحن قلنا بذلك صار لزاماً علينا أن نقبل أن هذا الإله لايعنيه عذاب الكائنات الأخرى التى خلقها هو نفسه أيضاً وقدر لها أن تكون هى الضحية وليس المفترس ..

إن القضية هى صراع البقاء ..

إن صراع البقاء هو الذى أدى بالمحارة العظمى أن تنتج آلاف اليرقات التى تقع فريسة لجيش من المفترسات ولايتبقى إلا عدد محدود يعد على أصابع اليد الواحدة يمَكن النوع من البقاء والاستمرار .. وبالمثل فإن صراع البقاء هو ماأدى بالبكتريا لأن تتكاثر وتنتج ملايين الخلايا فإذا ماجف المستنقع أو ارتفعت حرارة التربة أو ذبل النبات هلك الجميع ولم يبق سوى بضعة جراثيم تعود وتنمو ثانية حينما تواتيها الظروف .. وهو أيضاً ماأدى بذكور الحيوانات لأن تتصارع على الأنثى حتى الموت ولايفوز إلا أقوى الذكور، وهكذا تنتخب الطبيعة الأقوى والأصلح على البقاء ..
إنها نفس قصة هابيل وقابيل .. إن كاتب هذه الأسطورة قد لخص هذا الصراع الأزلى الأبدى فى كلمتين ..
إن الصراع هو أصل الطبيعة وقرارها ..
إن بقاء النوع هو إحدى قوى الطبيعة العاتية الجبارة الصماء - وهى قوى لاتعرف للرحمة معناً ولاوجود لرأفة أو شفقة فى قاموسها، وفى سبيلها يهلك الأفراد ويعيش النوع - إلى أن يهلك هو الآخر فى حينه ..

إن التاريخ أنياب وأظافر ياأستاذى الكبير - تماماً كما يقول صديقك العزيز أنيس منصور .. ليس تاريخ الإنسان فقط وإنما تاريخ كل شىء .. إنه تاريخ الكون بأكمله ..

• • • • •

ثم نأتى أخيراً لما يطرحه مصطفى محمود من أن اكتشاف الخريطة الكروموزومية أو خريطة الجينات يشكل تحدياً كبيراً لنظرية التطور - وكيف أن لكل كائن خريطة جينية خاصة به مختلفة عن الأنواع الأخرى ..
وهنا أقول أن مصطفى محمود قد جانبه الصواب تماماً .. فإن اكتشاف التركيبة الجينية وبالتحديد تركيب حمض الـ DNA والذى تم على يد العالمين واطسون وكريك عام ١٩٥٣ قد أثبت صواب نظرية داروين وليس العكس - إذ أن ذلك الاكتشاف قد مكن العلماء من النظر إلى التركيبة الوراثية لكل نوع وليس للشكل الظاهرى فقط .. وكانت النتيجة أن تمكن العلماء من دراسة درجة القرابة بين الكائنات المختلفة وذلك بدراسة مدى تشابه أو اختلاف هذه الخريطة من كائن لآخر .. فمثلاً تختلف التركيبة الجينية قليلاً بين أجناس البشر ولكنه اختلاف ضئيل إذا ماقورن بالاختلاف بين الإنسان والشمبانزى والذى هو أكثر الكائنات قرابة للإنسان - فالأجناس البشرية

تتطابق بنسبة ٩٩,٩٪ مع بعضها فى تسلسل الحمض النووى إلا أن الإنسان والشمبانزى يتطابقان بنسبة ٩٩٪، والإنسان والغوريلا يتطابقان بنسبة ٩٨,٤٪، وهكذا يزداد الاختلاف بين الأنواع كلما تباعدت عن بعضها .. فالاختلاف بين الإنسان والغوريلا يصير ضئيلاً إذا ماقورن بالاختلاف بين هذين النوعين ونوع آخر بعيد من الكائنات مثل الأفيال أو النباتات أو الطحالب مثلاً .. فكل من هؤلاء له خريطة جينية تتشابه مع الأنواع قريبة الصلة وتختلف كلما قلت القرابة بين الأنواع .. والآن يتمكن العلماء من رسم مايعرف بشجرة التطور أو الـ"Phylogenetic tree" اعتماداً ليس فقط على السجل الحفرى والتركيب الظاهرى للكائنات بل وعلى تركيب الشفرة الوراثية نفسها لكل كائن .. والنتيجة مذهلة - فقد أثبتت هذه الدراسات مدى صحة نظرية داروين ولم تهدمها كما يقول مصطفى محمود ..

• • • • •

أما بالنسبة لآيات القرآن ففى اعتقادى أن الآية التى تقول "مالكم لاترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً" إنما تعنى بأطوار الإنسان من طفولة إلى شباب إلى شيخوخة إلخ .. والآية التى تقول "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا" يفسرها ابن كثير أنها تعنى بكينونة الإنسان قبل ولادته وقدومه للحياة - وهو تفسير مقبول فى تقديرى .. أما الآية التى تقول "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" ففى اعتقادى أن الإنسان القديم قد آمن بأن كل شىء مصيره التراب وأنه لابد أتى من تراب - ولذلك فإن دور الأرض والطين والتراب موجود فى كثير من أساطير الخلق وليس أسطورة آدم اليهوديه فقط .. وهى أيضاً ملحوظة صحيحة ولربما كانت أول ملحوظة يدونها الإنسان فى اتجاه نظرية التطور ..

• • • • •

ثم يقول مصطفى محمود: "إن العربة والقطار والترام والديزل كلها تقوم على أسس هندسية وتركيبة متشابهة ولكن هذا لايمنع أن كل صنف منها جاء من أب مستقل ومن فكرة هندسية مستقلة .. كما أننا لايصح أن نقول إن عربة اليد تطورت تلقائياً بحكم القوانين الباطنة فيها إلى عربة حنطور، ثم إلى عربة فورد ثم إلى قطار، ثم إلى ديزل .. فالواقع غير ذلك .. وهو أن كل

طور من هذه الأطوار جاء بطفرة ذهنية فى عقل المخترع، وقفزة إبداع فى عقل المهندس .. وبدأ مستقلاً .."
وهذا للأسف كلام مضلل .. فالسيارة الفورد والقطار والديزل بل والطائرة النفاثة والصاروخ الصاعد إلى القمر كلهم بدؤا حينما دحرج أحدهم جذع شجرة فى الغابة منذ آلاف السنين ولاحظ أن ذلك الجذع يمكن استخدامه لنقل الأحمال الثقيلة من مكان إلى آخر ..
وكان أن نشأت العجلة ..
ومنذ ذلك الزمن البعيد تطورت عربة اليد إلى عربة تجرها الدواب إلى محرك بخارى يدفعها إلى محرك الديزل إلى أن وصلنا الآن إلى أعقد المحركات ..
هذا هو التطور ياأستاذى الكبير ..
إن الإنسان عبر أزمنته الطويلة قد حسن العجلة والعربة تحسيناً بطيئاً - إن كل مسمار أو ذراع خشبى أو مكبس أو صمام طوره الصانع القديم قد ساهم فى بطء فى تطوير كل مالدينا الآن من ابتكارات .. كل مبنى على ماقبله - وفى معرض التطور يستمر التحور النافع ويختفى كل مالايفيد - فإن جاء المسمار أو المقبض الجديد بنفع ما ثبت واستمر وتحسن - أما إذا لم يأت بأى نفع تخلى عنه الإنسان وفكر ثانية فى تحور أو تحسن أفضل لتطوير الماكينة .. وهكذا تطورت الماكينة إلى ماهى عليه الآن ..
إن هذا النمط الفكرى القائم على فكرة المعجزة، أو الطفرة التى لاتفسير لها، أو التغير الإلهى المفاجىء الذى لاتفسير له سوى إرادة السماء هو آفة من آفات تفكيرنا فى مجتمعاتنا الشرقية .. إننا إذا ماتخلينا عن هذا الفكر (المعجزى) و (العاجز) لخطونا أول الخطوات نحو التفكير العلمى السليم .. ولوضعنا قدمنا على أول درجات سلم التطور ..

١٥) كلمة لاإله إلا الله

يتسائل الملحد: "ألست معى فى أنكم تبالغون كثيراً فى استخدام كلمة لاإله إلا الله وكأنها مفتاح لكل باب .. تشيعون بها الميت وتستقبلون الوليد وتطبعونها على الأختام وتعلقونها على الجدران .. من ينطق بها منكم تقولون أن جسمه أعتق من النار .. فإذا نطق بها مائة ألف مرة دخل الجنة وكأنها طلسم سحرى أو تعويذة لطرد الجن أو قمقم لحبس المردة .. هل أنجو من العذاب إذا قلت لاإله إلا الله ..؟"

ويرد مصطفى محمود بأن "كلمة لاإله إلا الله هى منهج عمل وخطة حياة وليست مجرد حروف - فالمؤمن الذى يردد هذه الكلمات بقلبه إنما هو يقول لامعبود إلا الله، لا النافية تنفى الألوهية عن كل شىء .. عن كل ما نعبد من مشتهيات فى الدنيا .. عن المال والجاه والسلطان واللذات وترف العيش والنساء الباهرات .. لكل هذا نقول لا .. لانعبدك .. ثم نقول لا لنفوسنا التى تشتهى تلك الأشياء لأن الإنسان يعبد نفسه فى العادة ويعبد رأيه .. ويجعل من نفسه إلهاً دون أن يدرى .. لهذه النفس نحن نقول لا .. نقول لا للمدير والرئيس والحاكم .. لا لست إلهاً .. ومعنى كلمة إله أى "فاعل" .. والفاعل بحق عندنا هو الله، أما كل هذه الأشياء فوسائط وأسباب، المدير والوزير والرئيس والمال والجاه والسلطان والنفس بذكائها ومواهبها .. لكل هذا نقول لا .. لست إلهاً .. إلا واحد نستثنيه ونثبت له تلك الفاعلية والقدرة هو الله .." حسناً ياأستاذى الكبير..

كلامك جميل .. وهو كلام أيضاً يحسب إليك فلطالما نبذت التواكل والتكاسل وكثيراً ماتحدثت عن أهمية العمل البناء بدلاً من التشدق بالكلام، وحولت كلامك هذا إلى عمل بالفعل فى بنائك لمسجد ومستشفى ومرصد ومركز علوم .. كل ذلك جميل ..

بل وقد جلبت على نفسك المتاعب حينما تصديت لقضية الشفاعة وقلت أنه لاشفاعة بدون عمل وجهد، وبالطبع قامت عليك قيامة المسلمين أجمعين .. فكيف تنكر عليهم ماينتظرونه من نبيهم المختار الذى يعدهم بالجنات والرمان وأنهار اللبن والحوريات الأبكار ..

إلا أننى لاأعتقد أن نبى الإسلام كان يقصد كل ذلك الذى قلته حينما أرسى قاعدة "لاإله إلا الله"..

إن نبى الإسلام قد أرسى هذه القاعدة بعد أن حطم أصنام مكة من آلهة العربان على اختلافها كهبل واللات والعزى وأساف ونائلة وود وسواع ويغوث ونسر وغيرهم وأبقى على كبيرهم (الله) ثم أرسى نفسه كرسول هذا الإله للبشر

أجمعين .. وبذلك وحد القبائل المتنافرة تحت رايته ونصب نفسه حاكماً مطلقاً على العرب .. فقط هكذا ..
وليس هناك الكثير مما يمكنى أن أقوله فى هذا الصدد سوى أننا كشرقيين لابد أن ننزع هذه القداسة التى تحيط بتلك الأمور التاريخية وأن ننظر إلى التاريخ نظرة علمية منهجية منطقية محللة .. فمحمد أولاً وأخيراً بشر مثلى ومثلك - كانت له قوة ومنعة وأسس جيشاً قوياً مكنه من الانتصار على أعدائه وتقلُّد منصب حاكم العرب .. أما أن نتمادى فى تقديس هذا الرجل أو غيره من صحابة إلى أولياء إلى أقطاب إلى زعماء وننسب إليهم ماينافى العقل والمنطق فهو مالاأحبذه ..
ويحضرنى الآن كلام المفكر حامد عبد الصمد ومايعرضه بخصوص قصة حياة محمد وتحدثه بالقرآن، وسواءً اتفقت أو اختلفت معه فى قراءته لتاريخ الإسلام فأنا أحييه على شىء واحد ومهم للغاية، ذلك أنه ينظر إلى مانسميه بالسيرة النبوية من منظور علمى منطقى تحليلى بحت - وهو يتعامل مع كل تلك الأمور المقدسة من منطلق تجريدى غير منحاز .. وينظر إلى محمد من منطلق بشرى إنسانى بحت - وعلى هذا النحو تجب دراسة الأمور ..
وقبل أن أنهى حديثى فى هذا الباب أود لو علقت سريعاً على مايقوله مصطفى محمود من أن كلمة (الله) أى فاعل .. هو الفاعل بحق .. وهذا ادعاء غريب فى الحقيقة إذ أن معناه أن كل مانراه حولنا هو من صنع هذا الإله وبفعله .. كيف ذلك ..؟
وماذا عن الظلم والقهر والقتل والشر فى الكون ..!
وماذا عن تخلف المسلمين وتقدم غيرهم من الكافرين؟
وماذا عن الأمراض والمجاعات ونهب الثروات ونهب الشعوب وذبح المعارضين؟
وماذا عن تفوق بنى إسرائيل وانحدار العرب؟
أكل مانراه حولنا وكل أفعالنا ونجاحاتنا وإخفاقاتنا وأحزاننا ومصائبنا وآلامنا هى من صنع هذا الإله ..؟
وإن جائت الإجابة بنعم .. إذن فما الحكمة ..؟
ماالحكمة من كل هذا الذى نراه حولنا؟
هل تقول لى أن مانراه حولنا هو ماأراد له الله أن يكون؟
وإن جائت الإجابة بنعم فماهى المشكلة إذن؟
إن كان هذا ماأراده الله فلماذا هناك جنة ونار؟ وثواب وعقاب؟ ونعيم وعذاب؟
أليس كل مانراه حولنا هو مايريده الإله وبفعله طبقاً لكلامك ..؟
سؤال يهمنى أن أجد الإجابة عليه ..

١٦) كهيعص

السؤال هذه المرة عن الحروف المتقطعة فى أوائل السور مثل حم، طسم، الم، كهيعص، وغيرها .. وهى فى رأى الصديق الملحد أى كلام يضحك به النبى على تابعيه ..
ويرد مصطفى محمود قائلاً : "حسناً دعنا نختبر هذا الكلام الذى تدعى أنه كلام فارغ والذى تصورت أن النبى يضحك به علينا .. ودعنا نأخذ سورة صغيرة بسيطة من هذه السور .. سورة ق مثلاً .. ونجرى تجربة .. فنعد مافيها من قافات وسنجد أن فيها ٥٧ قافاً .. ثم نأخذ السورة التالية وهى سورة الشورى وهى ضعفها فى الطول وفى فواتحها حرف ق أيضاً .. وسنجد أن فيها هى الأخرى ٥٧ قافاً .. هل هى صدفة .. لنجمع ٥٧ + ٥٧ = ١١٤ عدد سور القرآن .."
ويستطرد مصطفى محمود بعد ذلك ويوضح كيف أن الألف تتفوق عددياً على اللام واللام تتفوق على الميم فى السور التى تبدأ بـ "الم" .. وكيف أن الآية تنعكس فى حالة "يس" حيث أن ترتيب الحروف انعكس فالياء أتت قبل السين بعكس الترتيب الأبجدى .. إلخ .. ويستشهد مصطفى محمود بكتاب الدكتور رشاد خليفة "Miracle of the Quran" الصادر فى الولايات المتحدة عام ١٩٧٣، وهو الكتاب الذى عرض فيه خليفة تحليلاً إحصائياً لآيات القرآن وأظهر فيه كيف أن للقرآن منهجاً عددياً معجزاً ..

ومعلوم أن ماكتبه السيد رشاد خليفة قد أثار اهتماماً واسعاً فى العالم الإسلامى وقتئذ .. إلا أن هذا الاهتمام قد خبا تدريجياً خاصة بعد أن جن الرجل فى عقله وادعى النبوة بل وادعى أن القرآن قد ذكر اسمه ونبوته واستخدم نفس طريقته الإحصائية ليثبت صحة كلامه - وقد ادعى خليفة أن نهاية العالم ستكون فى عام ١٧١٠هـ (أى ٢٢٨٠ ميلادية) طبقاً للقرآن - بل وادعى أيضاً أن الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة هما آيتان مدسوستان فى القرآن، وأنه بحذفهما تستقيم حسابات القرآن طبقاً لمنهجه الإحصائى للأعداد .. فكان أن تخلى الكثير من الأئمة المسلمين عن تأييد كلام السيد رشاد خليفة بل وأفتوا بعدم الخوض فى هذه الادعاءات ..
وربما كنت أنا فى الثالثة أو الرابعة عشر من عمرى عندما قرأت هذا الكلام عن الإعجاز العددى فى القرآن ولاشك بهرت به، وكان بالنسبة لى كشاب صغير فى ذلك الوقت هو الدليل القاطع على إعجاز القرآن وأنه لايمكن أن يكون من فعل بشر.. وأذكر أيضاً أن الكاتبة عائشة عبد الرحمن كانت قد هاجمت مصطفى محمود بشدة لعرضه لهذا الكلام - وأذكر على وجه التحديد ماقالته فى هذا الصدد إذ قالت بالحرف الواحد "إطرح إجمع إضرب يطلع

الرقم ١٩" وبالطبع تعجبت آنذاك من موقفها وكيف أنها لاترى مثل هذا الإعجاز الذى يثبت بما لايدع مجالاً للشك أن القرآن وحى إلهى وليس كلام البشر .. واحتاج الأمر منى إلى سنوات طوال كى أقف على حقيقة هذه الادعاءات .. والآن أرى أن تلك الكاتبة كانت على حق حينما قالت ذلك - ولكن كشاب صغير فى ذلك الوقت لم يكن بإمكانى أن أرى الخلط فى كلام مصطفى محمود (نقلاً عن رشاد خليفة) فالشاب الصغير ليس لديه الإمكانية أو الخبرة للتحقق من كل ادعاء ومن كل كبيرة وصغيرة فى كل أمر من الأمور - فكما قلت سابقاً أن ادعاءاً واحداً من ادعاءات مصطفى محمود فى كتابه ذلك قد تحتاج العمر منا فى دراستها واختبار مصداقيتها .. ولذلك دخل مصطفى محمود قلب الشاب الصغير الحائر، المتعطش للإجابات السهلة السريعة التى تحل له مشاكله مع الكون والحياة والأديان .. وتعقد الصلح مع الله والإنسان - وتضمن له حياة أبدية فى جنات الخلد مع حور العين .. إلا أن الأمر وللأسف ليس كذلك .. واعذرنى أيها الشاب حينما أصدمك وأواجهك بحقيقة مزعجة لطالما تمنيت ألا تسمعها أبداً - ذلك أن أوهام حور العين وأنهار العسل والخمر واللبن هى كلها خيالات وأحلام جميلة لاوجود لها سوى فى مخيلتك ومخيلة رجال العرب المنكاحين الأشداء، ولذلك نصيحتى لك هى أن تزن كل ماتسمعه بميزان العلم والمنطق قبل أن تنساق وراء كل إغراء بمثل هذه الأوهام - وألا تجبن عن اقتحام أية قضية فكرية خوفاً من العذاب والحريق، ونفس الكلام أوجهه للفتاة الشابة، وهى التى لم تنل حظاً كبيراً من الاهتمام فى الأديان على اختلافها وكان مصيرها دائماً الحجب والاقصاء والضرب على عكس الرجل الذى يعده الله بعذارى وحوريات وخمر لاتصيبه بصداع إلى آخر ذلك من سخافات .. ودعنى أكرر لك أيها الشاب كلمة مصطفى محمود نفسه قبل أن يحدث له هذا التحول الغريب حين يقول: "إن الرب الذى لايحترم عقلاً صنعه بيديه يعطينا العذر فى ألا نعبده" .. هذا هو كلام مصطفى محمود فى كتابه (الله والإنسان) - وهو كلام أنحنى له احتراماً وتقديراً - فهو كلام فى محله ..

أما ادعاءات السيد رشاد خليفة بخصوص الإعجاز العددى فى القرآن فهو كلام مردود عليه، ولى أن أقول أنه كما أن هناك من ينفخ فى هذه الأبواق فى العالم الإسلامى فإن هناك من ينسب نفس الشىء للإنجيل والعهد القديم .. وهى ادعاءات قديمة تثار من حين لآخر إلا أن آخرها كان حينما نشر الكاتب الأمريكى "مايكل دروزنين" كتابه "شفرة الإنجيل - The Bible Code" وأوضح فيه أن للإنجيل شفرة رقمية أو تسلسل متساو البعد (Equidistant letter sequence) وبفك هذه الشفرة يمكن التنبؤ بجميع أحداث البشرية مستقبلاً - وأوضح الكاتب كيف أن العديد من الأحداث

التاريخية والمعاصرة إنما هى مشفرة فى الإنجيل والتوراة .. وقد نشر دروزنين كتاباً آخراً كتكملة لكتابه الأول عام ٢٠٠٢ تحت عنوان (The Bible Code II) - وفيه عرض كيف أن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى أمريكا لهى مذكورة فى الكتاب المقدس وفك هو الشفرة القائلة بذلك .. وتعجب كيف لم يظهر لنا دروزنين ذلك فى كتابه الأول الذى كان قد نشره فى عام ١٩٩٧ وكان عليه أن ينتظر حتى يحدث ذلك الحدث الجلل أولاً قبل أن يفك هو هذه الشفرة .. وقد تندر الإعلامى "جون سافران" على ادعاءات دروزنين إذ ذهب بهذا الكتاب لعالم الرياضيات "برندن ماكى" وهو الرجل الذى تحدى دروزنين وقال أنه باستخدام البرنامج الحسابى الذى استخدمه دروزنين يمكنك أن تستخرج أى شىء من أى نص .. وكانت المفارقة الكوميدية هنا هى أن "سافران" عرض نص أغنية (Ice Ice Baby) للمطرب الأمريكى "فانيلا أيس" على العالم "ماكى"، وتم إدخال النص إلى الكمبيوتر وتحليله بنفس الطريقة التى حلل بها دروزنين الكتاب المقدس، وكانت النتيجة مذهلة - إذ عرض ماكى على سافران كيف أن نص الأغنية قد تنبأ بكارثة ١١ سبتمبر فى نيويورك بل إن النص يذكر تاريخ الواقعة تحديداً (١١/٩) ويذكر كلمتى Twin Tower بل واسم أسامة بن لادن .. ولم يتوقف سافران عند ذلك بل طلب من ماكى أن يدخل نص التقرير الذى أصدرته الحكومة الأمريكية بخصوص أحداث سبتمبر لعله يجد فيه مايفيد أن التقرير يحوى بداخله شفرة تتنبأ بسقوط نجومية المطرب فانيلا أيس بعد أغنيته الشهيرة، وأدخل ماكى نص التقرير إلى الكمبيوتر واستخدم نفس برنامج دروزنين الحسابى ليظهر لنا كيف أن التقرير الأمريكى قد تنبأ ليس فقط بانحدار نجومية فانيلا أيس بل يذكر أيضاً اسم أغنيته الشهيرة الوحيدة ويذكر اسمه الحقيقى "روبرت فان وينكل" وكيف أن كل هذه التنبؤات تظهر فى صفحة واحدة من التقرير على شكل "نجم" ..

والخلاصة هنا هى أن اللعب بالأرقام يمكن أن ينتج أى شىء ..

ولى أن أقول أننا حتى إذا ماافترضنا صحة هذه الأرقام التى يخرج علينا بها السيد رشاد خليفة وآخرين فإن اللعب بالأرقام أمر معروف فى علوم الرياضيات وعلم الأعداد (Numerology) وخلافه .. وقد اقترن علم الأعداد تحديداً بالسحر لدى القدماء - وكانت تلك العلوم هى سر سيطرة الكهان والسحرة على عقول البسطاء من البشر، وكيف أن الكاهن أو المشعوذ أو الساحر يمكنه إبهار وإخضاع العقول له بمثل هذه التفاضلات الرياضية، فهو يقرأ لك فى الحصى أو كبشة العصى كل تاريخك ومستقبلك بينما تجلس أنت فى انبهار كيف عرف هو ذلك - ولكنها بالطبع أصول الصنعة وذكاء المشعوذ

الذى يخلط كلاماً على كلام فتجد أنت فيه ماتريد أو تتوقع سماعه .. ومن هنا نشأت خرافات التنجيم وبرج الحظ وقراءة أوراق الطاروت وفتح الكوتشينة ورؤية المستقبل فى مواقع الكواكب والنجوم - وضرب الودع .. وكل حضارة عرفت وسيلة ما للعب بالأرقام بدئاً من الحضارة الفرعونية ومروراً بالإغريق والفرس وحضارات الهند والصين والعرب بالطبع وهم الذين برعوا فى علوم الرياضيات والجبر والفلك وكان من الطبيعى أن تنتج هذه العلوم الجادة علوماً أخرى تلعب بعقول البسطاء - وما أن بحثنا فى الأرقام وتكويناتها وتركيباتها لما انتهينا - وأناشد القارىء اللعب بالأرقام ٥ و ٧ و ٨ و ٩ على أى برنامج إحصائى ليرى الأعاجيب، وهى أمور يعرفها أى عالم رياضى بالطبع ولكن للأسف نقع جميعاً فريسة لمثل هذه الألاعيب التى نالت فى عصرنا ذلك بعضاً من علماء الرياضيات أنفسهم فى بلادنا السعيدة ..

وقد برع كهنة العرب فى علوم حساب الأعداد ودلالات الأرقام، وهو العلم المعروف بحساب الجمل والذى يقوم على الترتيب الأبجدى للحروف (أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ) وهو مااستعمله العرب فى الجداول الفلكية وحسابات الأوزان والتأريخ وكتابة الشفرات - واستخدمه آخرون للعب بعقول البسطاء وإيهامهم بأعمال السحر - فكان للمنجم أن يفرد قطعة القماش (أو مايسمى بالحجاب فهو محجوب عن العامة) وقد صُفت فيها الجداول وامتلأت بالأبجديات والحروف المنقلبة والألغاز ليوهم زائره بأنه يحسب له فى حساب الطلاسم كيف ومتى له أن يتزوج وممن يحب ومن عليه أن يتجنب وهل سيوفق فى خطبة إبنة عمه أم أن أبيها سيزوجها لثرى القبيلة الأخرى وهكذا .. والعجيب أن تنال مثل هذه الخزعبلات والألاعيب الرقمية فيما نالت أستاذنا الكبير نفسه، فنجده يحدثنا فى ذكرياته عن المنجم الذى قام بحساب بعض الأرقام وأخبره بتاريخه وماضيه وحاضره بل ومستقبله بالكامل .. هكذا قال مصطفى محمود .. وهو الذى قضى عمره فى محاولة الاتصال بما كان غيباً وبما وراء الطبيعة ومابعد الموت - وعوالم الأشباح والجن .. ويحضرنى أيضاً ماقالته زوجته الثانية السيدة زينب حمدى من أنه قد زار أحد الشيوخ (المقربين له) على حد قولها وبالفعل انشق الحائط وخرج منه كائن قصير وأخذ فى محادثة مصطفى محمود - هذا ماوصلنا وهو كلام مكتوب ومنشور يمكن للقارىء الرجوع إليه .. ويالألف خسارة على عقول البشر ..

أما اعتقادى أنا بخصوص هذه الأرقام وحساباتها فى القرآن ففى رأيى أن محمد كان على دراية بعلم دلالات الأرقام أو أصول علم القبالة اليهودى،

وهو مايقابل علم حساب الجمل فى اللغة العربية - وهو علم حسابى معروف استخدم فى جميع اللغات السامية - فلقد طور اليهود أيضاً شفرتهم الخاصة فى كتاباتهم وذلك بتحويل الحروف إلى أرقام ليمَكنهم ذلك من إخفاء رسائل سرية فى بطون الكلام فى الكتاب المقدس، وهو نفس مابرع فيه كهنة العرب فى علوم حساب الجمل - حيث يتم إعطاء كل حرف من حروف الهجاء قيمة معينة متفق عليها وبذلك استطاع الكهنة ومن داهنهم وداهنوه من الزعماء من التفاهم بالشفرة وإيهام البسطاء بأنهم على علم بأمور غيبية لاقبل للعامة بالإحاطة بها - ولربما استخدم محمد هذا العلم فى كتابته لبعض كلام القرآن .. هذا بالطبع إن صحت هذه الأرقام التى تحدث بها خليفة وغيره .. وأناشد القارىء الرجوع إلى جدول حساب الجمل - وهو علم جاد طوره العرب لأغراض شتى إلا أن البعض أيضاً طوعه لتخويف البسطاء ودفعهم إلى الاعتقاد فيما وراء الطبيعة وألوهية أو نبوة البشر - ومن هنا نشأ السحر والخوف - والرجم بالغيب، واللعب بالأرقام - من تسعة عشر إلى سبع من المثانى إلى العرش الذى يحمله ثمانية والسبع سماوات والسبع أرضين إلى آخره - وكلها أمور توهم البسطاء أن هناك شيء أكبر من تفكيرهم لايمكنهم فك شفراته - ولابد لهم إذن أن يلجئوا إلى أولئك السحرة والعارفين وأولى العلم اللدنى لإخراجهم من حيرتهم ومساعدتهم على فك شفرات حياتهم .. والنتيجة مزيد من تحكم الكهنة ومن حالفهم من الحكام والملوك .. بل أن هناك قصة تقول أن يهود المدينة قد ذهبوا إلى محمد متسائلين أن كيف لهم أن يؤمنوا بدين سيعيش ٧١ سنة فقط، وكان ذلك لأنهم طبقوا علومهم العددية فى فك شفرة (الم) فى أول سورة البقرة من أن ا=١ و ل=٣٠ و م =٤٠ والمجموع ٧١ - وجاء الرد أنْ نبههم محمد إلى الكثير من الحروف المتقطعة الأخرى مثل طه ويس وكهيعص وخلافه .. واحسبوا بقى ..

وقد عمدت إلى التحقق بنفسى من بعض هذه الحسابات وانتهى الأمر بى إلى قضاء وقت طويل وممل فى عد القافات والياءات وخلافه - وسخرت من نفسى إذ لم أصل إلى شيء واضح - ورأيت أنها عملية مضيعة للوقت وضحك على الذقون - وتسائلت مع نفسى عن جدوى ذلك - فمثلاً إن كان عدد القافات فى صورة ق هو ٥٧ كما يقول مصطفى محمود وهو مايقبل القسمة على ١٩ (وبالمناسبة هذا خطأ فعدد القافات ٥٦) - ولكن حتى إذا ماافترضنا صحة هذا الحسابات - ماذا فى ذلك ..؟ وماقيمة ذلك أو دوره فى تقدم المسلمين وتحسين أحوالهم ..؟ بل ولى هنا أن أقول أن جميع هذه الحسابات تسقط إن أنت أجريتها على النسخ الأولى من القرآن والتى كتبت بخطوط قديمة مثل الخط الحجازى أو الخط الكوفى البسيط مثلاً لاختلاف هذه الخطوط عن الخط

الحالى وافتقارها لأحرف كثيرة مثل الألف الممتدة وللتنقيط على سبيل المثال ..
أما ماأضحكنى كثيراً فى هذا الصدد فهو ما ورد على لسان أحد أئمة المسلمين بخصوص هذه الألاعيب الرقمية (وهو الذى حذر من الخوض فى هذه الأمور) من أن تلك الأمور هى كلها من (طرائف القرآن) ..
ويبدو لى بناءً على إجابته تلك أن إله الإسلام - كما أنه "لطيف" - فلابد أنه أيضاً "طريف" ..
ويالألف خسارة على عقول البشر ..

١٧) المعجزة

يتسائل الصديق الملحد هذه المرة عن المعجزة - ويبدأ أولاً بقوله: "كيف يمكن للرب أن يأمر إبراهيم بذبح ولده ..؟"
وتأتى الإجابة بأن الذبح لم يكن هو مراد الإله بدليل أنه لم يحدث وإنما المراد هو أن يذبح إبراهيم شغفه الزائد بإبنه - إذ لايجوز أن يكون فى قلب النبى تعلق بغير الإله - فجاء امتحان الإله لنبيه ضرورياً ..
حسناً ياأستاذى العزيز ..
وقبل أن أبدأ فى تحليل هذه القضية من منظور سليم يجب علينا أولاً أن نسمى الأشياء بمسمياتها الصحيحة .. وفى حالتنا هذه فإن قصة فداء الإله لإسماعيل بذبح عظيم (وبالمناسبة هو إسحق فى العهد القديم) لابد من أن نسميها بالأسطورة أو بالـ"فولكلور" ..
لماذا .. (؟)
لأن الخرفان لاتطير .. ولا تهبط من السماء ..
إن أردت أن تؤمن بأن هناك خرافاً تهبط من السماء فهذا من حقك ولكن لاتفرض ذلك على باقى البشر - خاصة على هؤلاء الذين يبغون اتباع المنهج العلمى المنطقى فى تحليل الأمور ..
أما بالنسبة لقصة الذبح هذه فهى أسطورة يهودية وجدت طريقها إلى الكتب المقدسة - فصارت مقدسة بالتبعية - وهى مستوحاة من الشعائر التى كانت معتادة فى هذه الأزمان من تقديم القرابين للآلهة - وكان المعتاد هو تقديم الحيوانات إلا أن التضحية بالبشر أو الـ"Human sacrifice" كانت أيضاً أمراً معروفاً فى هذه الأيام .. وهو بالطبع أمر جلل كانت له طقوس وعادات خاصة وبالطبع لم يكن كثير الحدوث على عكس التضحية بالحيوانات ..
أما ذلك الذبح العظيم فتحكى كتب التراث أنه "كبش أبيض أعين أقرن رآه إبراهيم مربوطاً بشجرة فى ثيبر (جبل بمكة) وهو كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً وكان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثيبر" ..
هل لنا إذن أن نؤمن أن ذلك الكبش قد عاد بعد ذبحه إلى الجنة ليرتع ثانية إلى أن يحين موعد ذبحه فى العيد القادم ..؟
أى حياة تلك التى ابتلى بها الله ذلك التيس التعس ..؟

وأنا فى الحقيقة لست على يقين من الهدف الحقيقى لهذه الأسطورة - وربما كان مايقوله مصطفى محمود صحيح - ذلك أن يضع النبى حب إلهه فوق أى

حب وأى شعور حتى وإن وصل به الأمر إلى ذبح ابنه - وهو بالطبع أمر فظيع .. وقد يكون المراد أيضاً من هذه الأسطورة هو ترسيخ قاعدة احترام الأب والائتمار بأمره - أياً كان مايطلبه هذا الأب - وهو أيضاً شىء فظيع أن يصل الأمر بكاتب الأسطورة إلى أن يختار مثلاً مروعاً كهذا لكى يوحى للغوغاء بما أراد (حتى بالرغم من نبل الهدف وهو احترام الأب) - وهو لاشك أمر تقشعر له الأبدان إن فكرت فيه ملياً وبعيداً عن أى تحيز لفكر أو دين معين - ولكننا الآن نقرأ قضية الذبح هذه فلا تثير فى أنفسنا أى شىء بل وأكاد أقول أن أحاسيسنا قد تبلدت تماماً من فرط ما عرضت علينا هذه القصة - بل وصار أمراً عادياً أن يحذر الأب ابنه قائلاً "اسمع كلامى فقد سمع اسماعيل كلام أبيه حينما أراد أن يذبحه" .. وهذا هو مايفعله الدين فينا - إسمع كلام هؤلاء المقدسين الصالحين وإلا فالذبح - والنتيجة هو مانراه الآن من تذبيح البشر ..

● ● ● ● ●

ويستمر الصديق الملحد فى تساؤلاته - والسؤال هنا عن معجزات مثل أن يدخل إبراهيم النار فلا يحترق والعصا التى تتحول إلى ثعبان وشق البحر وخلافه ..

ويرد مصطفى محمود قائلاً:

"لقد فهمت المعجزة خطأ وتصورتها خطأ .. المعجزة فى تصورك عمل بهلوانى وخرق للقانون ولكن الحقيقة غير ذلك .. ودعنى أقرب الموضوع إلى ذهنك .. لو قدر لك أن تعود ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء ثم تدخل على فرعون مصر ومعك ترانزستور فى حجم علبة الثقاب يتكلم ويغنى من تلقاء نفسه .. ترى ماذا سيكون حال فرعون وحاشيته ..؟ سيهتفون فى ذهول بلا شك .. معجزة .. سحر .. خرق لجميع القوانين .. ولكننا نعلم الآن أنه لاإعجاز فى الموضوع ولاسحر ولا خرق لأى قانون .. بل إن ما يحدث داخل الترانزستور هو أمر يجرى حسب قوانين فى علم الإلكترونيات وإنه معقول تماماً .. وسيكون الأمر أعجب لو أنك دخلت على ملك بابل وفى يدك تليفزيون ينقل الصور من بلاد الروم .. وسوف يصفق ملك أشور عجباً لو أنك أدرت له أسطوانة بلاستيك فتكلمت .. وكذلك دهشتك أمام شق موسى للبحر وإخراجه للثعبان من العصا وإحياء عيسى للموتى ودخول إبراهيم للنار بدون أن يحترق .. تصورت أنها لامعقول وخرق للقوانين وبهلوانيات .. بينما هى

تجرى جميعها على وفاق قوانين إلهية تتفاضل مع القوانين التى نعرفها .. وهى إذن صنوف من النظام .. ومن المعقول .. ولكن أعلى من مداركنا .."

Hmmm ..

ولقد ناقشنا هذه القضية فى باب سابق - وقلنا أن المنطق الذى يتبعه مصطفى محمود هنا يمَكننا من فرض أى شىء سواءً اتفق أو تنافى مع المنطق والإيمان به .. فإن نحن قلنا بأن كل ماهو معجز لنا الآن سوف يحدث فى المستقبل صار بإمكاننا تصور حدوث أى شىء .. ولابأس أن نفترض مايحلو لنا من تخاريف وكلما تسائل أحدهم كيف ذلك عدنا به إلى منهجك وتفسيرك .. وللأسف يادكتور مصطفى محمود فإن الترانزيستور الذى تتحدث عنه والإسطوانة البلاستيك التى تتكلم والتليفزيون الذى ينقل لك الصور من بلاد الروم هم نتاج عمل دؤوب ومنهج تحليلى علمى تجريبى تدريجى يؤدى إلى تطور الأدوات من حجر صوان إلى مطرقة حديدية إلى مكبس هيدروليكى إلى زر إلكترونى تضغط عليه فتشق الجبال وتصنع الطرق والأنفاق وتحادث صديقاً لك على الطرف الآخر من الكرة الأرضية .. كل ذلك لم يحدث عبثاً أو بطرقعة أصبع ولا بين يوم وليلة .. وإنما هو نتاج عمل شاق وجاد ومحاولات وتعب وإخفاقات وتعديلات وتجارب إلى أن نصل لما فهمه أبناء الأمس على أنه معجزة ..

إن القضية ياسيدى الفاضل، حينما نناقش المعجزة، تكمن فى نقطة واحدة وهامة للغاية - تلك هى صناعة البطل .. وليسمح لى القارىء أن أتوقف هنا قليلاً وأعرض قصة من الأدب العربى أذكر أننى قد درستها فى الصف الثالث الإعدادى ..

تقول القصة "تكاذب أعرابيان فقال أحدهما خرجت مرة على فرس لى فإذا أنا بظلمة شديدة فيممتها حتى وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه فما زلت أحمل بفرسى عليها حتى أنبهتها فانجابت .. فقال الآخر لقد رميت ظبياً مرة بسهم فعدل الظبى يمنة فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبى فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبى فعلا السهم خلفه، فانحدر، فانحدر عليه حتى أخذه" ..

وأذكر جيداً أن جاء فى تحليل النص مامفاده أن الإعرابى الأول قد تفوق على الثانى إذ مكّنه خياله من تصور ما لايمكن حدوثه، بينما السهم الموجه الذى تصوره الإعرابى الثانى قد صار الآن واقعاً مثلما هو الحال فى الصواريخ الموجهة على سبيل المثال ..

وأعجبنى التحليل ..
ولقد رأيت أن أعرض هذه القصة أولاً لأتمكن من شرح النقطة التى أبغى طرحها هنا .. وهى كما قلنا صناعة البطل .. فكما تصنع هوليود البطل الذى يهلك أمة بأكملها وينقذ الضعفاء، وكما يطير سوبر مان ويعكس اتجاه الكرة الأرضية فيعود بالزمن إلى الوراء ليمنع أمراً ما من الحدوث - أو كما يقضى رامبو على الإتحاد السوفيتى - أو كما يقفز الرجل الخارق أو المرأة الخارقة من فوق ناطحة السحاب .. أيضاً دخل إبراهيم النار ولم يحترق .. بل تمادى إبراهيم من السخرية والاستخفاف من الذى ألقى به فى النار وطلب رداءاً ليتدفىء به من البرد حتى لايصيبه الزكام .. إذ أن النار كانت "برداً" وسلاماً عليه ..
هذه هى صناعة البطل ..
إن الإنسان بطبعه يميل إلى أن يصنع بطلاً فى مخيلته .. فهو يرى نفسه فى هذا البطل .. وأيضاً يعطيه ذلك البطل أملاً فى الحياة .. وأن أحواله لابد وستتحسن يوماً .. وأن عنائه لن يذهب سدى ..
وهذا البطل أو المخلص أو المنقذ لابد له أن يكون خارقاً للطبيعة - وأن يأت بأفعال يستحيل على البشر العاديين فعلها .. وأفضل الأبطال هو الذى يأتى بما يستحيل فعله مهما طال الزمن ..
وتحضرنى الآن إحدى حلقات الأكشن الأمريكية والتى كان البطل الأمريكى فيها يصارع كائنات شريرة تبغى دمار الأرض - بينما يبغى بطلنا إنقاذ الأرض بالطبع والمساكين من البشر المتعلقين به .. وأثناء الحلقة نفهم أن هناك حفرة من النار إن وقع أحدهم فيها فهو هالك لامحالة - إذ لاسبيل للخروج منها أبداً .. ويبدأ الصراع بين بطل الرواية وشرير الرواية .. ولابد بالطبع أن يدور الصراع بجوار تلك الحفرة .. ويحمل شرير الرواية القبيح على البطل الأمريكى فيزعزع سيطرته وينجح فى دفعه الى تلك الحفرة التى لاقرار لها .. ويهوى البطل وتبتلعه الحفرة .. وبالطبع يصل الجميع هنا إلى نتيجة واحدة تلك هى أن الشر قد انتصر على الخير .. فماذا نحن فاعلون الآن ..! وتمر لحظات يقف فيها شرير الرواية موقف المنتصر - وينظر الى مساكين البشر الذين سوف يمزقهم الآن هو تمزيقاً .. لالشىء إلا لأنه شرير الرواية - وعلى هذا النحو يتصرف الأشرار ..
إلا أن المعجزة تحدث ويخرج البطل الأمريكى من حفرة النار ثانية - ويعاود الهجوم على شرير الرواية .. ويصرعه ..
هذا البطل الأمريكى هو إبراهيم الذى ألقى فى النار ولم يحترق .. وهو المسيح الذى صلب ولم يمت .. وهو محمد الذى ركب البراق واخترق سبع

سماوات .. وهو يعقوب الذى صارع الإله وصرعه .. وهو سليمان الذى سخر الجن والريح .. وهو موسى الذى شق البحر .. وهو يونس الذى ابتلعه الحوت ولفظه حياً .. وهو الشاطر حسن الذى قهر الغول وفاز بست الحسن والجمال ..
هذه هى الأسطورة ياأستاذى الكبير ..
وهذه هى صناعة البطل .. والمسيح .. والمخلص ..

• • • • •

إنك بكلامك هذا عن المعجزة ياأستاذى الكبير تعطينى الحق فى أن أفرض عليك أى تخاريف ..
إنك بعد كلامك هذا لاينبغى عليك أن تندهش إذا ماادعى المسيحى أن المسيح سيأتى فى نهاية الزمان بعد خراب العالم فى موقعة أرماجدون ويحكم العالم طبقاً لتعاليم المسيحية .. وأن يدعى المسلم أن المسيح سيأتى ليكسر الصليب ويقتل الدجال ويحكم العالم بالإسلام، وأن يؤمن الإغريق بآلهة تلعب الشطرنج بمقادير البشر .. وأن يوَسم الكاثوليك قديسيهم بعد أن يكونوا قد أجرَوا معجزتين اثنتين مثل القديسة مارى مكيللوب .. والنتيجة هى انتظار المعجزة .. وانتظار المخلص .. وانتظار الفرج ..

وتحضرنى الآن قصة عبقرية من تأليف الدكتور مصطفى محمود نفسه - وهى قصة الشاب أحمد الذى ذهب إلى السيرك - وشاهد الساحر يضع طفلة فى صندوق ثم يشطر الصندوق نصفين والطفلة بداخله .. كيف ذلك ..؟ ويعود فيضع الشطرين معاً وتخرج الفتاة سليمة .. وبالطبع ينبهر أحمد وينبهر الجمهور - سحر! خرق لقوانين الطبيعة! خرق للنظام! قوة عليا ..! إلا أن أحد الحضور يصيح قائلاً: إنها فتاة صغيرة يمكنها أن تختبىء فى الصندوق وتنزو فى ركن صغير فلا تمس بسوء .. فيهدأ الجمع قليلاً إذ يبدو لهم أن ماقاله ذلك الذكى صحيحاً .. إلا أن الساحر لايلبث أن يأتى بشىء أكثر عجباً - فهاهو قد صف سطراً من المكعبات المرقمة ثم هو يختار رقمين ويأت بجرو أو دب صغير ويقول له اجمع هذين الرقمين فيأتى الجرو ويمر على الأرقام وإذا به يتوقف عند الرقم الصحيح .. ويتصايح النظارة .. مدهش ..! غير معقول ..! سحر..! تصفيق .. هتاف .. إلا أن نفس ذلك الذكى ينبرى قائلاً: إن المدرب يغمز إلى الجرو ويربت بقدمه على الأرض عندما يصل

الجرو إلى الرقم الصحيح - فيأتمر الجرو بأمر سيده ويختار الرقم الصحيح .. ويبدو أن التفسير كان صحيحاً فيهدأ الجمع قليلاً إلى أن تحين فقرة البهلوان .. ويأتى البهلوان ويتسلق عالياً ثم يقفز من ارتفاع ثلاثة طوابق .. ويهيج الجمهور .. رائع .. مستحيل .. غير معقول ..! إلا أن هذا الذكى يخرج عليهم ثانية قائلاً: إن هذا البهلوان قد فقد رجليه الإثنتين وهو الآن يمشى على أرجل من الكاوتش - وبهذا يقفز من علٍ فلا يصيبه أى ضرر .. وينظر الناس إلى بعضهم البعض .. وينظر أحمد إلى ذلك الرجل الذكى الذى يحل جميع المشاكل المستعصية - ويسود الهدوء .. ثم تأتى فقرة الأسد .. وتدق الطبول .. ويدخل بطل السيرك ويدخل الأسد .. وتقشعر أجساد النظارة .. ماذا سيفعل البطل مع الأسد ..! ويضرب البطل بالكرباج .. ويفتح الأسد فاه .. ويُدخل بطلنا رأسه إلى فم الأسد .. وتقشعر أبدان الجمهور للحظات .. ويُخرج البطل رأسه سليمة من فم الليث الهصور .. ويهيج الجمهور .. هذا هو البطل بحق .. وينظر أحمد إلى ذلك الرجل الذكى - لعله يخرج علينا بتفسير لذلك الذى حدث - إلا أن ذلك الذكى قد أسقط فى يده - وجلس منبهراً هو الآخر بلا صوت .. لاشك إذن أن هناك أمور خارقة للطبيعة لاقبل لنا نحن البشر بمعرفتها .. لاشك إذن أن هناك معجزات .. ويخرج أحمد من السيرك ويشعر أنه قوى - وأنه لايقهر .. وأنه يستمد قوته من هذا البطل الخارق .. ولاقبل لنا نحن بفك هذه القوانين الخارقة التى لا منال لها .. ولاأحد يعلم السر .. والوحيد الذى يعلم السر هو المدرب نفسه .. وهو الذى يطعم الأسد كل يوم عشر قطع من اللحم المفروم كالمهلبية .. فإن أسدنا العجوز قد فقد أسنانه كلها .. وماعاد فى استطاعته إيذاء ذبابة ..

هذه هى قصة مصطفى محمود العبقرية .. وهى فى رأيى تلخيص لقضية الغيب برمتها ..

إن الغيب، كما يعرّفه رجل الدين، هو مالاقبل لنا بإدراكه - وإن أدركه بعض المتميزين من البشر ..

أما الغيب، كما أعرّفه أنا، فهو مالم ندركه بعد ..

الغيب .. كما أفهمه أنا - هو مانعمل حثيثاً على إدراكه وفهمه .. وما أن فهمناه صار مشهوداً وواقعاً وحالاً .. وصار حقيقة نتفهمها وندرسها ونستخدمها كل يوم .. وصار علينا أن نبدأ الآن من حيث انتهينا سابقاً .. ونتسلق جبلاً معرفياً آخراً .. وهكذا تتحقق المعجزات .. وعلى هذا النحو يتقدم البشر ..

١٨) معنى الدين

يقول الصديق الملحد: "اسمع .. إذا كانت عندكم جنة كما تقولون فأنا أول واحد سوف يدخلها فأنا أكثر ديناً من كثير من أصحاب اللحى والمسابح إياهم .. فأنا لا أؤذى أحداً ولا أسرق ولا أقتل ولا أرتشى ولا أحسد ولا أحقد ولا أضمر سوءاً لمخلوق ولا أنوى إلا الخير ولا أهدف إلا إلى النفع العام .. أصحو وأنام بضمير مستريح وشعار حياتى هو الإصلاح ما استطعت .. أليس هذا هو الدين ألا تقولون عندكم إن الدين المعاملة ..؟"
ويرد مصطفى محمود:
"هذا شيء له اسم آخر .. اسمه حسن السير والسلوك .. وهو من مقتضيات الدين ولكنه ليس الدين .. إنك تخلط بين الدين وبين مقتضايته .. والدين ليس له إلا معنى واحد هو معرفة الإله .. أن تعرف إلهك حق المعرفة ويكون بينك وبين هذا الإله سلوك ومعاملة .. أما حسن معاملتك لإخوانك فهى من مقتضيات هذا التدين وهى فى حقيقة الأمر معاملة للرب أيضاً .. أما إذا اقتصرت معاملاتك على الناس لا تعترف إلا بهم ولا ترى غيرهم ولا ترى غير الدنيا فأنت كافر تماماً وإن أحسنت السير والسلوك مع هؤلاء الناس .. إنما يدل حسن سيرك وسلوكك على الفطانة والسياسة والكياسة والطبع اللبيب وليس على الدين فأنت تريد أن تكسب الناس لتنجح فى حياتك وحسن سيرك وسلوكك ذريعة إلى كسب الدنيا فحسب .. وهذه طباع أكثر الكفار أمثالك .."

Hmmm ..

حسناً ..
ويعنينى هنا أن أوضح أمراً غاية فى الأهمية أراه غائباً عن أذهاننا تماماً فى بلادنا المتدينة .. ذلك هو أن كون الصديق الملحد حسن السلوك فهذا أمر يحسب له بالطبع وليس عليه - فهو حسن السلوك نظراً لأنه يعلم ألا استقامة لمجتمع سوى أن ينتهج أبنائه نهجاً أخلاقياً قويماً - وذلك بالطبع يحسب له فهو لايفعل ذلك خوفاً من عقاب ذلك الكائن الخارق الذى تحدثنا عنه ولكنه يفعل ذلك عن اقتناع تام بصحته وفائدته للمجتمع .. أما إذا اقتنع هو بمبدئك وقرر أن يرضى هذا الكائن الذى تفرضه علينا لكان لزاماً عليه أن يستل سكيناً أو مدفعاً رشاشاً بعد أن يفرغ من صلاته ويخرج به على البشر مروعاً إياهم إن هم لم يؤمنوا بما يقول فإنه قاتلهم عن بكرة أبيهم .. وهو بذلك يحقق قول إلهك "قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم

الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" و "ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين" و "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن" و"اقتلوهم حيث ثقفتموهم" و "كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" و "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق" و "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين"، وقول نبيك "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم" و"من غير دينه فاقتلوه" ..

ولكان لزاماً عليه أيضاً أن يخرج إلى المحاكم فيلغى جميع الأحكام المدنية ويستبدلها بحدود الجلد والرجم وتقطيع الأطراف .. وأن يخرج إلى الملاهى والحانات ومعاهد الرسم والفن والمتاحف ويسوى بها الأرض عملاً بقول نبيك "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" و "من استمع إلى قينة صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة" و "يكون فى أمتى خسف وقذف ومسخ إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر" و"إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا تماثيل ولا جنب" و"إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون كل مصور فى النار يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه فى جهنم" و "إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم .."

أليس كذلك ..؟

ودعنى هنا أسألك سؤالاً: أيكون الإنسان إن فعل ذلك أفضل حالاً عند إلهك ممن لم يؤمن بإلهك برغم حسن سيره وسلوكه ..؟ أم أن هذا هو حسن السير والسلوك فى مفهوم الإله الذى تفرضه علينا ..؟

● ● ● ● ●

وفى السطور التالية يدور هذا الحديث الجدير بالاهتمام ..

يقول الملحد: "صدقنى أنا أشعر أحياناً بأن هناك قوة ..

- قوة!

- نعم .. ثمة قوة مجهولة وراء الكون .. أنا أؤمن تماماً بأن هناك قوة ..

- وما تصورك لهذه القوة .. أتتصورها كائناً يسمع ويرى ويعقل ويتعهد مخلوقاته بالرعاية والهداية وينزل لهم الكتب ويبعث لهم الرسل ويستجيب لصرخاتهم وتوسلاتهم؟
- بصراحة أنا لا أصدق هذا الكلام ولا أتصوره وأكثر من هذا أراه ساذجاً لا يليق بهذه القوة العظيمة ..
- إذن فهى قوة كهرمغنطيسية عمياء تسوق الكون فى عبثية لا خلاق لها .. وهذه هى الصفة التى تليق بقوتك العظيمة ..
- ربما ..
- بئس ما تصورت إلهك .. خلق لك البصر فتصورته أعمى .. وخلق لك الرشد فتصورته عابثاً أخرق .. والله إنك الكافر بعينه ولو أحسنت السير والسلوك مدى الدهر .. وإن أعمالك الصالحة مصيرها الإحباط يوم الحساب وأن تتبدد هباءاً منثوراً .."
حسناً ..
كان ذلك فى السنة الثانية الإعدادية حينما درسنا فى كتاب الدين صفات الله عز وجل .. وكان منها الكلام والسمع والبصر .. وأذكر أن إحدى البراهين على تلك الصفات كانت أن "فاقد الشىء لايعطيه" - ففاقد صفة البصر لايمكن أن يخلق كائناً مبصراً ..
والكلام فى ظاهره جميل ومقنع بل ومبهر ..
ولكننى .. لاأعلم لم .. لم أتوقف عند ذلك .. وذهبت إلى أستاذى متفلسفاً حينما قلت: "أليس فاقد الشىء لايعطيه؟ كيف إذن تخلقت صفة الحقد لدينا وهى بالطبع ليست لدى الإله ..؟"
ويبدو أننى لم أتوقع خطورة الخوض فى هذه المنطقة .. وكان ماكان من ثورة عارمة ونهر وتهديد ..
ومأأريد أن أطرحه الآن هنا هو نفس هذا السؤال والذى هو فى محله ..
فحينما يقول مصطفى محمود أن الله خلق لنا البصر فتصوره الملحد أعمى فإنما هو يخاطب المشاعر التى يسهل عليها الإذعان والانبهار - ولاشك أن مقولة كهذه إذا ماقيلت بشكل درامى مشحون بالعواطف فى خطبة الجمعة لأثارت جأش المصلين ولدوت كلمة "الله" فى جوانب المسجد فى قوة وإباء .. إلا أن التفكير العلمى لايعترف بما خاطب الحواس وعطل المنطق .. وصراخ المصلين وهيبتهم لايغير من الإسلوب العلمى قيد أنملة .. ولايزال السؤال مطروحاً .. بل وليس ذلك السؤال فقط - بل وأسئلة أخرى مماثلة لاتتناول صفة الحقد فقط - بل كل الصفات ..
أليس فاقد الشىء لايعطيه؟ حسناً ..

كيف يخلق إلهاً لايتألم كائنات تتألم؟
كيف يخلق إلهاً لايبكى كائنات تبكى؟
كيف يخلق إلهاً لايعرق كائنات تعرق؟
كيف يخلق إلهاً لايتناسل كائنات تتناسل؟
كيف يخلق إلهاً لايتبول كائنات تتبول؟
كيف يخلق إلهاً بلا دم ولحم كائنات ذات دم ولحم؟
وآلاف مؤلفة من الصفات - ننفيها عن ذلك الكائن المتفرد الخارق - فهى دونه .. ولكننا لانزال نمنحه صفاتاً أخرى كالغضب والانتقام والتعذيب والجبروت - وهى صفات لايرى المؤمن أنها تنال من إلهه بل يراها تضيف إليه - وتجعله مهيباً مخيفاً مهيمناً - رغم أن التناقض هنا هو أنك حينما تنسب للإله صفة كالغضب مثلاً أو كإيقاع العذاب بمن هو دونه فإنك تجعله ناقصاً بالضرورة .. وكذلك عندما تقول بأنه خلق الجن والإنس ليعبدونه فإن ذلك يجعله كائناً محتاجاً وهو مايتنافى مع كونه كامل القدرة .. إلا أن القضية الأهم لدى الإله هنا هى أن تؤمن به أولاً وقبل أى شىء - ولهذا السبب كان القاتل المؤمن عند الله أفضل من الملحد حسن السير والسلوك .. وهنا يأتى سؤال الملحد، وهو سؤال فى محله، حينما يقول: ألا يكون ذلك ظلماً ..؟
ويرد مصطفى محمود:
"بل هو عين العدل .. فقد تصورت هذه الأعمال من ذاتك ليس وراءها الهادى الذى هداك والرشيد الذى أرشدك فظلمت إلهك وأنكرت فضله وهذا هو الفرق بين طيبات المؤمن وطيبات الكافر إذا استوى الاثنان فى حسن السير والسلوك الظاهر .. فكلاهما قد يبنى مستشفى لعلاج المرضى .. فيقول الكافر أنا بنيت هذا المستشفى العظيم للناس - ويقول المؤمن وفقنى ربى إلى بناء هذا المستشفى للناس وما كنت إلا واسطة خير .. وما أكبر الفرق .. واحد أسند الفضل لصاحب الفضل ولم يبق لنفسه فضلاً إلا مجرد الوساطة وحتى هذه يشكر عليها الله ويقول : أحمدك يا ربى أن جعلتنى سبباً .. والآخر أسند الفضل لنفسه وراح يقول أنا .. أنا كل شىء .. فارق كبير بين الكبرياء والتواضع .. وبين العلو وخفض الجناح .. وبين الجبروت والوداعة .."
إذن فحرق هذا الإنسان حسن السير والسلوك الذى لايضمر شراً لأحد ويصحو وينام بضمير مستريح وشعار حياته هو الإصلاح مااستطاع هو عدل فى نظرك - وفى نفس الوقت الذى يصلى فيه هو نار السعير يدخل جنتك قتلة وزناة لمجرد أنهم آمنوا بوجود ذلك الكائن الخارق وذلك بدليل الحديث القائل "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" والحديث الآخر الذى يرويه

أبو ذر: "ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق ثلاثاً ثم قال فى الرابعة على رغم أنف أبى ذر .."
أهذا هو العدل فى مفهومك ياأستاذى الكبير ..؟
وأنت حينما تسأل صديقك الملحد إن كان يؤمن أن هذه القوة كائن يسمع ويرى ويعقل ويتعهد مخلوقاته بالرعاية ويستجيب لصرخاتهم وتوسلاتهم - فلى أن أسألك هنا .. منذ متى كان ذلك الكائن الذى تفرضه علينا يستجيب لصرخات البشر وتوسلاتهم؟ هل استجاب إلهك لصرخات البشر عندما اجتاحت الفيضانات والزلازل والسونامى والطاعون والأوبئة البلاد وقضت على الملايين .. هل استجاب الله لأبناء الصين عندما قضت المجاعات على ٤٥ مليون إنسان؟ هل استجاب الله لأبناء أوكرانيا عندما حصدتهم المجاعات وأهلكت ٥ مليون إنسان؟ هل استجاب الله لصراخ أطفال ونساء فلسطين عندما اجتاح الصليبيون القدس وقطعوا أجساد البشر تقطيعاً؟ هل استجاب الله لصرخات وتوسلات ملايين البشر الذين أبادتهم جيوش المغول بلا أدنى رحمة ودمروا بيوتهم وممتلكاتهم وحضارتهم تدميراً .. هل استجاب الله لصرخات وتوسلات ألف من الحجاج وهم يصرخون تحت الماء فى العبارة الغارقة؟ هل استجاب الله لصرخات وتوسلات الأطفال والنساء والعجائز الأكراد يوم أن أبادهم حاكم العراق بالأسلحة الكيميائية؟ وهل استجاب الإله لصرخات وتوسلات اليهود الذين أحرقهم هتلر بالآلاف فى غرف الغاز؟
أم أن كونهم يهوداً ينفى عنهم كونهم بشراً ..؟

وأنت حينما تقول أن المؤمن يسند الفضل لصاحب الفضل حينما يقول: "وفقنى ربى إلى بناء هذا المستشفى للناس وما كنت إلا واسطة خير" فإن ذلك يدفعنا إلى أن نتسائل: وماذا عن القاتل؟ هل وفقه ربه للقتل؟ وماذا عن الظالم؟ هل وفقه ربه للظلم؟
أم أن هذه مهام الشيطان ..؟
ولنا هنا أيضاً أن نسألك سؤالاً ثانياً .. هل معنى ذلك الذى تطرحه علينا أنك تفعل الخير ليس لأنه خير - وليس لأنه صواب - وليس لأنه سيفيد المجتمع - وإنما تفعله لأنك تؤمن أن ذلك الكائن الخارق الخفى قد أمرك بذلك - وإن لم تفعل أنت ذلك فهو لحارقك ..؟
أهذا هو سبب فعلك للخير ..؟

وهل الأخلاق منبعها الخوف من كائن خارق للطبيعة سيعذبك .. أم أن منبعها هو المنطق السليم ..؟

وأنت حينما تقول أن الملحد تصور أن هذه الأعمال الحسنة قد نبعت من ذاته وليس ورائها الهادى الذى هداه والرشيد الذى أرشده .. ألا يناقض ذلك كلامك فى كتاب المسيخ الدجال صفحة ٢٥ عندما تقول "أن الله لم يخلق لأحد سره .. إنما سرك فيك منذ الأزل ومن قبل أن تولد ومن قبل أن تخلق؟"، وأيضاً عندما تقول فى صفحة ٣٣ من كتابك هذا الذى نحن الآن بصدده: "وعلم الله بنا وبقلوبنا يمتد إلى ما قبل نزولنا فى الأرحام حينما كنا عنده أرواحاً حول عرشه .. فمنا من التف حول نوره ومنا من انصرف عنه مستمتعاً بالملكوت وغافلاً عن جمال خالقه .. فاستحق الرتبة الدنيا من ذلك اليوم وسبق عليه القول .. هذا كلام أهل المشاهدة .."
لماذا فرضت علينا كلام أهل المشاهدة حينما تحدثنا عن استحقاق أهل النار للعذاب لأنهم انصرفوا عن ربهم حينما كانوا أرواحاً وأن هذه هى طبيعتهم السيئة التى لم يتدخل فيها الله، ثم تأتى الآن وتقول أن الله هو الذى يهدى الإنسان إلى فعل الخير والصواب ..؟ لماذا تفرض علينا كلام أهل المشاهدة من أن الأعمال السيئة منبعها سر الإنسان ونفسه وطويته ومكنونه ثم تخبرنا الآن أن الأعمال الحسنة منبعها الهادى الذى هداك والرشيد الذى أرشدك وليست نفسك وذاتك هذه المرة؟
دعنى أخبرك أنا لماذا تفرض علينا أنت ذلك .. السبب ياسيدى الفاضل ببساطة أنك قررت أن تنسب الأعمال الصالحة للإله وقررت أن تنسب الأعمال السيئة لكائن آخر - فتارة تنسبها للشيطان وتارة تنسبها لنفس الإنسان وذاته، وبذلك تنزه الإله عن الأعمال السيئة وتحل المشكلة فى كلمتين ..
ولازلت أسألك .. ومن خلق لك ذاتك فى مفهومك ..؟
ومن خلق الشيطان طبقاً لمعتقداتك ..؟
أليس هو إلهك أيضاً؟
أم أن الشر ليس له خالق أو موجد ..؟
ألم تنبع هذه الأشياء تحت سمع وبصر إلهك؟
ألا يعلم ذلك الكائن الخارق كيف سنتصرف نحن حينما يوسوس ذلك الشيطان لنا؟ ألم يخلق هو لنا الهرمونات والإنزيمات والمشاعر والأحاسيس والأطماع الذى يعلم هو تمام العلم كيف ستتحرك أمام إغواء شياطينه؟

هل لنا إذن أن نتخيل كائناً خارقاً يصّنع كائنات صغيرة على شاكلته ثم إذا به يصّنع كائنا آخراً شريراً ليتولى مهام الإغواء والإيحاء بالشرور ثم إذا به يحرقنا إن نحن أطعنا مافطره هو فينا؟
ألا ترى معى أن ذلك الكائن الخارق الذى تفرضه علينا هو كائن مصاب بانفصام الشخصية والسادية والهلاوس؟
وإذا اتفقنا معك أن الإله قد خلق لك الجسد ليفضح قلبك كما تقول - فلنا هنا أيضاً إذن أن نتسائل - ومن خلق لك قلبك فى مفهومك ..؟
أنت ..؟
ومن خلق ذلك الـ"أنت" طبقاً لمعتقداتك؟
الشيطان ..؟
ومن خلق الشيطان إذن ..؟
ولماذا تنفى مهمة خلق الشر عن إلهك وتنسبها إلى كائن آخر متمرد سيء السمعة ..؟
إن قضية الإله والشيطان لربما كانت أعقد مشكلة تواجه مدعى الإيمان .. فالسؤال الذى أثيره الآن أنا هنا هو: ماهى حكمة إلهك من خلق ذلك الكائن المتمرد سيء الطباع المسمى بالشيطان؟ وكيف له أن يتمرد على الكائن مطلق القدرة ومطلق السيطرة والهيمنة والجبروت ومطلق القوة طبقاً لأطروحاتك ومعتقداتك؟
كيف يتمرد الناقص على الكامل المكتمل المتكامل تمام الكمال ..؟
وكيف يتمرد التابع على المستقل ..؟
وكيف يتمرد النسبى على المطلق ..؟
أن أتمرد أنا على رئيسى فى العمل فهذا مفهوم - فهو إنسان شأنه شأنى تماماً - له عيوبه ومساوئه ونقاط ضعفه .. أما أن تفرض على كائناً مطلقاً .. أى أنه الأول والآخر والكل والتمام والكمال على إطلاقه .. كيف يمكن لصنع يديه التمرد عليه ..؟
ألا تهبط أنت به هنا من ذلك العلياء الذى أحطته به إلى رتبة الغريم أو الند أو الفتوة؟
أنا أعلم ماقد يدور الآن بذهنك أيها القارىء .. لربما قلت الآن فى نفسك إن كنت أحد المؤمنين بكلام مصطفى محمود أن هناك الكثير من البشر ممن يتمردون على الإله .. ومنهم أنا كاتب هذه السطور ..

ودعنى أخبرك ياعزيزى أننى لم أتمرد على الإله .. فأنا لم أره ولاأدركه ولاأعرفه .. ولاهو يحادثنى ولايتصل بى ولاأسمعه ولاأراه .. وإنما أتمرد على من يقص على قصة هذا الإله ويطلب منى الخضوع لأمور تنافى المنطق .. وهو فى واقع الأمر يطلب منى أن أخضع له هو - لا للإله ..
لقد نصب رجل الدين نفسه إلهاً علينا، وإن نحن لم نطعه كفرنا وحق علينا العذاب - وإن نحن أطعناه دخلنا الجنة ..
لاياسيدى الفاضل .. إنك لن تخضعنى بجنتك ونارك .. ولن أتفق معك وأحترمك إلا حينما تبادلنى احترام العقل والمنطق والتفكير السليم ..
وأنا ليست لدى مشكلة إن قررت أن تسبنى بأقذع الألفاظ، فهذا ماأتوقعه من الكثيرين من مدعى الإيمان - أما إن أردت بعد أن تنتهى من سبابك ولعناتك وبعد أن تكون قد أرضيت إلهك بذمى والدعاء بحرقى وسحلى فى نار جهنم أن تناقشنى بالعلم والمنطق والحجة فأهلاً وسهلاً .. أما إذا لم يكن لديك سوى السباب واللعنات فاعذرنى إذ لن تجد عندى مايلتقى مع مأخذك للأمور ..

١٩) فزنا بسعادة الدنيا وفزتم بالأوهام

يقول الملحد: "مهما اختلفنا ومهما طال بنا الجدل فلا شك أننا خرجنا من معركتنا معكم منتصرين فقد فزنا بسعادة الدنيا وخرجتم أنتم ببضعة أوهام فى رؤوسكم .. فلنا السهرة والسكرة والنساء الباهرات والنعيم الباذخ واللذات التى لا يعكرها خوف الحرام .. ولكم الصيام والصلاة والتسابيح وخوف الحساب .. من الذى ربح؟"

ويرد مصطفى محمود: "هذا لو كان ما ربحتموه هو السعادة .. ولكن لو فكرنا معاً فى هدوء لما وجدنا هذه الصورة التى وصفتها عن السهرة والسكرة والنساء الباهرات والنعيم الباذخ واللذات التى لا يعكرها خوف الحرام .. لما وجدنا هذه الصورة إلا الشقاء بعينه .. لأنها فى حقيقتها عبودية لغرائز لا تشبع حتى تجوع، وإذا أتخمتها أصابها الضجر والملل وأصابك أنت البلادة والخمول .. هل تصلح أحضان امرأة لتكون مستقر سعادة، والقلوب تتقلب والهوى لا يستقر على حال والغوانى يغرهن الثناء .. وما قرأنا فى قصص العشاق إلا التعاسة فإذا تزوجوا كانت التعاسة أكبر وخيبة الأمل أكبر لأن كلا من الطرفين سوف يفتقد فى الآخر الكمال المعبود الذى كان يتخيله .."

وأنا أقول هنا أن أول مايتبادر إلى أذهاننا فى الشرق إذا ماذكرت كلمة "ملحد" هو الخمر والنساء والعربدة .. وهذا دليل على أن هذه الأمور هى مانفكر نحن فيه فى بلادنا المتدينة، وكأن السبب الوحيد الذى يحُجمنا عن ذلك هو أن هناك كائناً خارقاً للطبيعة يرانا وسوف يحرقنا إن فعلنا مثل هذه الأمور - ليس لأن الأخلاق هى مايضمن تحسن المجتمع ..

إن الأخلاق كما أفهمها أنا هى أن تعطى كل ذى حق حقه وألا تكون مصدر ضيق أو إزعاج أو ضرر للآخرين - وأنا أحيى نبى الإسلام على نطقه بهذه الكلمات القليلة التى تعنى الكثير ..

أما تعريفك أنت للأخلاق طبقاً لردك على صديقك الملحد فى هذا الباب وسابقه هو أن تذعن لذلك الكائن الذى تسميه بالإله .. وإن أمرك بالقتل ..

وتحضرنى الآن مقولة دوستويفسكى فى رواية "الإخوة كارامازوف" على لسان الإبن "أيفان" حين يقول "إذا لم يكن الله موجوداً فكل شىء مباح حتى القتل" .. هذا هو مفهوم أيفان للأخلاق .. ذلك أن المانع الوحيد من الجريمة هو الإيمان بكائن خارق خفى يسكن السماء ..

وأنا يسعدنى بالطبع أن يكون هناك إلهاً جميلاً عادلاً يقهر قوى الشر فى الكون ويتدخل ليمنع قتل الأبرياء ..
ولكن ماذا إن كان الله موجوداً - وكان أن أمرك هو نفسه بالقتل؟
هذا الإله هو إله المسلمين ..

• • • • •

أما بالنسبة للهو والنساء والخمر والنعيم الباذخ وخلافه فأنا لاشأن لى بكل ذلك - إذ أن تلك الأمور ليست تبعاتاً تلقائية للفكر الحر - أو ليست هى ماينبغى أن تفعله لتكون مفكراً حراً - وأنا لست مسئولاً عمن قرر أن يسكر ويلهو ويعربد ويغرق فى ضرام الشهوات وسعار الرغبات كما تقول - وإنما أنا أدافع عن حرية الفكر وإعمال المنطق .. وأنا لاأرى أنه من المنطق أن نقضى حياتنا فى لهو وعربدة ولهث وراء الشهوات - فإن نحن فعلنا ذلك فأين العمل وأين العلم إذن؟ وكيف لنا أن نحسن من حياتنا وحياة الآخرين إن كان لاهم لنا سوى ذلك ..؟

• • • • •

ويعرف مصطفى محمود السعادة بأنها "حالة من السلام والسكينة النفسية والتحرر الروحى من كافة العبوديات وحالة صلح بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والآخرين وبين الإنسان والله" .. وبالطبع كل ذلك جميل - وإن حقق لك ذلك السعادة فهنيئاً لك وأنا ولاشك يسعدنى أن تكونَ سعيداً مرتاح الضمير ولاتضمر شراً لأحد .. فكل ماحقق لك السعادة لاشك أنه مرغوب وحميد شريطة ألا يكون ذلك على حساب الآخرين ..

• • • • •

وأخيراً يأتى سؤال لطالما انتظرته طويلاً .. إذ يقول الصديق الملحد: "ألم تكن مثلنا من سنوات تسكر كما نسكر وتلهو كما نلهو وتسعد هذه السعادة الحيوانية التى نسعدها وتكتب الكفر بعينه فى كتابك الله والإنسان فتسبق به إلحاد الملاحدة فماذا غيرك من النقيض إلى النقيض ..؟"

وهذا هو السؤال الذى حيرنى أنا شخصياً لسنوات - ولازال يحيرنى فى الحقيقة .. وهو السؤال الذى تسائلته أنا فى الباب السادس من هذا الكتاب وظننت ألّن أجد إجابة عليه .. ولكن هاهى الإجابة أمامنا الآن كما يطرحها مصطفى محمود:

"نظرت حولى فرأيت أن الموت ثم التراب نكتة وعبثاً وهزلاً ورأيت العالم حولى كله محكماً دقيقاً منضبطاً لا مكان فيه للهزل ولا للعبث .. ولو كانت حياتى عبثا كما تصور العابثون ونهايتها لا شىء .. فلماذا أبكى ولماذا أندم ولما أتحرق وألتهب شوقاً على الحق والعدل وأفتدى هذه القيم بالدم والحياة .. رأيت النجوم تجرى فى أفلاكها بقانون .. ورأيت الحشرات الاجتماعية تتكلم والنباتات ترى وتسمع وتحس .. ورأيت الحيوانات لها أخلاق .. ورأيت المخ البشرى عجيبة العجائب يتألف من عشرة آلاف مليون خط عصبى تعمل كلها فى وقت واحد فى كمال معجز .. ولو حدث بها عطل هنا أو هناك لجاء فى أثره الشلل والعمى والخرس والتخليط والهذيان وهى أمور لاتحدث إلا استثناء .. فما الذى يحفظ لهذه الآلة الهائلة سلامتها ومن الذى زودها بكل تلك الكمالات .. ورأيت الجمال فى ورقة الشجر وفى ريشة الطاووس وجناح الفراش وسمعت الموسيقى فى صدح البلابل وسقسقة العصافير وحيثما وجهت عينى رأيت رسم رسام وتصميم مصمم وإبداع يد مبدعة .. ورأيت الطبيعة بناء محكماً متكاملا تستحيل فيها الصدفة والعشوائية .. بل كل شىء يكاد يصرخ .. دبرنى مدبر .. وخلقنى مبدع قدير .. وقرأت القرآن فكان له فى سمعى رنين وإيقاع ليس فى مألوف اللغة وكان له فى عقلى انبهار .. فهو يأتى بالكلمة الأخيرة فى كل ما يتعرض له من أمور السياسة والأخلاق والتشريع والكون والحياة والنفس والمجتمع رغم تقادم العهد على نزوله أكثر من ألف وثلاثمائة سنة .. وهو يوافق كل ما يستجد من علوم رغم أنه أتى على يد رجل بدوى أمى لا يقرأ ولا يكتب فى أمة متخلفة بعيدة عن نور الحضارات .. وقرأت سيرة هذا الرجل وما صنع .. فقلت .. بل هو نبى .. ولا يمكن أن يكون إلا نبى .. ولا يمكن لهذا الكون البديع إلا أن يكون صنع الله القدير الذى وصفه القرآن .. ووصف أفعاله .."

حسناً .. لقد فهمت الآن أسباب الدكتور مصطفى محمود فى تحوله من الشك إلى الإيمان - وهى تقريباً نفس أسبابى أنا أو ماأقنعت نفسى به لربما إلى أن بلغت الثلاثين من العمر .. أما الفارق بينى وبين مصطفى محمود فهو أنه شيئاً فشيئاً بدأ فى رؤية المنطق فى تلك الادعاءات التى ذكرها فى إجابته وأدى ذلك به إلى الإيمان .. أما أنا فرأيت انعدام المنطق فى نفس تلك الادعاءات وأدى ذلك بى إلى نبذ الإيمان .. وأنا يسعدنى أنْ استقَر وهنأ

مصطفى محمود وارتاح وأراح نفسه من الجدل بعد أن وجد مرفأه فى هذه المعتقدات .. أما أنا فقد ابتليت بعقل يلفظ كل مايتعارض مع المنطق ولايقبل سوى ماكان منطقياً .. لذلك كان علىّ أن أعيد النظر فى كل هذه الادعاءات وأن أنظر إليها من منطلق علمى منهجى تحليلى بحت ..
أما بخصوص إجابة مصطفى محمود هذه فهى تقريباً ملخص ماأتى بالكتاب .. لذلك فلن أعيد على القارىء ماقلته فى الأبواب السابقة تعليقاً على كل نقطة فى هذه الإجابة - إلا أننى يعنينى أن أعلق على بعض نقاط أثارها هو هنا ورأيت لزاماً علىّ أن أتناولها بشىء من التحليل فهى نقاط جديرة بالاهتمام فى تقديرى ..
أول هذه النقاط هى السؤال الهام الذى يطرحه مصطفى محمود حينما يقول: "ولو كانت حياتى عبثاً كما تصور العابثون ونهايتها لا شىء فلماذا أبكى ولماذا أندم ولما أتحرق وألتهب شوقاً على الحق والعدل وأفتدى هذه القيم بالدم والحياة .."
وهذا فى اعتقادى أحد أهم الأسئلة فى هذا الكتاب ..
إن السبب ياأستاذى الكبير فيما تقول هو بقاء النوع ..
إن الشعور والإدراك والخوف والإقدام والألم بل والتضحية بالنفس هى كلها آليات بقاء النوع، أو نظام عمل النوع، والنوع هنا هو البشر ..
فكما أن للكون عمارته وبنايته وقوانينه، وكما للإلكترون أن يكتسب طاقة ليتحرك من مدار إلى مدار حول نواة الذرة ويفقدها ليعود ثانية إلى مداره، وكما للحيتان أن تهاجر عبر المحيطات وكما للنمل أن يسير فى طوابير ويعمل ليل نهار وكما للطيور أن تبنى أعشاشها فى صبر ودأب نستيقظ نحن من نومنا ونذهب إلى أعمالنا فى طوابير من السيارات يراها راكب الطائرة أو سفينة الفضاء تماماً كما نرى نحن النمل رائحاً غادياً فى طوابيره ونحارب ونقاتل ونتقاتل ونتكالب على لقمة العيش شأننا شأن جميع الكائنات .. وكل كائن له برنامج عمل وخطة بقاء تطورت عبر الأزمنة السحيقة لتضمن بقائه أو بقاء نوعه لأطول فترة ممكنة .. وفى حالتنا نحن كبشر فإن نظام عملنا ولاشك أعقد من نظم عمل باقى الكائنات الحية - فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى تطورت أحاسيسه ومداركه ومشاعره وصار قادراً على تحسين حياته وتطوير مجتمعه - إلا أن الأساس لازال هو نفس الأساس - والقاعدة هى نفس القاعدة - ألا وهى بقاء النوع ..
إن مانسميه نحن "فكراً" هو مجموعة التصرفات والأفعال والتفاعلات بيننا لاستمرار الحياة - وهى أحبال وجودنا وماضمن لنا الحياة ..

هذه هى مجموعة القوانين الطبيعية التى نسميها نحن بالوعى والذكاء والإدراك والغاية والهدف والعرف والأخلاق وهى ماتحكم تصرفاتنا ووظائفنا وتفاعلنا مع الكون ومافيه .. وهى مايؤدى بنا إلى أن نتصرف كما نتصرف ونتعامل كما نتعامل ونعمل مابوسعنا لبقاء النوع .. فنحن نعطى لأنفسنا هدفاً فى الحياة - هذا الهدف الذى نضعه نصب أعيننا هو إظهار لتركيبتنا الوراثية وبيئتنا التى نشأنا فيها وتفاعل هذا بذاك .. وهو ماأنجب الإنسان الذى هو أنت ..
قد يكون هناك شىء آخر لاأعلمه يحكم تصرفاتنا فى هذا الكون - وإن كنتَ على علم به فاخبرنى - ولسوف يسعدنى أن أتعلم شيئاً جديداً - شريطة ألا يخالف العلم والمنطق .. فكما قلتُ سابقاً نحن لانعلم من أين أتت قوانين الطبيعة ولكننا نعمل جاهدين على فهمها .. وكل يوم يأتى ومعه فهم جديد لأمر من الأمور .. وهو بحث لانهاية له ..

ثم دعنى أسألك، هل السبب الوحيد الذى بمقتضاه أنت تعمل وتجاهد وتبذل نفسك لتفتدى مثلك العليا هو أن هناك حياة أخرى بعد الممات ..؟ وهل يعنى ذلك أنك إن لم تؤمن بآخرة وثواب وعقاب فإنك إذن ستركل هذه الحياة فلايعنيك منها أى شئ ولاتقدم فيها ماينفع الناس ..؟ ألا ترى معى أن ذلك مضيعة لقدراتك وإمكانياتك ومايمكنك فعله لتحسين حياتك وحياة الآخرين؟ وهل ذلك سببه أنك رأيت مشكلة بعينها فى حياتك جعلتك تنتظر حياة أخرى بعد مماتك؟

وقبل أن أنتقل إلى النقطة التالية يعنينى أن أقول أن المفكر الحر ليس إنساناً عابثاً ولاهو يتصور أن الحياة عبث .. بل على العكس .. إن المفكر الحر يضع أمامه كل النظريات وكما قلت ولازلت أقول فإنه يلفظ مايتعارض مع المنطق ويمضى فى بحثه إلى أن يستقر على مااتفق مع التفكير السليم .. وليست هذه نهاية المطاف - وإنما هو يبدأ من حيث انتهى ويتسلق جبلاً معرفياً آخراً .. وليست هناك نهاية لهذا العمل الدؤوب ..

أما النقطة التالية التى يعنينى أن أعلق عليها هنا فهى ما يقوله مصطفى محمود بخصوص النظام المحكم فى الكون ..
حسناً ..
أثناء كتابتى لهذا الكتاب تناهى إلى علمى خبر سقوط طائرة فى الصحراء ومصرع كل من كان على متنها .. وسؤالى هنا هو .. هل هذا الحدث يدخل

ضمن النظام المحكم للكون الذى تتحدث عنه ياأستاذى الكبير ..؟ أم هو يدخل ضمن الاستثناءات ..؟
إن الناظر للوهلة الأولى إلى الكون لاشك سيرى النظام المحكم العظيم وسيرى الأفلاك فى دربها والمجرات فى دورانها والتوازن العظيم فى حركة الشمس ودوران الأرض ووظائف جسم الإنسان والكائن الحى إلى آخره .. ويمكنك أن ترجع البصر كرتين فلاترى من تفاوت أو من فتور .. هذا صحيح ..
ولكن لك أن تنظر مرة رابعة .. هذه المرة بالتلسكوبات والميكروسكوبات والرادارات وأعقد الأجهزة .. ساعتها فقط ستبدأ فى اكتشاف أن الأمر ليس كذلك بالضرورة .. نعم هناك نظام نراه على مدى حياتنا القصيرة فى هذا الكون - ولكن دعنا ننظر إلى منشأ الكون وإلى أين هو ذاهب .. إن نفس نظرية التمدد المطرد التى تحدثت عنها فى باب الإعجاز العلمى للقرآن هى نفسها التى تقول بأنه سيأتى وقت على الكون تتفكك فيه عراه تماماً وتتفتت جاذبيته وتنحل قبضته ويصير لاشىء .. ونظريات أخرى تقول بأن الكون سيعود فيتقلص وينكمش إلى أن يصير على ماكان عليه وقت الانفجار العظيم ثم إذا به ينفجر ثانية فإذا نحن بكون آخر وهكذا إلى مالانهاية من الأكوان .. ونظريات أخرى تقول بأن النجوم والكواكب والمجرات لاتزال تأتى إلى الوجود فى نفس الوقت الذى تنفجر فيه وتفنى أجرام أخرى وتبتلعهم ثقوب سوداء لاتحمل فى طياتها سوى العدم .. أين جنتك ونارك هنا .. وماهى الحكمة من كل ذلك ..؟ إن أنت أردت أن تفرض علىّ خالقاً مدبراً عليماً صنع كل ذلك لحكمة إذن فعليك أن تطلعنى أيضاً على حكمته من كل هذه الفوضى والبعثرة فى الكون .. إن هذا الكون ملىء بما لانهاية له من أجرام ومجرات ونجوم تولد وتموت .. وحضارات وشموس وكواكب لاحصر لها تأتى إلى الوجود وتنتهى وتفنى ويأتى غيرها وينتهى إلى مالانهاية من الأزمان والأكوان والحيوات .. إن شمسنا كما تعرف مصيرها إلى فناء إذ يحترق وقودها وسيأتى عليها يوم تنفجر انفجاراً عظيماً يمحق كل ماتحويه المجموعة الشمسية من أجرام وكواكب وحيوات فى لازمان .. إن الكون كله ليس سوى آكل ومأكول .. ومفترس وضحية .. وإنْ تَمكنا من العيش هنيهة فالخطر حولنا لايموت .. ودعنى أعيد عليك ما قلتُه سابقاً من أن كل مالدينا الآن قد يعصف به انفجاراً شمسياً .. أو نيزك عملاق - أو انفجار نجمى فى قوة تعادل ملايين القنابل الهيدروجينية .. وهذا يجرنا إلى ماتقوله من أن العطب فى الكون هو الاستثناء .. لاياسيدى الفاضل .. إن مانراه نحن أو نعرّفه على أنه عطب هو كل مالايساعدنا على الحياة .. وهو جزء لايتجزأ

من نسيج ذلك الكون وبنيته .. ولولا صراع الإنسان واجتهاده عبر الأزمان لما عرفنا مصلاً ولادواءاً ولا تمكنا من تكوين أية مجتمعات مستقرة ومدن وحضارات .. إن السبب الذى من أجله تبدو لك تلك الأمراض والبراكين والكوارث وكأنها استثناء هو أن الإنسان عبر ٢٠٠ ألف سنة قد حسن من واقعه وعمل جاهداً على تطوير الأمصال والأدوية العلاجية والوقائية وشق الأنفاق والترع واستصلح الأراضى وشيد بيوتاً لتحميه من كوارث الطبيعة وتضمن له الحياة الآمنة .. وهو أيضاً سن قوانيناً وأعرافاً تمكنه من الحياة فى أمن مع جيرانه وغيره من البشر .. ولازال الإنسان فى حربه مع الطبيعة ومع الآخرين .. فالحرب والسلم هما فى واقع الأمر وجهان لعملة واحدة .. وهما جزء لايتجزأ من وظائف هذا الكون .. ولازال الإنسان يحاول أن يحسن من مجتمعه وحياته واستقراره .. ولازال يعمل جاهداً على جعل حياته أكثر راحة وأقل عرضة للخطر من أبناء العصور السابقة .. لقد نشأ الإنسان الأول تحت رحمة الطبيعة، ونظر حوله فوجد أشجاراً وأنهاراً وصخوراً .. ومن هذه الأشجار والأنهار والصخور صنع الإنسان كل ما هو أمامنا الآن من إمكانيات .. إن ذلك لم يحدث بين يوم وليلة .. ولابطرقعة إصبع كائن خارق خفى يسكن السماء .. وإنما عبر علم وعمل وتجربة ونجاح وإخفاق ودأب وصبر واجتهاد وتحديات عبر الأزمان .. ولذلك فسقوط هذه الطائرة التى تحدثتُ عنها سابقاً هو أحد هذه التحديات - وكذلك السونامى الذى أهلك ٢٥٠ ألف إنسان فى أندونيسيا - وكذلك غرق الباخرة التى راح ضحيته أكثر من ألف إنسان .. وكارثة تشرنوبل الذى راح ضحيتها عشرة آلاف إنسان .. والطاعون الذى أهلك ثلاثة ملايين إنسان فى أوروبا .. كل هذه تحديات يعمل الإنسان على تفاديها والتقليل من فرص حدوثها فى المستقبل .. ولهذا السبب بدت لك استثناءاً ياأستاذى الكبير - إلا أنها للأسف جزء لايتجزأ من هذا الكون الذى نعيش فيه ..

إن الموت بداخلنا نحمله معنا منذ ولادتنا إلى أن يخضعنا فى حينه .. هذا كلامك .. وهو كلام صحيح ..

وأنت عندما تتسائل عما يحفظ لهذه الآلة سلامتها والتى هى مخ الإنسان ومن زودها بكل هذه الكماليات فالإجابة هى كل مادرسته فى كلية الطب .. وأنت أيضاً لاشك تعلم أن مايحفظ لهذه الآلة سلامتها هو نفس مايهدمها وينفيها .. إن كل شىء يحييك ويميتك فى نفس الوقت .. ولعلك فهمت مقصدى إن أنت درست الطب وعرفت أن مايحرك السيتوبلازم فى الخلايا هو نفسه مايوقفه .. وكيف أن الخلية الواحدة تحمل عوامل حياتها وعوامل فنائها فى نفس

الوقت .. إن نفس مايعطيك الحياة يسلبك إياها .. إن الماء الذى يهب الغزال الحياة يقبع فيه الموت فكوكاً للتماسيح ..

وأنت حينما تقول "إن كل شىء يكاد يصرخ دبرنى مدبر وخلقنى مبدع قدير" فأنت تدفعنى دفعاً لأن أعيد على مسامعك كل ماقلته فى كتابى هذا .. إلا أننى سوف أكتفى بأن أعرض عليك هنا لستة بالإشكاليات التى تثيرها أنت حينما تقول ذلك ..

الإشكالية الأولى فى كلامك هذا هى أنك تعطى لهذا المدبر صفاتاً إنسانية وتجعله رجلاً خفياً خارقاً للقوانين .. ثم إنك تأتى وتقص على قصة ذلك الكائن الخارق وتطلب منى الإذعان لما ينافى المنطق .. هذا باختصار أصل المشكلة .. إنك حينما تفرض على أن أؤمن بأن ذلك المدبر هو رجل خارق خفى سواءً كان عربى العنصر كالله وهبل واللات والعزى أو هندى مثل راما وكريشنا وشيفا وبراما أو إفريقى كأومومبورومبونجا وأنكولونكولو أو هندى أحمر كأتيرا وتسونكوا أو اسكندنافى كثور وأودين أو أسترالى مثل موكوى وماليندجى فإنك بذلك تقع فى المأزق الذى تحدثنا عنه سابقاً ذلك هو مأزق "الأنسنة" أو إعطاء صفات إنسانية بشرية لما هو ليس بإنسان أو بشر .. فنحن مثلاً ننظر إلى السيتوبلازم وهو يدور فى الخلية الحية أو الكواكب وهى تدور فى السماء ونعلم أن هناك شيئاً يحركها .. وحينما نفكر فى هذا الشىء فإننا لانستطيع مقاومة تخيل إنسان على شاكلتنا مهمته تحريك السيتوبلازم فى الخلية وتدوير الكواكب فى الفضاء .. والحقيقة هى أنه ليس هناك كائن خارق خفى على شاكلتنا وراء السيتوبلازم يحركه - وإنما ورائه شىء لانفهمه - ونعمل على فهمه - وإن تطلب ذلك عمر البشر أجمعين .. نعم هناك شىء لانفهمه جاءت بمقتضاه الأشياء .. أما ماهية ذلك الشىء أو الأشياء فهى لغز الألغاز، وهو لغز اللانهاية التى لايمكن تحديدها أو تعريفها - وكل ما يمكننا فعله أن ندرس ونتعلم ونسبر الأغوار وأن نتسلق سلم المعرفة خطوة وراء خطوة .. لاأن نلقى بالسلم جانباً ونفرض على أنفسنا ماهية على شاكلتنا تقطن السماء هى التى فعلت كل شىء ..
هذه هى الإشكالية الأولى فى كلامك ..

الإشكالية الثانية هنا هى أنك لاتقبل بإمكانية تطور كينونة معقدة (وهى الكون) من بدايات أولية فى غاية البساطة والضآلة ثم تفرض علينا كينونة أكثر تعقيداً بمكان (وهى الإله) أتت من لاشىء ..

هل ترى هذا التناقض كما أراه؟
وهنا بالطبع سوف تسألنى من أين أتت تلك البدايات الأولية متناهية البساطة .. وأنا أدعوك إلى أن تكمل القراءة ..

الإشكالية الثالثة هنا هى الحكمة من كل ذلك .. أنت تقول لى أن هناك انضباطاً عظيماً فى عمل الأشياء .. وهذا صحيح .. ولكن الفوضى فى الكون أيضاً أمر صحيح ومعلوم ومن ثوابت الطبيعة .. ذلك هو ارتحال كل شىء إلى مايعرف بتمام الخمول أو الموت الحرارى للكون، وذلك عندما تصل الطاقة الكونية إلى حالة من الانعدام التام ونأتى إلى نقطة تتفكك فيها عرى الكون تماماً ويصير البعد بين كل إلكترون وآخر بعداً لامنال له وتهيم بنية المادة فى فراغ سرمدى .. وذلك فى حساباتنا نحن كبشر وطبقاً لإمكانياتنا العقلية يتساوى مع اللاشىء - وهنا تكمن مشكلة من أعقد المشاكل الفلسفية - ذلك أن اللاشىء هو فى أصله شىء ولكن من فرط انعدام تأثيره على أى شىء آخر أو علينا نحن تحديداً صار لاشىء - أو تساوى مع اللاشىء أو العدم .. وهنا نصل إلى نقطة تمكننا من شرح هذه الإشكالية الثالثة - ذلك إن أنت قررت أن هناك إلهاً مدبراً حكيماً قد خلق كل ذلك باحكام وانضباط لصار لزاماً عليك أن تفسر لنا أيضاً ذلك الارتحال نحو العدم وسبب الفوضى والبعثرة فى هذا الكون .. وأيضاً لابد أن تشرح لنا سر الصراع فى الكون والحكمة منه، وهو سؤال الباب الثالث والذى لم تجب عليه حتى الآن .. ولاتهرب من هذا السؤال بأن تلقى بالكرة خارج الملعب وتأتى إجابتك بما معناه أنه لايعلم الغيب إلا الله - فهذه إجابة غاية فى الرخص والتواضع ..
إن القول بكون محكم الانضباط صممه أحدهم فى دقة متناهية لنتمكن نحن البشر من الحياة يذكرنى بما قاله الكاتب الإنجليزى الساخر دوجلاس آدمز الذى يدعوك أن تتخيل معه بركة صغيرة من الماء فى حفرة .. هذه البِركة "تستيقظ فى الصباح" وتتعجب قائلة: كم أنا محظوظة! إن هذه الحفرة تناسبنى تماماً! كل ثنية فيها صنعت لتناسب شكلى وحجمى بالتمام .. وتسطع الشمس ويتبخر الماء شيئاً فشيئاً ولاتزال تلك البركة على اعتقادها إلى أن تتبخر النقطة الأخيرة منها وهى لاتزال تقول نفس الكلام .. وهكذا حالنا حينما نتصور أن النهر قد سُخر لنا فى جريانه ليمدنا نحن خصيصاً بالماء، ولا حاجة له إذن أن يجر فى الصحراء إذ لابشر هناك .. وننسى أو نتناسى أن تلك الأنهار قد جرت على الأرض لملايين السنين قبل أن ينشأ الإنسان وقبل أن تنشأ أية حياة .. ولسوف تظل على جريانها سواء كان هناك بشر أم لا ..

وكذلك حينما نتصور أن هذه النجوم ماهى إلا مصابيح لتزين الأرض - ذلك الكوكب الذى لايعدو سوى أن يكون ذرة من تراب فى كون أبدى سرمدى لامنتهى له .. إن سبب تخيلنا لمثل هذه الأوهام هو أننا دائماً مانحاول أن نجد الحكمة فيما نراه حولنا من أشياء .. وفى معرض بحثنا عن هذه الحكمة إذا بنا نخلق لأنفسنا عالماً وهمياً من الآلهة والشياطين والأشباح وكائنات أخرى لادليل على وجودها من عدمه .. وكلما ازداد الطريق وعورة ازداد إيماننا بهذه الكائنات التخيلية وازداد عدد الإمكانيات الخارقة التى ننسبها إليها .. وبدلاً من الوصول إلى حل لمشكلة واحدة وهى (كيف أتت الأشياء) نجد أنفسنا وقد خلقنا أشياءاً أخرى أكثر تعقيداً بمكان من الأشياء التى أردنا أن نفسرها بداية .. وبذلك نزيد المشكلة تعقيداً .. ودعنى أعلنها هنا واضحة وبلا مراء – ذلك أننى ليست لدى مشكلة بالمرة فى أن أجيب على سؤال (كيف أتت الأشياء) بأن أقول بأننى لاأعلم ..
إلا أننى لاأتوقف عند ذلك بل أيضاً أقول أننى أعمل جاهداً على أن أعلم .. وهذا هو مادأب الإنسان على فعله منذ أن نشأ على سطح البسيطة .. والنتيجة هى مانراه الآن حولنا من علوم ومعارف وإمكانات وابتكارات ..
أما رجل الدين فليس لديه أى تردد فى أن يجيب على هذا السؤال بكلمة واحدة قاطعة لامراء فيها – تلك الكلمة هى: "الإله .."
حسناً ..
يقول المفكر الأمريكى برتراند رسل: "أننى إذا أخبرتك أن هناك إبريق من الشاى موقعه بين الأرض والمريخ ويدور حول الشمس، وأن هذا الإبريق صغير جداً بحيث لايمكن لأقوى التلسكوبات رصده، فإنك لن تستطيع نفى ماأقول. ولكن من الخطأ أن أقول أنك طالما لست باستطاعتك نفى ماأقول إذن فإن ماأقوله صحيح".
هذه هى أطروحة برتراند رسل الحكيمة المعروفة باسم "إبريق رسل"، أو "Russell's teapot" ..
إن كان هذا هو ادعائك أو تفسيرك فإنك أنت المنوط بإعطائى الدليل على ماتقول .. ولست أنا ..
أنا لم أدّع وجود رجل خارق خفى يسكن السماء هو من أتى بكل شىء، ولكن ذلك هو ادعائك أنت .. ولذلك فالمطالب بالإثبات هنا هو أنت ولست أنا ..

وأنت أيضاً المطالَب بأن تفهمنى الحكمة من كل ذلك الذى نراه حولنا فى هذا الكون .. ليس فقط بأن تحدثنى عن الإحكام والانضباط والدقة فى الكون، بل بأن تفسر لى أيضاً الصراع والفوضى والشر والفناء .. وآلام البشر ..

الإشكالية الرابعة هنا هى نسبية الخير والشر .. إذ ليس فى كوننا ذلك كما نعرفه خير مطلق أو شر مطلق - وإنما يوجد ذلك فى عالم المثل العليا والخيالات واليوتوبيا - وهى كلها أمور ناتجة عن خيال الإنسان ليس إلا - إنك لكى تعيش يجب أن تقتل كائناً آخراً .. ليس فقط أبقاراً وأغناماً وطيوراً وخلافه بل ونباتات وبكتريا وفطريات وحشرات وفيروسات وفئران بل وبشر آخرين - فكر فى كم الحروب البشعة التى سبقت وجودك والتى لولاها لما كنت أنت الآن هنا .. إذا أنت قلت بعدل مطلق وخير مطلق - ألا يعنى ذلك أن يحيا كل كائن دون أن يتعدى على أى من الكائنات الأخرى ..؟ وإن أنت قلت بثواب وعقاب - فكيف لنا أن نعرّف ماهو خير وماهو شر على وجه التحديد ..؟ إن ذلك يذكرنى بالممثل الأمريكى بيل كوسبى وهو الذى فقد ابنه ضحية عمل إجرامى بغيض عندما أطلق أحدهم عليه الرصاص فأرداه قتيلاً .. وأذكر مقولة كوسبى من أن الكثيرين كانوا يواسونه بقولهم أن تلك هى إرادة الله .. وكان يرد عليهم هو بقوله كلا - إن قاتل إبنى كان الشيطان مطيته .. أين الخطأ هنا وأين الصواب ..؟ أين الخير هنا وأين الشر ..؟ هل قتْل ذلك الشاب الصغير النابه كان من فعل الإله أم من فعل الشيطان ..؟ وهل يرى الإله مايفعله الشيطان ويسكت؟ وهل خلق الإله الشيطان تحديداً لمهام الشر أو لكى يقوم بالـ "Dirty work" الذى لايريد أن يلطخ يديه به؟ وهل الشر هو فى أصله خير لانعلمه ..؟ وحينما يخبرنا الدين أن الخير سينتصر فى النهاية وأن الباطل كان زهوقاً، ألا تعجب أنت وتتسائل أين هى هذه النهاية ؟ ألم تكف ٢٠٠ ألف عام من ظهور الجنس البشرى على الأرض كى نصل إلى نهاية المطاف الموعودة تلك والتى سينتصر فيها الخير ..؟ ومئات التساؤلات التى لاإجابة عليها فلا يكون من مدعى الإيمان سوى أن يلقى بكل هذه الأمور وراء ظهره ويتحملها - إلا أنها لاتلبث أن تلاحقه وتربكه من حين لآخر - إذ أن تجاهل هذه الأمور لايحل أى مشكلة - وإنما يرجئها فتتفاقم شيئاً فشيئاً .. والنتيجة هى الفوضى وعدم وضوح ماهو صواب وماهو غير ذلك فى رأس من ادعى الإيمان ..

هل ماتفعله الجماعات الإسلامية صواباً ..؟

هو ولاشك صواب من وجهة نظر إسلامية - إلا أنه شر مبين من وجهة نظر المنطق والقانون وحقوق الإنسان ..

هل مانحن فيه من تخلف هو ماأراد له الإله أن يحدث؟ ولماذا لاتتقدم بلادنا رغم الصلاة والتهدج والدعاء ..؟ ولماذا ركنا إلى التكاسل والفوضى رغم أذنا لدينا دين من المفترض أنه يحض على العمل الجيد الخلاق ..؟ ولماذا تقدم آخرون ليس لديهم مالدينا؟ وكيف حافظ آخرون على سلامة ونظام مجتمعاتهم دون إسلام ودون أى دين - مثل اليابان مثلاً أو الصين ..؟ (دعك من أمريكا وألمانيا فلقد صارتا موضة قديمة حينما نتحدث عن التقدم) .. وأين الخير وأين الشر فى تقدم أهل الكفر وتخلف أهل الإيمان ..؟ وإن كان الإسلام هو خاتم الرسالات وهو المنهج الذى ينبغى على البشرية أن تتبعه طبقاً لإلهك والذى هو أيضاً خالق هذا الكون أجمعه فى مفهومك - وجائت الفرصة لكى يحدث ذلك بالفعل بعدما اجتاحت القوات الإسلامية شمال إفريقيا والأندلس .. لماذا توقف الزحف عند حدود فرنسا ..؟ ولماذا سمح الله بهزيمة جيش المسلمين فى موقعة "تور" - ألم يكن ذلك هو الخير الذى يبغيه لخلقه ..؟ ولماذا مرت الحضارة الإسلامية بنفس منحنى جميع الحضارات من تفتح إلى ازدهار إلى اضمحلال ..؟ أليس ماأتى به نبى الإسلام هو الكلمة الأخيرة الجامعة المانعة الشاملة والحق والصواب ..؟
وماهى الحكمة من كل ذلك ..؟

الإشكالية الأخيرة فى قضية هذا الموجد أو المدبر الذى تفرضه علينا هى إشكالية التصديق المطلق وعدم النقاش أو تحديداً .. إشكالية "الإيمان" ..

إن الفرق بين العلم والإيمان، ياأستاذى الكبير .. هو الدليل ..

العلم يعمل جاهداً للوصول إلى الفهم وإيجاد الدليل والتحقق من الادعاءات .. أما الإيمان، على إطلاقه، فإنه يعطيك الحق أن تعتقد فى شىء سواء كان هناك مايرجحه أم لا، أو سواء كان الدليل عليه واضحاً أم لا ..

هذا هو الفرق بين العلم والإيمان، ياأستاذى ويامعلمى الكبير ..

إن الإيمان - بمفهومه العلمى - هو إن تؤمن بأرجحية أمر بعد أن تكون قد أخضعته للبحث والتجربة والاختبار وتحققت تمام التحقق من صحة فروضه واتفاقه مع المنطق بل وامكانية توظيفه واستخدامه والاعتماد عليه والعمل به - أما إن قررت أن تعتقد فى أمر ما بغض النظر عن مصداقيته أو منطقية مايدل عليه فهذا هو الإيمان الذى لايقوم على دليل، وهو أيضاً الإيمان

بمفهومه الدينى - مثل الإيمان برجل خارق خفى يسكن السماء هو من أتى بكل شىء ..
إن وجودى ووجودك ووجود هذا الكون المهيب لاشك يدل على أن هناك شىء ورائه لانفهمه - إلا أن المشكلة هنا هى أنك تدعى معرفة أو فهم هذا الشىء الذى لانفهمه وتفرض علىّ وعلى نفسك كائناً خارقاً خفياً على شاكلتنا يحادثنا ويرسل لنا الأنبياء ويكافئنا إن آمنا بوجوده ويحرقنا إن لم نفعل ذلك .. ثم إذا بك تلصق بذلك الشىء الذى لانفهمه صفات الكلام والسمع والبصر والتفكير ثم الانتقام والتعذيب والحرق والتدخل فى مسار التاريخ وفى كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحياة، وشيئاً فشيئاً يزداد عدد الفرضيات التى تضعها إلى أن نصل إلى مالانهاية من الفرضيات التى لايمكن اثباتها أو ليس عليها دليل واضح، وتجد نفسك وقد وقفت على قمة جبل شاهق من الافتراضات التى تتطلب التفسير، وحينما تعجز عن إثبات كل هذه الفرضيات إذا بك ترتكن إلى "الإيمان" - أى عدم الحاجة إلى دليل علمى واضح، وبهذا تنفض يديك من ضرورة إخضاع ماتؤمن به للتجربة والاختبار ..
إن العلم يعطيك إمكانية أن تؤمن بأرجحية شىء ما - كأن تؤمن بنظرية أو بحقيقة كالجاذبية - أو بإمكانية تطوير ماكينة إلى ماكينة أعقد وأكثر تطوراً إن أنت اتبعت قوانين الطبيعة وطوعتها للعمل .. فالعلم يعمل جاهداً على معرفة كنه الأشياء ويطرح نظريات تقبل المناقشة والاختبار والتعديل .. أما الدين فيدعى معرفة الإجابة على كل شىء وفى نفس الوقت لايقدم الدليل القاطع على أى شىء ..
إن العلم يبحث عن الإجابة - أما الدين فيخبرك بالإجابة ..
ومافعلته يادكتورى العزيز هو أنك فتحت باب النقاش والعلم والتعلم - ولكن ليس على مصراعيه .. إذ أنك توقفت قبلها وعزيت الباقى للغيبيات ..
إن مجرد الإيمان بهذا الكائن المسمى بالإله هو أمر كاف لشن أشرس الحروب وقتل الأبرياء وتكفير البشر .. والإيمان هنا الذى يدفعك لذلك هو إيمانك بإلهك أنت .. وليس بالإله الآخر ..
إن هذا الإيمان بإله دون آخر هو سبب أفظع الانتهاكات لأبسط حقوق البشر .. ذلك هو حقهم فى الحياة .. وهو ماتجعله أنت حكراً على من آمن بإلهك أنت - وليس بأى شىء آخر .. إن هذا الإيمان لهو عند البعض أهم من عرى القرابة وصلة الأهل - وسلامة وأمن المجتمع - إن البعض على استعداد لتدمير أهله وطنه وأسرته بل ونفسه فى سبيل مجرد (الإيمان) بوجود ذلك الكائن الخفى ..

وإن قُدر لكتابى أن ينشر ويقرأ - فإن لى طلباً عند من سينتقد هذا الكتاب - هذا الطلب هو أن تناقش معى هذه الإشكاليات الخمس بالعلم والمنطق والتحليل .. وكلى شغف أن أستمع إليك فى تفنيدك لهذه النقاط ..

● ● ● ● ●

قال صاحبى .. بعد أن أصغى باهتمام إلى كل ما قلت: "ماذا يكون الحال لو أخطأت حساباتك وانتهيت بعد عمر طويل إلى موت وتراب ليس بعده شىء؟"
ويرد مصطفى محمود : "لن أكون قد خسرت شيئاً فقد عشت حياتى كأعرض وأسعد وأحفل ما تكون الحياة .. ولكنكم أنتم سوف تخسرون كثيراً لو أصابت حساباتى وصدقت توقعاتى .. وإنها لصادقة سوف تكون مفاجئة هائلة يا صاحبى .."

وأنا أحيى ذلك الصديق الملحد لإنصاته باهتمام - فعلى هذا النحو تجب دراسة الأمور - حتى وإن اضطررنا للإنصات إلى أى تخريف .. إذ ربما نبهتنا بعض هذه التخاريف إلى أمر غاب عن ذهننا أو فتحت أمامنا باباً جديداً للتفكير ..
أما ماأثار انتباهى فى إجابة مصطفى محمود تلك فهى كلمة "صدقت توقعاتى" ..
إذن هى توقعات ..؟؟
حسناً ..
إن ماأعرفه وماأنا متأكد منه هو أننى الآن هنا فى هذا الكون - وأنه لابد لى من أن أفعل مااستطعت كى أحيا حياة جيدة نافعة لى وللآخرين .. أما مالاأعرفه ولست متأكداً منه ولم أر فيه أى منطق هو ماتفرضه على من أن هناك حياة بعد هذه الحياة ينال الفرد فيها مستحقاته وماله وماعليه ..
وبناءً على كلمة مصطفى محمود تلك فأنا أرى أنه من المنطق أن أعيش حياتى طبقاً لما أعرف وماكنت متأكداً منه وليس طبقاً لما لاأستطيع الجزم به - أو ما لم أجد دليلاً واضحاً عليه ..

● ● ● ● ●

وهنا يقول مصطفى محمود: "ونظرت فى عمق عينيه فرأيت لأول مرة بحيرة من الرعب تنداح فى كل عين ورأيت أجفانه تطرف وتختلج .. كانت لحظة عابرة من الرعب .. ما لبث أن استعاد بعدها توازنه .. ولكنها كانت لحظة كافية لأدرك أنه بكل غروره وعناده ومكابرته واقف على جرف من الشك والخواء والفراغ وممسك بلا شيء .."
وهنا لى وقفة - إن الرعب والترويع والإخافة والإرهاب هم أسلوب الإقناع المضمون لدى الإنسان المتدين - ولذلك إن نظرت إلى العذاب الأبدى لوجدت أن القائل به قد اختار أبشع شيء يمكن أن يحدث لكائن حى - ذلك هو الحرق ..
ولما كان الحرق ينتهى بموت الفرد قرر رجل الدين أن يوقظ هذا الإنسان المتفحم ثانية ويعيد له جلوده كى يحترق ثانية - وثالثة - ورابعة - وهكذا إلى أبد الآبدين ..
إلى هذه الدرجة وصل الشر وحب الإيذاء برجل الدين أن يتصور عقاباً مروعاً يفوق الوصف على هذا النحو كى يقهرك على الإذعان له والتسبيح بحمده ..؟
إنْ كان مايخبرك به الدين أمراً منطقياً ..وهو أيضاً الحق المطلق والصدق التام والصواب الذى لامراء فيه .. لم كل ذلك الترويع لإقناعك ..؟

● ● ● ● ●

ثم يقول مصطفى محمود:
"وحينما كنت أعود وحدى تلك الليلة بعد حوارنا الطويل كنت أعلم أنى قد نكأت فى نفسه جرحاً .. وحفرت تحت فلسفته المتهاوية حفرة سوف تتسع على الأيام ولن يستطيع منطقه المتهافت أن يردمها .. قلت فى نفسى وأنا أدعو له .. لعل هذا الرعب ينجيه .. فمن سد على نفسه كل منافذ الحق بعناده لا يبقى له إلا الرعب منفذاً .."
وهنا يعنينى أن أطرح سؤالاً ..
لماذا تدعو له بالهداية ..؟
أأنت أحرص عليه من نفسه؟
أليس طبقاً لمنطقك إن هو دخل النار لكان ذلك مكانه المناسب ..؟

أما بخصوص الحفرة التى حفرها مصطفى محمود تحت أقدام صديقه الملحد ففى رأيى أنا أن ماحدث بالفعل هو أنه أثناء حفْره لتلك الحفرة تحت أقدام صديقه وتحت فلسفته .. حفر حفرة تحت أقدامه هو نفسه ..
وعبر ثلاثين عاماً من حياتى مضت بعد قرائتى لكتابه ذلك - نظرت إلى تلك الحفرة الصغيرة التى حفرها هو تحت قدميه وإذا بها وقد اتسعت وصارت كفوهة بركان .. وجلست وأخذت فى ردم الحفرة الأخرى التى حفرها هو تحت أقدام صديقه الملحد .. ولعلى ردمت جزءاً لابأس به منها ..
ولى أن أقول أن ردم هذه الحفرة ليس هو غاية أملى أو السبب الذى من أجله كتبت هذا الكتاب - فغاية أملى ومأأطمح إليه هو إرساء قواعد الفكر الحر الذى يتفق مع المنطق فى عقلك أيها القارىء ..
وإن أنا فعلت ذلك لكان أعظم نجاح لى ..
ولك أيضاً أيها الشاب ..

٢٠) لماذا كتبت هذا الكتاب

قرأت مصطفى محمود فى سن مبكرة، وجذبنى أسلوبه السهل الشيق الممتع .. وبساطته فى عرض فكرته - وبالطبع زواجه بين العلم والدين - وهو مايطمح فيه أى شاب مهتم بالعلم وفى نفس الوقت يبغى إرضاء ربه .. وشيئاً فشيئاً صار مصطفى محمود بمثابة الأب الروحى بالنسبة لى - وكان هو غاية الأمل والمراد ..

كان يبدو لى حيناً كنجم ساطع وغاية أملى أن أدور فى فلكه .. أو كوكب درى وغاية مرادى أن يحتوينى فى كنفه .. وكنت أقرأ كل مايكتبه فى لهفة، وأتابع كل مايقوله فى شوق - بل كنت أحياناً أسجل ملاحظات على ورق أثناء متابعتى لبرنامجه الشهير .. ومن بين كتبه أعدت قراءة البعض مرة ومرات: رحلتى من الشك إلى الإيمان، لغز الحياة، نار تحت الرماد، المسيخ الدجال، عصر القرود، الأفيون، وبالطبع - حوار مع صديقى الملحد .. والذى لاأبالغ إن قلت أننى كان بإمكانى سرد أجزاء منه غيابياً من فرط ماقرأته وأعدت القراءة .. فلقد كان هذا الكتاب بالنسبة لى بمثابة دستور أو دليل لكيفية الحياة ..

وتمر سنوات وينضج فكرى ويستقل - وأبدأ فى النظر إلى تلك المسلمات من منظور جديد - هو منظور العلم والمنطق .. وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر الثغرات .. وتسائلت مع نفسى عن مصداقية تلك الأطروحات - وتبدأ حفرة أخرى فى الظهور - ليس تحت أقدام الصديق الملحد هذه المرة ولكن تحت أقدام المنطق الذى يعرضه مصطفى محمود فى كتابه .. وكلما فكرت وأمعنت التفكير كلما ازدادت تلك الهوة اتساعاً - حتى صارت كل ثغرة بحجم يكفى لإغراق منطق مصطفى محمود بأكمله - فى نظرى أنا على الأقل ..

وهو ماعرضته فى هذا الكتاب ..

وفى الحقيقة فأنا لاأتوقع لكتابى هذا إن قُدر له أن ينشر أن يغير من أى شىء - أو أن يُفيق الشاب الذى يفجر نفسه فى سبيل ماآمن به من هراء – فها نحن الآن محاطون بكل صنوف الفكر الحر الذى يتناول كل ادعاء دينى بالتحليل ويقوض كل منطق واه - ولازال القتل والترويع والإرهاب حولنا واقعاً مؤلماً نعيشه كل يوم .. إنما كتبت هذا الكتاب كشهادة منى على العصر - أو على فكر أكل عليه الزمن وشرب .. فما من شىء يزعجنى كما يزعجنى التصرف عن جهل - والاقتياد كالقطيع وراء فكرة أو وراء مبدأ لم تثبت مصداقيته .. ولايتماشى مع المنطق ..

إن هذا الاقتياد سببه الخوف - الخوف من الخروج عن القطيع - الخوف من تحدى المسلمات - الخوف من السباحة ضد التيار - والخوف من أن تجد نفسك وحيداً فى مواجهة فكر عشش فى أدمغة كل من حولك - أهلك ومجتمعك وأصدقائك ووطنك ..
إننى على علم تام بصعوبة تحدى ذلك - فإن أنت تحديت ذلك إذا بك تتحدى تاريخك وثقافتك ومصدر حياتك .. إلا أن ذلك لافرار منه - فإن أنت اتخذت من العلم والمنطق منهجاً ومساراً فلا مفر من المواجهة ..
إن أى أمر لايتفق مع المنطق فى النهاية لايمكنه أن يتفق مع العلم - والعكس صحيح ..
إن العلم إذا اتفق مع الدين فى أمر ما فذلك معناه أن الدين يطرح أمراً منطقياً - وهذا أمر لاغرابة فيه - فالدين أولاً وأخيراً نتاج الفكر الإنسانى لذا فلابد من وجود المنطق فى كثير من أطروحاته - أما لماذا تتنافى بعض الأطروحات مع المنطق فلذلك سبب فى تطورنا كبشر ..
ولقد فكرت كثيراً كيف أن ينتهى الحال بعلماء ومفكرين كبار باعتناق فكر لامنطق له - كيف مثلاً يؤمن عالم أحياء أو فيزياء أو طبيب نابه بأن الأرض والسماء خلقتا سوياً وأتيتا طائعتين - وكيف يؤمن ذلك العالم النابه بقصص الأولين كأن يمشى أحدهم على الماء أو أن يشق الآخر البحر بعصا أو أن يعرج أحدهم إلى السماء على متن جواد بأجنحه ..
وقد فكرت فى هذه القضية مراراً وانتهيت إلى أن العقل البشرى قد تطور على نحو معين يحتم عليه أن يحيد أحياناً عن المنطقية - ذلك ليستطيع العيش ..
فمثلاً لربما نظر الإنسان الأول حوله ورأى صخرة عن بعد – فما كان من العقل إلا أن وضع إمكانية أن تكون هذه الصخرة أسداً يختبىء فى الحرش .. كان هذا ضرورياً للإنسان الأول كى يعيش - فبرغم أن العين تترجم هذا الشكل إلى العقل على أنه صخرة لاحياة فيها - إلا أن العقل لازال يرفض قبول هذا الأمر على علته .. أو كان لابد أن يضع احتمالية ألا يكون الأمر كذلك ..
هذا هو بقاء النوع ..
لذلك فنحن ننظر إلى السماء فلا نرى سوى جماداً بارداً غير عابىء بشىء - إلا أن العقل يرفض ذلك ولابد من طرح إمكانية وجود شىء آخر ورائه .. كائن حى ..
مفترس جبار..
عملاق خارق للمعتاد من القوانين ..

هذه هى صناعة الإله ..

• • • • •

وقد يتسائل القارىء عن سبب عدم كتابتى لهذا الكلام أثناء حياة الدكتور مصطفى محمود نفسه .. وهناك إجابتان على هذا السؤال .. الإجابة القصيرة على ذلك هى أن فكرى لم يكن قد تطور بعد لأتمكن من رؤية الخلط فى كلام مصطفى محمود على نحو يمَكننى من نقده .. أما الإجابة المفصلة على هذا السؤال فلكى أطرحها يجب على أن أشير إلى حدث ربما كان هو السبب المباشر الذى دفعنى للتفكير فى الإقدام على هذا العمل ..
كان ذلك حينما استمعت إلى إحدى محاضرات الدكتور سيد القمنى والتى حمل فيها على مصطفى محمود بشدة وقال فيما قال أن مصطفى محمود أحال الشباب من العلوم إلى الكتب المقدسة .. وبدايةً صدمنى هذا الكلام - فمصطفى محمود كان هو أحد أهم أسباب حبى وإقبالى على العلم .. وفكرت كثيراً فى السبب الذى من أجله قال الدكتور القمنى هذا الكلام .. وتزامن ذلك مع مشاهدتى لإحدى حلقات الدكتور مصطفى محمود والتى كان عنوانها "صانع الساعات" .. وبعدها فهمت مقصد الدكتور القمنى ..
إن هذه الحلقة هى فى الأصل من إعداد المفكر الإنجليزى "ريتشارد دوكينز" وعنوانها "صانع الساعات الأعمى" أو "The blind watchmaker" وهى التى نال عليها جائزة العلوم والتكنولوجيا لأفضل فيلم وثائقى لعام ١٩٨٧.. وهى أيضاً ماعرضه فى كتابه الذى يحمل نفس الإسم .. وفى هذه الحلقة يشرح دوكينز كيفية تطور كائنات معقدة من بدايات شديدة البساطة .. وذلك عن طريق ما يعرف بالانتقاء التراكمى أو الـ Cumulative selection وهو ماينتج عنه بقاء واستمرار الصفات النافعة أو التى تساعد فى تكوين تحور نافع للكائن عبر الأجيال .. وأن الانتخاب الطبيعى ليس عملية عشوائية بالكلية كما يتصور البعض .. وهكذا تتكون أعقد التحورات والوظائف البيولوجية تدريجياً من بدايات أولية شديدة البساطة ..
وهناك الكثير مما يمكننى قوله تعليقاً على مافعله مصطفى محمود بحلقة ريتشارد دوكينز .. ولكننى سأكتفى بأن أقول أنه قد عرض النصف الأول فقط من الحلقة، ذلك الذى يشرح فيه دوكينز كيف أن الفرضية القائلة بقرد يجلس على آلة كاتبة ثم ينتج مسرحية لشكسبير هى فرضية لايمكنها أن تشرح عملية تطور الكائنات .. كان هذا هو الشىء الوحيد الذى أبرزه مصطفى محمود للمشاهد العربى .. وأكمل الباقى من عنده، ذلك أن ما يفسر

تطور الكائنات إذن هو وجود خالق عليم مدبر حكيم، وهو مالم يقله ريتشارد دوكينز- بل هو عكس كل شىء يقوله - وهو أيضاً الغرض الذى من أجله قدم دوكينز هذه الحلقة .. ففى النصف الآخر من الحلقة يعرض لنا دوكينز كيف أن الانتخاب الطبيعى ليس عشوائياً وإنما تُنتج الطفرات الطبيعية العديد من التحورات فتُبقى الطبيعة على ماينفع الكائن أو على مايُنتج صفة محسنة جديدة لها دور هام فى الطبيعة يساعد الكائن على البقاء والاستمرارية، وهذا هو مايعرف بالانتقاء أو الانتخاب التراكمى وهو مايُنتج التنوع الأحيائى العظيم الذى نراه حولنا بشتى أشكاله وتحوراته .. فالانتخاب التراكمى هو أساس التطور .. وهو مالم يعرضه مصطفى محمود ..
وأنا لاأعلم فى الحقيقة إن كان مصطفى محمود قد فهم مقصد ريتشارد دوكينز فى هذه الحلقة ولم يشأ أن يعلنه، أم أنه لم يفهم مقصده وتصور أنه يتحدث عن إله مدبر حكيم صمم الكائنات الحية وأعطاها هذه التحورات ..!
إن لم يكن مصطفى محمود قد فهم مقصد ريتشارد دوكينز فذلك أمر أراه صعب الفهم، فهو خطأ لاأرى كيف يمكن أن يقع فيه عالم بقدر مصطفى محمود ..
أما إن كان مصطفى محمود قد فهم مقصد دوكينز ولم يشأ أن يعلنه وأخفاه عن المشاهد العربى فلى هنا أن أقول أنه كان من الأجدر به ألا يعرض تلك الحلقة فى برنامجه - إذ أنه استخدم ماأنتجه دوكينز لإقناع المشاهد بعكس ما يقوله دوكينز.. وهو بالطبع أمر لاأعتقد أنه سيسعد دوكينز إذا ماسمع به ..
إنّ عرْض دوكينز لهذه الحلقة وإصداره للكتاب الذى يحمل نفس العنوان ليس سببه أنه يرفض تكاليف العبادات - وليس لأنه إنسان يفتقر إلى الأخلاق الحميدة، وليس لأنه من المغضوب عليهم ولاالضالين .. ولكن لأنه يبحث عن الحقيقة .. ولأنه فكر بعمق وحياد شديدين ولم يجد أى دليل واضح على ادعاءات الأديان - لذلك شمر عن ساعديه ودخل المختبر وعكف على فك شفرة الكون .. وأضاف جديداً لعلوم البشر ..

وأعود فأقول أن الله هو الإجابة السهلة على أى سؤال - أما الصعب هو أن تدلف إلى بحور العلم وتسبر لآلىء المعرفة ..

ولقد تسألت مع نفسى كثيراً إن كان مصطفى محمود يؤمن حقاً بذلك الذى يقوله ..؟ وفى حقيقة الأمر فأنا لاأجد لهذا السؤال إجابة .. فلاشك أن عالماً نابهاً ومفكراً عملاقاً مثله لابد وأن يرى التناقض الجلى فى الفكر الدينى

خاصة وأنه بدأ حياته مفكراً حراً جريئاً ولم يجبن عن اقتحام تلك المناطق الشائكة من الفكر الإنسانى ..
أن ينبذ الإنسان فكراً يتعارض مع المنطق ويعتنق فكراً منطقياً فهذا بالطبع مفهوم بل ومُتوقَع .. أما أن ينبذ الإنسان فكراً منطقياً ويعتنق ماينافى المنطق فهو مالاأفهمه ..
وياليت مصطفى محمود حياً يرزق بيننا الآن ليجيبنى على هذا السؤال .. وباقى الأسئلة فى هذا الكتاب ..
والدعوة مفتوحة لمن أراد الإجابة ..

● ● ● ● ●

نقطة أخرى أود لو تعرضت لها سريعاً هنا هى ماأتوقعه من بعض القراء الذين قد يثير انتباهم استخدامى لكلمات بعينها مثل "قُدر لى" و "إلى ماشاء الله" وغيرها من التعبيرات التى تتنافى مع ماأطرحه فى هذا الكتاب من نقد للفكر الدينى .. وقد قررت أن أترك هذا التعبيرات كما هى ولاأغيرها فهى تعبيرات من صميم اللغة العربية التى أنا من محبيها، وأنا لم أكتب هذا التعبيرات تمسحاً بأى معناً دينياً ..

● ● ● ● ●

وقبل أن أنهى هذا الكتاب وددت لو أجبت على سؤال أعلم أنه قد يراود ذهنك إذ تقلب صفحات هذا الكتاب .. ذلك السؤال هو: ماذا لو كنت أنا مخطئاً .. والإجابة على هذا السؤال هى أن الخطأ ضرورة، بل إن الخطأ فرض علمى ..
إن الخطأ هو احتمالية لابد أن يضعها العالم أو المفكر أو الفيلسوف جنباً إلى جنب إلى جوار احتمالية الصواب .. وينظر المفكر إلى هذا الجدول ذى الخانتين - الخانة الأولى ترجح صحة النظرية والخانة الثانية ترجح خطئها .. ويضع العالم أو المفكر فروضه ومعلوماته وحقائقه تحت كل بند ثم ينظر إلى هذين الاحتمالين - وإما أن يقبل أحدهما أو يقرر إعادة التفكير أو إعادة ترتيب الفرضيات والحقائق - أو جمع مزيد من المعلومات - ثم يعود لذلك الجدول ثانية - والمنطق يقول بعدم أرجحية ماكثرت فروضه وقلت حقائقه -

أو مافاقت فروضه التى لايمكن إثباتها أو التحقق من مصداقيتها مايدعمه من ثوابت ..
وإن كنت أنا مخطئاً فمعنى ذلك أن عقلى لم يتمكن من رؤية الصواب بعد أن قلبت كل أمر على كل أوجه .. وذلك أيضاً يعنى أن الإله الذى تؤمن أنت به قد قرر أن يخفى نفسه عنى تمام الإخفاء - بل وقرر أيضاً تضليلى كلما حاولت العثور عليه وفهمه أو إدراكه ..
قد تقول أننى لم أبحث بصدق وإخلاص وأمانة .. وأنا أقول لك أننى قد فعلت ذلك .. مرة ومرات ..
قد تقول أننى لم أخلص النية فى البحث، وفضلت حياة التحرر على التكليف والعبادة .. وأنا أقول لك أن تكاليف العبادات لهى أيسر بمكان من عناء الفكر والعمل والاجتهاد ..
وقد تقول أيضاً أنه من الخطأ أن أناقش العقائد والمسلمات وأن علىّ أن أؤمن بلا سؤال .. وهنا سأقول لك لا .. فعلى هذا النحو قرر عقلى أن يعمل .. وقررت أنا أن أمنحه حريته وأطلق له العنان .. والخطأ كل الخطأ أن أُحْجم عقلى عن التفكير .. فأنا إن فعلت ذلك لما كان هناك فرق بينى وبين مادونى من الكائنات ..
وفى النهاية إذا اتضح لى أننى كنت مخطئاً فأنا اتحمل مسؤلية ذلك ..
إن إيمانى بعقلى وبحرية فكرى لهو أقوى من إيمانك أنت بآلهة السماء ..

● ● ● ● ●

والسؤال الآخر الذى أعلم أنه قد يراود ذهنك هو: وماذا بعد؟ أى ماذا إن تخلى الإنسان عن فكرة الإيمان بالإله – هل سيؤدى ذلك إلى تحسن ما فى حياة البشر ..؟
ولى أن أجيب على هذا السؤال بأن أقول أن قضيتى هنا ليست هى أن يتخلى الإنسان عن تلك الفكرة على وجه التحديد – ولكن قضيتى هنا هى إعمال العقل فى الأمور ..
وليس لدى شك فى أن ذلك أملٌ محمود ..

● ● ● ● ●

ويهمنى هنا أن أقول أن الفكر الحر ليس هو التقدم .. وإنما هو مفتاح التقدم .. أو أحد مفاتيحه -
أما المفتاح الآخر فهو العمل ..
ولاتتصور أيها الشاب أن مجرد تساؤلاتك أو تحدياتك لهذا الفكر هى مايكفى للنهوض بحال أمة .. وإنما تلك هى أولى خطوات السلم .. وهى أيضاً مايمكنك أن تتكأ عليه كلما ازداد الصعود مشقة ..
ولامفر من الجهد والعرق ..

وأنا فى الحقيقة لاأعتقد أن تنكسر شوكة الفكر الإسلامى المتطرف فى القريب .. فالخوف والترويع والإرهاب هم منهج هذا الدين - وهى الأسلحة التى تضمن له الاستمرارية .. فمنذ صغرنا وقد تم زرع فكرة العذاب الأبدى فى جهنم فينا - وهى فكرة يصعب محوها من ذهن الإنسان البالغ بعد أن تم غرسها فى عقله كالنقش على الحجر منذ أن كان حدثاً صغيراً .. إلا أننى أتطلع للمستقبل - فبرغم عدم تفاؤلى للمستقبل القريب - إلا أننى آمل فى أن يحمل المستقبل البعيد تحولاً ما فى فكرة الإيمان - ولعل ذلك التحول يكون لإيمان بأمر أقل عنفاً وشراسة .. فالإيمان ضرورة للإنسان - ولسوف تظل فكرة الإله موجودة ومستمرة إلى الأبد - وعلى قدر عدم ارتياحى لهذه الحقيقة إلا أننى ليست لدى مشكلة فى ذلك إذا لم تتعارض هذه الفكرة مع الحياة الآمنة والمنتجة للبشر ..

وأملى فى المستقبل أراه فى معبد الأقصر بمصر ..

إن ذلك المعبد المهيب يحوى تاريخ الإنسانية برمتها فى جنباته ..
إن الزائر لهذا المعبد يرى كيف شيد الفراعين العظام تلك الأعمدة العملاقة تناجى السماء .. لقد ساد ملوك هذا العصر ولابد أنهم ظنوا ألا منال لهم – وألا نهاية تنتظرهم .. ويمر الزمن وتنحدر حضارتهم وسطوتهم .. وينال الزمن من معابدهم .. ويأتى من بعدهم الإغريق .. ويشيدون هياكلهم فوق ركام سابقيهم .. ويصولون ويجولون وتمتد فتوحاتهم إلى بلاد الهند .. ويمر زمن ويدركهم الهرم .. وتخبو ألوان حوائطهم ويتقلص نفوذهم .. ويأتى من بعدهم الرومان .. ويشيدون هياكلهم الباسقة .. ويعلو نفوذهم ويتعملقون كما لم يتعملق أى من الأقدمين .. ولابد أن قياصرهم علموا أنهم آلهة الزمان .. وأنهم من قهروا الموت .. وأنهم لابد مخلدون أبداً .. ومامن مدرك لقامتهم العالية ومامن مقوض لحضارتهم .. ويمر الزمن وتنكسر شوكتهم كما

انكسرت شوكة من قبلهم .. ويعتمل الشرخ فى هياكلهم وتتكسر حجارة أسوارهم .. ويأتى من بعدهم بدو الصحراء بعد أن أصابوا حظاً من القوة والهيمنة والتجبر .. ويرفعون مآذنهم فوق حطام الأقدمين .. ولعلهم الآن ينظرون إلى ركام الآثار حولهم ويتندرون على سابقيهم .. فهم ولاشك يعلمون أنهم الصواب والحق .. وأنهم هم الإجابة الصحيحة والأخيرة على كل شىء ..

ولى هنا أن أقول أن أفضل مالهذا المعبد أن يحويه - بعد أن تتحول هذه المآذن والأبراج إلى مزارات سياحية هى الأخرى شأنها شأن سائر حضارات الأقدمين .. هو أن يحوى مرصداً فلكياً ..

لقد حادثنا السماء طويلاً .. ولطالما تضرعنا وتباكينا وتمسحنا بهذه الهياكل والأضرحة .. ولم تجبنا السماء بشىء ..

وربما كان من الأدعى بنا أن ننصت للسماء - وأن نفتح أعيننا ونرهف آذاننا وندع السماء تخبرنا بأسرارها .. ولنا أن نتحف هذا المعبد المهيب بأثمن منحة يمكن أن يقدمها للعالمين .. تلك هى منحة العلم والمعرفة .. ولهذا المعبد أن يكمل درسه للإنسانية الذى بدأه منذ ٤٠٠٠ عاماً مضت .. ولنا أن نستكشف ماتحويه السماء فى طياتها من أسرار .. ليس بأن ننتظر مخلصاً أو نبياً أو ملاكاً .. ولكن أن نُعبّد نحن طريقاً يصلنا بالسماوات .. ذلك هو طريق العلم والعمل والاجتهاد ..

وقتها فقط تتم لهذا المعبد رسالته .. ولربما ساعتها حادثنا الأكوان وأسمعناها صوتنا .. ووضعنا بصمتنا فى هذا الكون المهيب .. وبلغنا رسالتنا نحن إلى السماء ..

• • • • •

ولك منى كثير الحب ياأستاذى ويامعلمى الكبير ..

• • • • •

فهرس

	كلمة أولى .. الخالق والمخلوق	2
1	السؤال الأول .. لم يلد ولم يولد	5
2	إذا كان الله قدر على أفعالى فلماذا يحاسبنى	22
3	لماذا خلق الله الشر	28
4	وما ذنب الذى لم يصله قرآن	39
5	الجنة والنار	62
6	هل الدين أفيون	68
7	وحكاية الإسلام مع المرأة	74
8	الروح	77
9	الضمير	89
10	هل مناسك الحج وثنية؟	100
11	لماذا لايكون القرآن من تأليف محمد؟	105
12	القرآن لايمكن أن يكون مؤلفاً	115
13	شكوك	127
14	موقف الدين من التطور	133
15	كلمة لاإله إلا الله	149
16	كهيعص	151
17	المعجزة	157
18	معنى الدين	163
19	فزنا بسعادة الدنيا وفزتم بالأوهام	171
20	لماذا كتبت هذا الكتاب	187